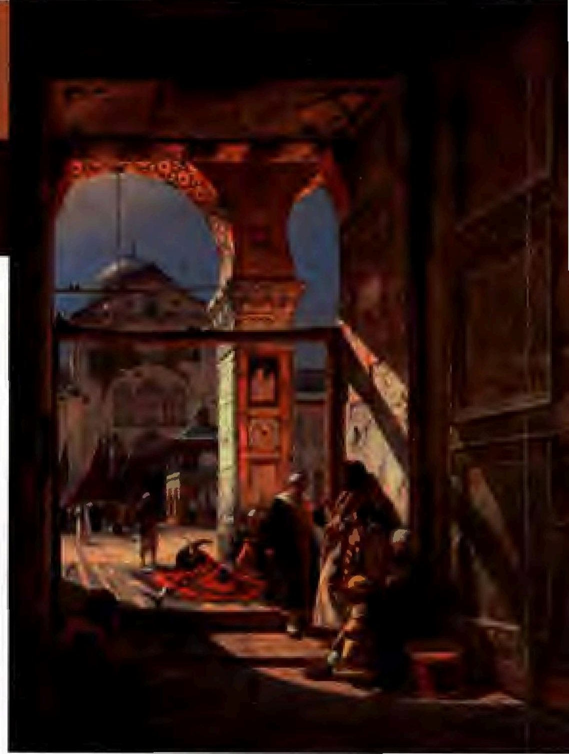
الألم الخلاصي في الإسلام

دراسة في المظاهر الدينية لمراسيم عاشوراء عند الشيعة الإمامية



البروفسور
محمود أيوب

أطروحة دكتوراه
جامعة هارفرد

ترجمه عن الإنكليزية وقدم له
الأب الدكتور أمير ججي الدومنيكي



المركز الأكاديمي للأبحاث

الألم الخلاصي في الإسلام

الألم الخلاصي في الإسلام

دراسة في المظاهر الدينية لمراسيم عاشوراء عند الشيعة الإمامية

محمود أيوب ـ جامعة هارفرد

ترجمة: الأب الدكتور أمير ججي الدومنيكي

المركز الاكاديمي للابحاث

الألم الخلاصي في الإسلام

دراسة في المظاهر الدينية لمراسيم عاشوراء

عند الشيعة الإمامية

محمود أيوب ـ جامعة هارفرد

ترجمة : الأب الدكتور امير حجي الدومنيكي

التقويم اللغوي: د. حسين الوطيفي.

تصميم الكتاب وغلافه: المركز الأكاديمي للأبحاث.

الناشر:المركز الأكاديمي للأبحاث

بيروت ـ ٢٠١٣

website\\www.academyc2010.com

Email - nasseralkab77@yahoo.com

توزيع: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

بناية الوهاد ـ شارع جان دارك

ص. ب8375 ـ بيروت، لبنان

تلفون: 344236/750872/350722 -1 -961+

تلفون + فاكس: 353000/342005/341907-1-961+

Email:tradebooks@all-prints.com

Website:www.all-prints.com

مقدمة المركز

تختزن تراجيديا كربلاء حزمة من أفكار وطقوس الولاء والشفاعة والإنقاذ والخلاص وفيها تترابط آلام الأحزان الجماعية كفكرة الأمل التي تتأجج وتتضخم حوليا مع عودة الزمان، فيدخل فيها المجتمع الشيعي أجواءا طقوسية وشعائرية يتجرد فيها عن ممارساته النمطية اليومية ويندفع نحو إجراء تلك المراسم وإقامتها طوعيا وعفويا ظاهرا أحيانا، وبشكل مخفي ومقنن في أحيان أخرى تبعا للظروف والسياقات التاريخية والسياسية الحاكمة واجتماعيا فإن تشكل هذه الأفكار وتناميها عند الشيعة دون غيرهم من الفرق الإسلامية جاء لظروف تاريخية متراكمة، فانتشار الإسلام السريع في بلدان عديدة وتولي الخلافة الإسلامية الرسمية من قبل الأمويين ثم العباسيين ثم العثمانيين، وهؤلاء كلهم من مذاهب أهل السنة، فإن فكرة الإنقاذ والشفاعة لم تكن ضرورية عندهم لاعتقادهم بشرعية الخلفاء؛ لذا لا نجد أهمية تذكر لتراجيديا الألم والمخلص عندهم. وربما يتعدى الأمر العامل الآنف الذكر إلى محاكاة وتناص مع أديان أخرى ولاسيما في فكرة الإنقاذ والشفاعة في تضحية الحسين وآلامه واستشهاده الفدائي فله ما يشابهه في المسيحية التي تعتقد أيضا بأن انقاذ البشرية سيتم على يد المسيح (عيسى بن مريم)؛ لأنه ضحى بنفسه من أجل انقاذ البشرية.

وقد يوغل الغاطس او التجذير التاريخي إلى أعمق من ذلك فشعائر عاشوراء وطقوسها المتعلقة بالموت والحزن والبكاء قد راجت في المجتمعات والأديان الشرقية القديمة (العراقية والإيرانية)، إذ تذكرنا تراتيل البابليين ومناجاتهم على خرائب سومر وأكد وكذلك مناجاة عشتار على فقيدها المقتول (تموزي) في سومر العتيدة بنواح زينب على أخيها الحسين وليلى على

وليدها علي الأكبر في كربلاء،كما تذكرنا الأساطير الإيرانية الكبيرة (سياوش) والحزن المستمر عليه لدى الشعب الإيراني؛ فهناك حالة ربط بين ثورة الحسين في كربلاء وتضحيته وبين الألم بالأمل، والأمل بالإنقاذ والخلاص النهائي السرمدي من أجل الإرادة الإلهية التي قررت ذلك الألم وتلك الشهادة وذلك الإنقاذ؛ لأن البشرية لا تستطيع وحدها أن تتغلب على الألم البشري؛ وبذلك أصبح الاستشهاد وطريق الشفاعة والخلاص (وأصبح الإمام الحسين) سفينة النجاة؛ لأنه ضحى بنفسه من أجلهم وعاش الشهادة بصبر وإرادة وتضحيته بأهله وبنفسه وبأصحابه من أجل إنقاذ المسلمين ونجاتهم، وهكذا اتخذ الألم من معنى الشهادة مقدماته المتالية ومؤثراته التاريخية التي أخذت تتشعب إلى يوم البرزخ والقيامة عندما يمارس الحسين دور الشفيع فيها[١].

تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة على بعض الأسئلة المعنية بمعنى الألم واستشهاد الحسين الذي تعدّه الشيعة ضروريا من أجل تحقيق دوره كإمام ومن دون ذلك لا يمكن أن يصبح مثالا للتضحية ولا مقياسا للحق والباطل ولا حتى شفيعا لأبنائه يوم الدين.

فالسؤال المركزي هو بأية طريقة اعتبر استشهاد الحسين فدائيا؟

تعد هذه الدراسة من الدراسات التأسيسية في هذا المضمار وهي عمل أكاديمي نال به صاحبه إجازة الدكتوراه من جامعة هارفرد في عام ١٩٧٥.

ومع المزايا التي تحملها هذه الدراسة فإنها أغفلت تغطية التاريخ المعاصر لهذه الفكرة وبحثها في المخيال الشعبي وما أنتجه من أدب

(١) للاستزادة عن ذلك ينظر: ابراهيم الحيدري، تراجيديا كربلاء سيسيولوجيا الخطاب الشيعي، قم (دار الكتاب الإسلامي، ٢٠٠٧).

وتصورات متنوعة حيالها، ويبدو أن هذا الأمر ما حاول أن يعالجه باحث آخر وهو الدكتور إبراهيم الحيدري في دراسته تراجيديا كربلاء، وما قام به لاحقا الأب الدكتور أمير ججي الدومنيكي.

ومما يجب الإشارة عليه في هذا المنحى أن المترجم أجاد في عمله لاختصاصه الدقيق في ميدان الدراسة.

د.نصير الكعبي

مدير المركز الأكاديمي للأبحاث

مقدمة المترجم

"الحسين سفينة النجاة" ، شعارٌ بين العديد من الشعارات التي نجدها في العالم الشيعي خلال طقوس عاشوراء وبشكل خاص في الايام العشرة الاولى من محرم. من المؤكد ان فكرة "المخلص" أو "المنقذ" أو "الوسيط" غير موجودة أصلا في الإسلام التقليدي العام، ولكن عندما نُطالِع الكم الهائل من القصص الشعبية والأحاديث الشيعية المنقولة، في بعض الأحيان، على ذمة احد الأئمة الاثني عشر، نتفاجأ فنجد أنفسنا أمام فكرة "الفادي المخلص" او "الشفيع المنقذ"، ربما ليس بنفس الوضوح الذي نجده في الديانات الأخرى كالمسيحية مثلا، لكنها مع ذلك، تُمايز الفكر الشيعي، بشكل من الأشكال عن الفكر السُني الذي لا يقبل اي نوع من الوساطة في الخلاص. أن مآساة الألم، التي بدأت مع استشهاد الحسين في كربلاء، وفكرة المظلومية التي بُني على أساسها الفكر الشيعي، كانت الدافع الأساس والمحرك الأول لفكرة الألم الخلاصي لدى الشيعة، وذلك عن طريق تضحية الحسين واستشهاده واستمرار المظلومية على أبنائه وأتباعه عبر الأزمان.

هكذا ارتبطت ثورة الحسين وشخصيته ومبادئه وبطولته وتضحيته بالألم، ومن الألم نحو الخلاص، وذلك من اجل إتمام المخطط الإلهي الذي كان قد أقرَّ ذلك الألم وتلك الشهادة وذلك الإنقاذ منذ البدء، لان البشرية لا تستطيع لوحدها أن تتغلب على الألم البشري، وبذلك أصبح الاستشهاد طريق الألم والخلاص، بحيث أصبح الحسين نفسه "سفينة النجاة" ، لأنه ضحى بنفسه لأجلهم فعاش الشهادة بصبره وإرادته وتضحيته بأهله وأصحابه، من اجل إنقاذ المسلمين ونجاتهم. وبهذا اكتسب الحسين دور

الشفيع يوم القيامة عن طريق الشهادة.

هذا الكتاب هو تطوير لأطروحة دكتوراه قام بها المؤلف في سنة ١٩٧٥ عن مفهوم الألم الخلاصي في الإسلام، وهي دراسة انثروبولوجية تحليلية، تناول بها المؤلف الجوانب الدينية التقويَّة لمراسيم عاشوراء عند الشيعة الجعفرية الاثني عشرية. وهذه الاطروحة تعتبر من أوائل الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، فعلى حد علمي، لم يسبق وان تناول باحث ما مثل هذا الموضوع بالشكل الذي تناوله مؤلف هذا الكتاب.

كنت قد تعرفت على هذه الدراسة في اطار بحثي الاكاديمي خلال فترة إعداد أطروحتي لنيل شهادة الدكتوراه عن مراسيم عاشوراء لدى الشيعة العراقيين، مما أتاح لي الفرصة لاكتشاف هذه الدراسة، وتمنيت حينها لو كان لي متسعا من الوقت لغرض تعريبها إلى اللغة العربية فيتسنى للقارئ العربي نهل ما تحمله من عمق أكاديمي وموضوعية.

ليس هناك من شك، في أن تناول طقوس وشعائر عاشوراء أكاديمياً بالنقد والتحليل العلمي والتقييم، يتطلب الكثير من الجرأة، اذ يحمل في طياته نوعاً من المخاطرة في أن تؤدي إلى ردود فعل غاضبة من قبل أولئك الذين نشأوا على تلك التقاليد وتلقوها من دون تفكير من جهة، إضافة الى تلقي ذلك بردود فعل حماسية وغير عقلانية، ولاسيما لو اقترن ذلك بالاعتقاد بان كل نقد يوجه إلى تلك الطقوس هو مساس بالعقيدة نفسها.

على الرغم من أن هذه الدراسة تظل متميزة بأنها استطاعت ان تتناول آفاقا لم تقترب منها المحاولات الشبيهة في استقصاء مفهوم الخلاص في الفكر الشيعي الجعفري الاثنى عشري، الا انها تبقى محاولة لها حدودها. فربما كان من المفترض القيام بمحاولة جادة بتحديد مفهوم ودور "المخلص" أو "الفادي" في الفكر اللاهوتي الشيعي، فلم يتم تميزه بشكل

واضح ودقيق عن مفهوم ودور "الشفاعة" و"الشفيع" الذي نجده حتى في الفكر السنى فيما يخص دور نبي الإسلام محمد. ولعل هناك ثمة أسباب حالت دون تشجيع الباحث على الخوض في جوانب أكثر خطورة وجدية، لما لهذا العمل من حساسية! ولعل هذا ما جعل المؤلف يلتجئ للمعنى العام للخلاص بقولة في الفصل الأول : "نستخدم مصطلح الخلاص هنا بمعناه الواسع ليعني شفاء الوجود او تحقق حياة الإنسان. لذا فان الخلاص في هذا المعنى يجب ان يميز عن الخلاص كمفهوم لاهوتي. وخاصة من استعماله التقني في اللاهوت المسيحي".

رغم ذلك فان ما يُلفت نظرنا عند قراءة هذا العمل هو الهدوء الأكاديمي الذي يسود عرض المؤلف وطرحه للمواضيع، اذ تغيب عنه حرارة الحماس الخطابي الذي غالبا ما نجده في الكتب التي تتناول مراسيم عاشوراء وطقوسها، بحيث لا يبقي مساحة تتيح ظهور المعطيات العلمية، وعلى ضوء هذا النهج في العمل، استطاع المؤلف ان يمتلك قدرا كبيرا من الموضوعية.

-

مقدمة

لا يمتلك الإسلام عقيدة واضحة لمفهوم الفداء. رغم ذلك فان الفداء يؤدي دوراً مهماً في الحياة الواقعية للمجتمع الإسلامي كقوةً فاعلة في قبول وفهم الألم. ان مفهوم الألم الهادف هو جهاد الإنسان في سبيل الله. ومن هذا المنطلق يمكن عدّه، على المستويين الشخصي والاجتماعي،ذا معنى للمجتمع والحياة الدينية عبر التاريخ. لهذه الفكرة جذورها الواضحة في القرآن[١]، إذ انها استمرت تؤدي دوراً مهماً في التقوى الإسلامية اللاحقة وفي التصوف بشكل خاص.

تهتم هذه الدراسة بمعنى الألم واستشهاد الإمام الحسين حفيد الرسول والشخصية المؤثرة في المذهب الشيعي. تعدّ الشيعة استشهاد الإمام الحسين ضروريا من اجل تحقيق دوره كإمام وبدون ذلك لم يكن بوسعه ان يصبح مثالاً للتضحية، ولا مقياساً للحق والباطل ولا حتى شفيعاً لاتباعه يوم الدين. السؤال الواجب استقصاءه هو بأية طريقة تم اعتبار استشهاد الحسين فدائيا. هذا البحث سيعتمد على المواد التقوية الكلاسيكية والقروسطية ابتداءاً من أقدم المصادر المتوفرة في القرن الرابع الهجري

(١) انظر سورة البقرة، الآية ١٥٦.

وانتهاءً بكتابات القرن التاسع الهجري التي تسبق مباشرة حقبة تثبُت المذهب الشيعي كدين الدولة في إيران خلال حقبة حكم الصفويين.

نظريتنا في هذه الدراسة هي ان كل ألم يمكن ان يكون بطريقة ما فدائياً، ولاسيما ألم الإمام الحسين الذي عدته الشيعة مصدراً للخلاص من خلال فهم ومحاكاة الألم بوساطة الجماعة وما للامام من حظوة كشفيع. هذه الشفاعة هي المكافأة المباشرة لآلام عائلة الرسول برمتها، ولاسيما الحسين لما له من مكانة لم يكن ليحظى بها من دون الاستشهاد. ان الفداء في التقوى الشيعية يجب أن يفهم داخل إطار الشفاعة. وسنرى انه بحسب الاعتقاد الشيعي ان جميع الأئمة قد شاركوا في هذا الألم. لذلك، فانهم سوف يشاركون ايضاً في الشفاعة كهبة الهية. واخيراً نود ان نبين ان الفداء، كيفما فهم، يتضمن الخلاص والحساب: الخلاص للمختارين والحساب لأعدائهم.

تتناول هذه الدراسة حياة ومكانة الإمام الحسين في تاريخ التقوى والورع وآلامال في المذهب الاثنى عشري. لن يكون هدفنا في الدراسة توثيق تاريخي لأي حدث خاص في حياته، ولا البحث عن صحة ما قاله، فهذه مهمة مؤرخي أصل الإسلام الشيعي. ان هدفنا هنا هو رؤية حياة الحسين من وجهة نظر التقوى الشعبية لكي نتناول أولا مفهوم الشيعة لحياته. ومن ثم سنحاول دراسة الأساطير وسير حياة الأولياء، والشعر الشعبي وما شابه ذلك من أدب التقوى فيما يعرف بـ (التعزية) و(الزيارة). تتضمن التعزية خدمات الذكر (المجالس) التي تعقد في شهر محرم او أي وقت من السنة إذ يلعب الشعر الشعبي الرثائي دوراً مهماً. الزيارة هي الحج الفعلي او الرمزي إلى ضريح الحسين، وما يصطحبه من أدب المراثي. يقدم هذان النوعان من ادب التقوى، ولاسيما النوع الثاني، طقوسا دينية يمكن ان تمارس في مواسمهم الخاصة او في أوقات أخرى من السنة، لإذكاء

الذكرى في قلوب الناس وللبركة التي تمنحها.

تقسم هذه الدراسة على ستة فصول تهتم ببعض المصطلحات والمفاهيم الرئيسة المأخوذة من الأدب نفسه. ففي الفصل الأول الذي يحمل عنوان (بيت الأحزان) إذ سنشرح قيمة الألم بشكل عام وآلام العائلة المقدسة للرسول بشكل خاص. سيحدد هذا الفصل وما يليه المرحلة التالية. يحدد بيت الأحزان مضمون الألم في المذهب الشيعي للائمة الاثني عشر، الرسول وابنته. يحمل موت وآلام فاطمة الزهراء دلالة خاصة في المذهب الشيعي والتي من خلال آلامها وموتها تكون قد قدمت للمذهب الشيعي الخيبة والأمل في الوقت نفسه. وهكذا سنخصص لها قسماً كاملاً. كما ان بيت الأحزان هو مجتمع الآلام الذي وبشكل ما ينتمي اليه جميع الأنبياء الأوائل. لذا فانه يدور حول الخلق الكامل منذ بداية تاريخ البشرية وحتى تحقق بعثه في يوم الحساب. ومن ثم فإننا سنتطرق إلى دور الأنبياء الأوائل في تلك الدراما الواسعة الأبعاد.

لا يعدّ الأئمة في المذهب الشيعي مجرد مجموعة مضطهدة وإنما كبشر يعدّ وجودهم بحد ذاته مهماً لخلق وبقاء العالم. لذا فانه من المهم وقبل ان نناقش الحال الخاصة للحسين الشهيد في المذهب الشيعي هو ان ننظر إلى تعاليم الشيعة عن الإمام ولاسيما الدور الذي أداه الأئمة في الخلق وتاريخ البشرية. سيخصص هذا الفصل لمناقشة الأئمة، إبداعاتهم، المادة او الجوهر الذي جبلوا منه. والدور الذي أدوه في تاريخ خلاص البشرية والحكم عليها.

سيعدّ الفصلين الأول والثاني مقدمة لما سيتبع في هذه الدراسة لذلا فان الفصل الثالث سيتخصص في الإمام الحسين، ولادته طفولته، وسنواته الأخيرة ما قبل الأحداث التي أدت إلى استشهاده. وسنلاحظ انه في كل

خطوة من خطواته منذ ولادته وما تلاها، ان موته كان متوقعاً بالإضافة إلى التأكيد على كونه شهيداً عظيماً. يرى الشيعة الإمام الحسين كنموذج للحكمة، الشجاعة، التقوى والكرم. وسوف نراجع بعضاً من هذه الخصائص والأمثلة عن حكمته، بلاغته وتقواه كما في الملحق (ب) من هذا الفصل. ان آلام العائلة المقدسة للرسول والحال الخاصة للإمام الحسين قد تكون كمقدمة او خلفية للأحداث في كربلاء. لذا فان الفصل الرابع سيبحث في مفهوم الشيعة عن استشهاد الحسين. وسنراجع اولاً التفاسير او التأويل الأولى لحياته كما يراها بعض المؤرخون المسلمين مثل الطبري والكتاب الشيعة الذين دونوا حياة الأئمة، مثل الشيخ المفيد ومن ثم سنبحث التطورات اللاحقة لذلك. ومرة أخرى نؤكد ان اهتمامنا ليس بالأحداث التاريخية فقط وانما في كيفية تداخل هذه الأحداث من قبل المجتمع إذ أصبحت النقطة الأساس لفهمهم للتاريخ.

يستمر الفصل الخامس والسادس في الموضوع الرئيس نفسه، الا وهو كيفية ربط المجتمع مباشرةً مع إحداث كربلاء ومن خلالها بحياة ومهمة الأئمة. في الفصل الخامس سنوضح فكرة "الثواب" بوساطة البكاء على الأئمة، وخصوصا على الحسين، والثواب بشكل خاص في رثائه وإلقاء الأشعار في ذكرى وفاته. وثانياً سنحلل بعض المواضيع الرئيسة وإعطاء بعض الأمثلة في عند الحاجة. يعد هذا النوع من الشعر من أنواع (المراثي) والذي يعد جزءاً من مجالس التعزية او خدمات الذكر التي تقام في ذكرى استشهاد الحسين. وسنبين كذلك ماهية (المجالس) او خدمات (الذكر) بالاعتماد على المصادر المكتوبة والتجارب الشخصية. وربما تعد الميزة الفريدة من الاحتفالات الدينية في ذكرى استشهاد الحسين هي طقوس الزيارة التي يتجدد من خلالها ميثاق الولاء مع العائلة المقدسة باستمرار وكذلك التعبير عن امتياز الأئمة في الشفاعة والخلاص. ان طقس الزيارة قد

يكون جزءاً من طقوس التعزية او قد يكون طقساً مستقلاً بنفسه يحمل خاصية العهد المتجدد. تبحث الزيارة في تحقيق الإيمان بالبعث والحساب في دراما احداث كربلاء.

يبحث الفصل السادس بشكل خاص بإيمان الشيعة بالآخرة. بدايةً سنراجع الدور الوسيط للرسول والأئمة من خلال مفهوم (حوض الكوثر). فمن خلال مشاركة المجتمع في آلام الأئمة يشاركون هؤلاء الأئمة في الشفاعة والخلاص أيضا. هذه العلاقة بين هؤلاء الموالين والأئمة ستكون النقطة الثانية لتحقيقنا. أما فاطمة كما تصور بوصفها سيدة لبيت الأحزان في هذا العالم والعالم الآخر كذلك ستكون هي السيدة في يوم الحساب. ان آلامها كما ستصور في الفصل الأول ستكافأ وان انتقامها هو انتقام المخلصين لها والقصاص لأعدائها.

إن الأئمة في حياتهم الدنيوية كانوا يقدمون صورةً لإخفاقهم وموافقتهم الصامتة لحكم أولئك الذين كانوا يعدّونهم مغتصبين لسلطاتهم. ان هذا الفشل الواضح للائمة يمكن ان يعدّ فشلا للمجتمع، لذا فان آمالهم وآمال المخلصين الموالين لهم تم التعبير عنها درامياً في سيرة (المهدي) (المنتقم الأخير). يعد المهدي الإمام الثاني عشر والتي تعد عودته بعد مدة طويلة من الزمن متوقعة من قبل المجتمع وسينتقم لدم كل أولئك الذين استشهدوا او عذبوا في سبيل الله منذ بداية العالم. ان هذه المهمة العظيمة لسليل الحسين وسيساهم في هذه المهمة الرسول والأئمة الثلاثة الأوائل. لذا فان عودة المهدي ستكون الخاتمة الطبيعية لهذه المأساة الطويلة.

كان موت الحسين يحمل عدة معاني للمجتمع الإسلامي على اختلاف العصور. ولم تقتصر أهمية هذه الحادثة على المؤيدين الشيعة للائمة فقط. وسنختتم هذه الدراسة بالربط الموجز بين هذه الظاهرة لدى المسلمين

الشيعة وظواهر مشابهة أخرى في ديانات أخرى. وبأية طريقة تم فيها قتل الحسين فان هذا المقتل لم يفقد مفهومه في الخلاص وفي الحال الثانية فان موت الحسين يخلص المجتمع بتقديمه نموذجاً حياً للتضحية بالنفس.

ان موت الحسين والحركة التي تبلورت حولها يمكن دراستها كحركة سياسية وكما سنرى فان محرم سيوفر للعالم الإسلامي ولاسيما الشيعي بواحدة من القوى الفعالة في التاريخ. كما أنها تستخدم لغةً من الخرافات والشعر الشعبي في مواساتها لكل امرأة و ورجل في كل عصر ومكان من العالم الإسلامي. وفي هذا العمل حاولنا الحفاظ على اللغة والتعابير المستعملة في أدب (عاشوراء) وكل ما اتيح ذلك سنجعل المصادر نفسها تتكلم عن نفسها.

الطريقة، المجال والمصادر

ان الأفكار الرئيسة التي تم شرحها آنفا تقدم تطوراً تاريخياً طويلاً. ان طريقة البحث المستخدمة في هذه الدراسة هو لتتبع هذا التطور باحثين في المفاهيم ذات العلاقة والممارسات الدينية حتى القرن التاسع الهجري (القرن الخامس عشر الميلادي) وسيتم هذا من خلال دراسة المصادر من القرن الرابع إلى التاسع الهجري. لقد كتب القليل عن هذا الموضوع قبل القرنين الثالث والرابع الهجريين. وعلى الرغم من ان هذه المصادر تربط التقاليد التي تعود إلى الأئمة الاثني عشر فبالتأكيد انها تضم بعض المواد الموثوقة الأولى، كما انها يجب ان تعالج كمخرجات لذلك العصر واهتماماته. فهناك بعض المراثي المهمة والتي يقال انها الفت بعد وقت وجيز من وفاة الحسين وهذا يقدم فكرة ما عن بعض التطورات الأولى التي يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار. ومع هذا فان هذه الدراسة تبدأ فعلاً من القرن الرابع الهجري.

ان اول مصدر متوفر حول هذا الموضوع هو مجموعة (الأحاديث) المهمة لمحمد يعقوب ابن اسحاق الكليني الرازي[١] (٣٢٨ / ٩٣٩) تحت عنوان (الكافي) ففي احد أقسام هذا الكتاب الذي يعرف بـ (كتاب الحجة) يتم ايضاح مفهوم الإمامة وحياة الأئمة. وعلى الرغم من قلة التقاليد التي تتعلق بشكل مباشر مع تحقيقنا الا انها تقدم بعض المفاهيم الأولى التي شكلت الطائفة الدينية الموالية للحسين واستشهاده. وكذلك من المهم ان نذكر كتابات الشيخ الصادق ابن بابويه القمي[٢] (٣٨١/ ٩٩١) فكتابه (الامالي والمجالس)[٣] يذكر بعض التقاليد المهمة التي تشير إلى بعض التطورات الأولى المهمة للكثير من العقائد والممارسات التي تهتم بها هذه الدراسة. هناك مصدر اخر مهم وهو (الارشاد) للشيخ المفيد[٤] (٤١٣/

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، الملحق، ١، ص٣٢٠؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ١، ص٥٤٠؛ في كلا الكتابين، كلمة كليني ماخوذة من اسم بلدة المؤلف الأصلية في إيران (كلين). انظر الطبعة الأخيرة من كتاب.الكافي لنجم الدين الآملي، المقدمة والملاحظات لعلي اكبر الغفاري (طهران: المكتبة الإسلامية ١٣٨٨، صفحة رقم ٣).

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ١، ص١٨٧؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ١، ص٥٤٤-٥٤٥.

(٣) في الاختلاف على العنوان انظر كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي١، ص٣٢١؛ وفؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ١، ص٥٤٤-٥٤٥. كلا المصدرين يعطيان العنوان الذي يستخدمه كتاب الأمالي في الاحاديث والاخبار.

(٤) كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ١، ص٨٨؛ كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، الملحق١، ، ص٣٢٢؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ١، ص٥٤٩-٥٥٠. في كلا المصدرين العنوان الكامل هو الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد.

١٠٢٢) ويعد هذا الكتاب مصدراً مهماً لسيرة حياة الأئمة، كما ان الكثير من الكتاب اللاحقين استعملوا هذا الكتاب كمصدر رئيس لمعلوماتهم. ومن كتب التاريخ العامة التي سنستعين بها والأكثر أهمية هو للكاتب محمد بن يزيد الطبري[١] (٣١٠/ ٩٢٣) الذي استعمل كمصدر له بعض قصص الاستشهاد الضائعة المعروفة باسم (مقتل الحسين) لابي مخنف[٢] (١٥٧-٧٧٤). ويعد كتابه هذا مصدراً مهماً للأحداث الواقعية التاريخية لحياة الحسين وللمفهوم العام لها أيضا. هناك مؤرخان مهمان أيضا وهما اليعقوبي[٣] (٢٨٤/ ٨٩٧) والمسعودي[٤] (٣٤٥-٩٥٦) إذ ان الشيعة انفسهم وكتاباتهم ولاسيما كتاب المسعودي (إثبات الوصية) تعكس الموقف الديني الشيعي في ذلك الزمان. وعلى الرغم من صدق وموثوقية هذا العمل فقد شكك به بعض الكتاب المعاصرين[٥].

---

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ١، ص١٤٢؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ١، ص ٣٢٣.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ١، ص٦٥؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ١، ص٣٠٨. أبو مخنف لوط بن يحيى الازدي.

(٣) كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ١، ص٢٢٦.

(٤) كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ١، ص١٤٤؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ١، ص٣٣٢.

(٥) انظر إلى النجاشي، كتاب الرجال (طهران: دار نشر الكتاب، ص١٩٢) وكذلك أغا بزورغ طهراني، الذرائع إلى تصانيف الشيعة، ١، ص ٨٥ (مطبعة الغري في النجف، ١٣٥٥/١٩٣٦). كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ١، ص١٤٤؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ١، ص٣٣٢. هما ضد هذه النظرية. انظر إلى مقالة الدكتور جواد علي "موارد تاريخ المسعودي"، سومر، ٢٠، رقم ١-٢ (١٩٦٤).

هناك مصدر مهم آخر عن قصص الاستشهاد الا وهو (المَقاتل) التي بقيت منتشرة وما زالت تستعمل حتى يومنا هذا. احد اقدم هذه المقاتل هو (مقتل الحسين) لابي مخنف. ان (مَقاتل الطالبيين) لابي فرج الاصفهاني[١] (٣٦٥/ ٩٦٧) تقدم بعضاً من أقدم وأوضح قصص السرد لحادثة الاستشهاد في كربلاء والاحداث التي قادت إليها. واحدة من المقاتل المهمة الأخرى هو (اللهف) لابن طاووس[٢] (٦٦٤/ ١٢٦٦). إذ ان الكاتب نفسه كان احد اهم الشخصيات الشيعية وفي كتابه هذا يحتفظ بالعديد من التقاليد المتعلقة باهمية استشهاد الإمام الحسين وزيارته. كان ابن نما الحلي[٣] (٦٥٠/ ١٢٥٢) من اوائل القضاة والمفكرين الدينيين، إذ ادعى ان عمله (مثير الأحزان) هو اختيارات دقيقة للعديد من الممارسات والتقاليد الدينية والتي تعد مصدراً مهماً لعملنا هذا. وقبل قرن واحد من الزمان كان هناك (مقتل) آخر مهم من قبل الخوارزمي[٤] (٥٦٨/ ١١٧٢) والذي كان طالباً للزمخشري الشهير إذ يحتفظ هذا الكتاب بالعديد من التقاليد والخصال الحميدة للرسول وعائلته. وفي هذا الكتاب قدم الكاتب سلاسل كاملة من

---

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ١، ص١٤٦؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ١، ص ٣٧٨.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، الملحق، ١، ص٧١١؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ١، ص١٣.

(٣) لا يظهر عنوان او اسم المؤلف في (كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي) انظر إلى سيد محسن أمين العاملي، أعيان الشيعة ط٣، (بيروت، مطبعة الإنصاف، ١٣٨٠/ ١٩٦٠)، ١٦ : ٨٧-٩٠.

(٤) كارل بروكلمان، ملحق، تاريخ الادب العربي، ١، ص٢٢٦. العنوان غير مذكور.

المصادر لعمله والشيء المهم الآخر الجدير بالذكر ان الخوارزمي نفسه لم يكن مسلماً شيعياً الا ان لغته وتعابيره كانت قريبة جداً من المفهوم الشيعي.

اما المادة الأخيرة للمراجعة والبحث فهي تلك التي تتعلق بـ (التعزية) و (الزيارة) والتي يمكن ان توصف بأدب سير الأنبياء. ان كتاب (مناقب آل ابي طالب) لابن شهرشوب[(1)] (١١٩٢/٥٨٨) يتعرض لحياة الأئمة الاثني عشر محتفظاً بكل تقاليد سير الأنبياء حتى يومنا هذا. يحتوي هذا الكتاب على العديد من المراثي وتقاليد الزيارة. وهناك عمل قديم آخر ومن النوع نفسه وهو (دلائل الإمامة) لمحمد بن جرير بن رستم الطبري[(2)] (الربع الأول من القرن الرابع الهجري). وهناك عمل مشابه آخر وهو (المنتخب) للطريحي الفخري (١٦٧٤/١٠٨٥). وعلى الرغم من ان هذا العمل يعد حديثاً نوعاً ما مقارنةً مع المصادر الأخرى الا انه يحتفظ بالعديد من التقاليد وأهميته الرئيسة تكمن في انه يجمع (المراثي) والطقوس المعدة خصيصاً لذلك في الأيام العشرة الأولى من محرم. لذا فان هذا العمل هو مختارات من مجالس التعزية الحقيقية. اما كتاب (بحار الأنوار) لمحمد بن باقر المجلسي[(3)] (١٦٩٩/١١١١) فيعد موسوعة مهمة، إذ جمع الكاتب مواد من مصادر قديمة لا تتوفر الآن. والمجلد العاشر من هذا الكتاب الكبير يشرح

---

(١) ابن شهراشوب لا يظهر أبدا في (كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي أو في فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي) لإدراج إعماله لمختلف المؤلفين، انظر إلى١، ٧١٠.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ١، ص١٤٢؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ١، ص ٥٤٠. لايجب خلط هذا المؤلف مع المؤرخ المشهور الطبري الذي توفي في ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م.

(٣) كارل بروكلمان، ملحق، تاريخ الادب العربي، ٢، ص٥٧٣.

بشكل خاص حياة واستشهاد الإمام الحسين والممارسات الدينية المتعلقة بهذه الحادثة[1]. واحد من أقدم المصادر المهمة المتعلقة بـ (الزيارة) هو (كامل الزيارات) لأبي قاسم جعفر بن محمد ابن قولويه القمي[2] (٩٧٨/ ٣٦٧). وكذلك سنعتمد في هذه الدراسة مجموعة معاصرة من المراثي (أدب شعراء الحسين) التي جمعها جواد شبر. وقد رتبت هذه المجموعة حسب ترتيبها الزمني منذ القرن الأول الهجري حتى الوقت الحاضر وتعد كاملة تماماً.

ومن سوء الحظ فان هناك مصدر واحدا نموذجيا عن (المقاتل) المتوفر بلغة اوربية. إذ انها ترجمة من بعض مواد المقاتل الأولى المترجمة من قبل ف. فوستنفيلد، جوتنكن، ١٨٨٣. ولا يوجد هناك مصدر آخر عن تراجيديا محرم، وحسب علمي، قد ترجم إلى لغة غربية. الا انه كانت هناك الكثير من الدراسات وأعمال أخرى بالفرنسية، الانكليزية والألمانية التي لها علاقة بالمسرحية الحزينة الأخرى او (التعزية) في إيران. ومع هذا فان هذه المصادر تتعامل مع حقبة حكم الصفويين في القرن السادس عشر وما تلاه الذي يبقى خارج مجال عملنا هذا.

(١) الطبعة المستخدمة في هذه الدراسة هي الطبعة الإيرانية الحديثة أي في المجلد العاشر وكذلك في المجلدين ٤٤ و٤٥. والمجلدات الأخرى في هذه الطبعة الحديثة تكون مستخدمة ومؤشرة فيها المراجع والحواشي. إن المصادر الأخرى المكتوبة في المئة سنة الأخيرة سوف يستخدم فيها فقط طريقة آلامثال كيما يظهر فيها التطور الكامل للفكرة.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، الملحق، ١، ص٩٥٢؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ١، ص ٥٤٤. إن تاريخ الموت قد أعطي فيهما معا هو ٣٦٩. التاريخ ٣٦٧ قد أعطيت من قبل المحرر في الطبعة المستخدمة في الدراسة، انظر إلى قائمة المصادر.

بيت الأحزان[1]

تميزت حياة الإنسان بغموض كبير وهو غموض الألم والموت[2]. ان وعي الإنسان ومنذ بداياته الأولى كان وعي الآلام، الألم الجسماني الحقيقي او النزاع العقلي او كلاهما معاً . قد تمثل المراحل الأولى للحضارة وبناء المجتمع الإنساني كمحاولات لمواجهة المعاناة وكل اضطراباتها، انعدام الأمان والألم وإيجاد معنى للحياة على الرغم من كل هذا. اتسمت هذه المحاولات بالحث عن الذات والبقاء بدلاً من مفهوم وقيمة وجود غير دائم ويائس.

ان القفزة العظيمة التالية في حياة الإنسان تكمن في إدراك معنى وتحقق حياة الإنسان ليس على الرغم منه، بل من خلال المعاناة بل حتى بالموت. هذا البحث عن خلاص الإنسان وكذلك عن الوجود الزائل الكامل له هو جوهر الإيمان. ان الإيمان وبلا شك هو الهبة الإلهية للإنسان، إلا ان قبول الإنسان لهذه الهبة وتأثيرها في حياته هو ما نعني به البحث عن الإيمان. ان هذا البحث عن المعنى في الجوانب الخالية من المغزى في الحياة قد سيطرت على البحث الأسطوري، الطقسي والروحي والانجازات الثقافية منذ فجر

(١) يرد مصطلح بيت الأحزان في العديد من المصادر ولاسيما في المناقشات التي تتناول أحزان ومعاناة عائلة النبي محمد، وفي بعض الاحيان يرد هذا المصطلح كعنوان لكتاب. انظر إلى لويس ماسينيون، اوبيرا مينورا، ي. مبارك. ط (بيروت: دار المعارف، ١٩٦٣، ١، ص ٥٧٣).

(٢) على الرغم من عدّ الألم والموت ظاهرتين منفصلتين، الا انه في دراستنا هذه سوف تظهران مرتبطتان ارتباطا وثيقا ذلك ان الأحداث تصبح ذات معنى من خلال الاستشهاد.

التاريخ المدون .ان هذه العملية ومن خلال وجهة النظر الدينية أصبحت تاريخ الوحي او العناية الإلهية في تاريخ الإنسان التي تشكل وتقود نحو التحقق النهائي بالله.

يستخدم مصطلح الخلاص هنا بمعناه الواسع ليعني شفاء الوجود او تحقق حياة الإنسان. لذا فان معنى الخلاص في هذا المثال يجب ان يميز من الخلاص كمفهوم لاهوتي. ولاسيما من استعماله التقني في اللاهوت المسيحي. ان هذا التحقق او الانجاز من خلال الألم او المعاناة هو ما ستطلق عليه هذه الدراسة بـ "الخلاص". ان الافتراض الأساس على ان كل الم قد يعدّ أحيانا كوسيلة للخلاص على الرغم من الابادة أو الزوال الذي يحققه الموت، انه الإيمان الذي تصرخ به عالياً كلمات المزمور "حَتَّى إِذَا اجْتَزْتُ وَادِي ظِلَالِ الْمَوْتِ، لَا أَخَافُ سُوءاً لأَنَّكَ تُرَافِقُنِي"[1]. هذا هو الأمل ألذي أعلن على لسان السيد : "طوبى للمحزونين، فانهم يعزون"[2]. على الرغم من الموت، ثابتٌ هو الوعد الامين للناس المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[3].

قد نعدّ الألم وعلى الرغم من سببه وطبيعته كقوة سلبية للتخريب والرفض. فهو "اللا وجود" بخلاف الخير الذي هو "الوجود" بكل تحقيقاته. ان الألم أو اللا وجود لا يستطيع ان يدمر نفسه إلا انه يستطيع بل

---

(١) سفر المزامير ٢٣ : ٤، الكتاب المقدس (نيويورك: مطبعة جامعة اوكسفورد، ١٩٦٢).

(٢) إنجيل متى ٥ : ٤.

(٣) سورة البقرة: ١٥٦، انظر إلى آرثر ج. اربيري، تفسير القرآن، (نيو يورك: مؤسسة ماك ميلان، ١٩٦٣)، ١، ص ٤٨. كل الاقتباسات اللاحقة مأخوذة من ترجمة آربيري.

ويجب ان ينتقل من حال إلى أخرى. ان تحول الألم من قوة تامة سلبية إلى شيء ذي قيمة يتأثر بإيمان الإنسان والرحمة الإلهية. ومن خلال هذا التحول أصبح الألم معلماً عظيماً للمتقين وطريقهم للخلاص. ان هذه القوة المُخلصة من الألم تكمن في حقيقة انه يمكن التغلب عليه فقط من خلال قوته. وهذا ما تنص عليه التراتيل المسيحية الطقسية التي تظهر منتصرةً "المسيح قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموت ووهب الحياة للذين في القبور"[١].

في هذا الفصل سنأخذ بعين الاعتبار أولا سؤال الألم بمعناه العام وجوانبه التقديرية في "الحديث" الإسلامي. إذ سنرى ان الألم مناسباً لتقوى الإنسان ومتساوياً مع الله. لذا نرى ان الأنبياء كان لهم النصيب الأكبر من الآلام وكما سنرى لاحقاً ان آلامهم هذه كانت ذات معنى او مغزى في توفيرها مثالاً في إيجاد رمز او مثال للاتقياء وامتحان لإيمانهم وصبرهم. ثانياً، ولكي نستوعب تماماً المعنى العميق لآلام آل البيت من الشيعة المخلصين، كما سنلقي نظرة سريعة على صورة آلام آل البيت للعائلة المقدسة بالإضافة إلى آلام الأنبياء الأوائل.

ثالثاً، سنأخذ بعين الاعتبار أيضا آلام وحرمان الرسول محمد وعائلته كما صورت في مصادر قصص الأنبياء التي جمعت من قبل المسلمين الشيعة. ينظر المسلمون الشيعة إلى آلام آل البيت بوصفها ذروة لكل الم مرّ به المتقون منذ بداية تاريخ البشرية وحتى النهاية.

---

(١) مقطع من ترتيلة معروفة جدا لعيد الفصح في الطقس اليوناني، والتي سمعها المؤلف لأكثر من مرة بالغة العربية. انظر طريق أمان لابناء الإيمان. جمعت ونشرت على يد إبراهيم اربلي (بيروت: مطبعة كلفت ١٩٦٠)، ص٨٩٧.

وبما ان فاطمة، ابنة النبي محمد، تلخص الألم الصامت للمرأة الضعيفة التقية في الدين الإسلامي بشكل عام والمذهب الشيعي بشكل خاص، إذ سنأخذ حالتها بشكل من التفصيل. تعدّ فاطمة السيدة الفاضلة لبيت الأحزان. إذ تغلبت على أفظع الأحزان على هذه الأرض و ستتمتع في يوم القيامة بمكافأة عظيمة وخلاص أعظم. ان انتقامها سيتضمن انتقام عائلة آل البيت والمجتمع بشكل عام.

ان هدف هذا الفصل هو ان نضع آلام الإمام الحسين كما يراه المجتمع الشيعي. تعد هذه الدراسة تحقيقاً لسلسة طويلة من الألم، مع إلقاء نظرة إلى الماضي، إلى ما قبل الخليقة وحتى نهاية التاريخ الإنساني إذ سيوفر هذا الفصل المحور الأساس لهذه الدراما.

١-١ فضيلة الألم للأتقياء

يعدّ هذا العالم بالنسبة إلى شعب الله عالم آلام وأحزان إذ يعدّ فعلاً بيت أحزان. تم التعبير عن هذه الفكرة وبتأكيد شديد في التقاليد الإسلامية على الرغم من ان هناك تأكيد مقارب آخر على كل الأشياء الجيدة التي توفرها الدنيا للإنسان ليهنأ بها ويستمتع. وكان الحديث يشير إلى أن الإنسان التقي سيلقى الآلام والمصائب وذلك حسب قوة إيمانه، وقوة صبره وتحمله التي ستلقى بالتالي المكافأة المناسبة لذلك. فعندما سأل سعد بن ابي وقاص "يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟" فأجابه الرسول: "الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة"[(١)].

(١) احمد ابن محمد ابن حنبل، مسند (ط ١، بيروت: المكتب الإسلامي ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٦م)، ١، ص ١٧٣ -١٧٤.

ومن أصحابة الآخرين، أبو سعيد الخدري، الذي قام بزيارة الرسول الذي كان يعاني آنذاك من حمى شديدة كان يشعر بها زائره من خلال الأغطية الملقاة على الرسول حتي أن أم بشر ـ رضي الله عنها ـ قالت: "ما وجدت مثل هذه الحمّى التي عليك على أحد يا رسول الله"، فقال: "إنا يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر". وعندما سأله الزائر "من هم أكثر الناس مصاباً؟" أجابه الرسول "الأنبياء ثم الصالحون فإن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحويها وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء"[1].

ان المصائب والأحزان ليست كل ما يلقاه الأفراد. ان بيت الأحزان يعدّ بيتاً دنيوياً لكل أبناء الله. فهو مكان التجارب ووسيلة إظهار حبهم لله، إذ قال الرسول: "ان عظمة مكافأة الإنسان الصالح تقابل بعظمة مصابه. فان كان الله يحب الناس فانه يصب بلاءه عليهم. فالقانع بإرادة الله سيكافئه الله اما الحانق من مشيئة الله فسينال عقاباً الهياً"[2].

ان الإحساس بالرضا من المشيئة الإلهية سيقابل بالشفاعة الإلهية. لذا فان تجارب المصائب هي أكثر من مجرد تهذيب بل هي الاختيار الفعال الذي يتم بشكلٍ مستقل من الثواب والعقاب. ذكر الإمام السادس "جعفر الصادق" مقالةً من "كتاب علي"[3] ما يشبه تقليداً كما ذكر في هذا القسم

(١) محمد ابن يزيد بن ماجا، السنن (القاهرة: الباب الحلبي١٣٧٣، هـ / ١٩٥٤ م)٢، ك.٣٦، فص ٢٣. حديث.٤٠٢٣.

(٢) المصدرنفسه، حديث ٤٠٢٦، وانظر أيضا ابن محمد بن عيسى بن صورا الترمذي، جامع (كاراتشي)، ص ٣١٦.

(٣) كتاب علي، مذكور بدون أي تفسير أو اية إشارة لمصدر معين. ولا يقصد هنا المخطوطات السابقة. علي مثل جعفر، وعلى سبيل المثال أبو جعفر بن محمد بن يعقوب،

الا انه يضيف "لان الله جلت قوته صنع هذه الدنيا لكن ليس ثواباً للمتقين او عقاباً للكافرين فالمصيبة هي اقرب ما تكون إلى الرجل التقي منها إلى المطر النازل على الأرض"[1]. إذ نرى هنا طريقة واحدة للتغلب على الأحزان بعدّها شيئا ايجابياً وتدريباً ضرورياً وتهذيباً لشعب الله واختباراً نهائياً لإيمانهم.

أصبح بيت الأحزان ملاذ الأرواح القانعة بالله[2]. ان بيت الأحزان أقدم من الخليقة نفسها وسيستمر حتى اليوم الأخير إذ ستنتهي كل الأحزان والآلام والروح التي كانت ثابتة في خضم هذه الآلام والأحزان ستدخل إلى ملاذها الأخير في جنة الله[3]. ان بيت الأحزان لا يشمل الإنسانية بل الكون اجمعه كذلك، السماء والأرض وكل ما يوجد عليها. وفي هذه الدراسة سيتسمر التأكيد دائماً، الإشارة الواضحة إلى الكون، الحاضر، الماضي والمستقبل الذي سيتألم مع او لآل البيت.

ابن اسحق الكليني، الرازي (أصول من الكافي) طبعت مع ترجمة فارسية بوساطة سيد جواد مصطفاوي، طهران: المياه الإسلامية، جريد حيدري "لا تأريخ" صفحة رقم ٣٣٤). لا يبدو المقصود هنا احدى المخطوطات على جلد الماعز المنسوبة لعلي على سبيل المثال "الجفر". انظر أبو جعفر بن محمد بن يعقوب ابن اسحق الكليني الرازي، أصول من الكافي، طبعت مع ترجمة فارسية من قبل السيد جواد مصطفاوي، طهران: المكتبة العلمية الإسلامية، مطبعة الحيدري، بدون تأريخ، ص ٣٣٤.

(١) ابو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن موسى ابن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق، علل الشرائع (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م)، ص ٤٤. ذكرأيضا في كتاب حديث لمحمد باقر النجفي، الدمعة السكيبة، ص ٢٨٩.

(٢) سورة الفجر: ٢٧، ٢٨.

(٣) الآيات القرآنية المشار إليها في الجملة السابقة لا تعبرعن هذه الفكرة صراحة، لكنها تحمل ضمنا تفسيرا لبيت الأحزان.

١-٢ اشتراك الأنبياء الأوائل في آلام العائلة المقدسة

ان عائلة الرسول محمد (آل البيت) تحتل مكانة رئيسة في المذهب الشيعي. إذ ان كل آلامهم وعذابهم يتمركز في رجل واحد وهو "الشهيد المظلوم" الإمام الحسين بن علي ابن ابي طالب. إذ ان كل الآلام السابقة هي خاتمة لآلامه التي تعدّ الفصل الأخير في هذه الدراما الطويلة من البلية او الاختبار. فهو قائد الشهداء وخاتمتهم وكل عذاب وشهادة أعقبته تعدّ أشكال مشاركة في شهادته. يقال ان اليهودي سافنت (رئيس المعلمين) "كعب الأحبار"، الذي اعتنق الإسلام في عصر الخليفة الراشدي الثاني عمر، صرح بما يلي: "وأعظمها ملحمةً هي الملحمة التي لا تُنسى أبداً! وهي الفساد الذي ذكره الله تعالى في كتابكم فقال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، وإنّما فُتح بقتل قابيل هابيل ويُختم بقتل الحسين بن علي"[١].

وقبل واقعة كربلاء منذ عهد آدم وما تلاه يقال ان الأنبياء قد شاركوا في آلام محمد وممثليه او نوابه، ولاسيما في شهادة حفيده في طريقتين. ومن ثم شاركوا في أحزان آل البيت وبطريقة بسيطة بشكل مباشر او غير مباشر فان كل منهم جرب الألم او الحزن الذي يرتبط بالموقع المقدس في كربلاء.

ان آدم أبو الإنسانية هو أول من عرف من الناس في بيت الأحزان وشاركهم أحزانهم. كانت أسماؤهم "الكلمات" التي تلقاها من الله "والتي

---

(١) أخطب الخوارزم أو موفق الخوارزمي، مقتل الحسين، (النجف: محمد السماوي، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧ م)، ص ١٦٥.

عكسها عليه[1]. وعندما رفض آدم إطاعة القانون الإلهي طرد من الجنة وجاءه الملاك جبرائيل وعلمه ان يصلي على هذا الشكل: "قل يا حميد بحق محمد، يا عالي بحق علي، يا فاطر بحق فاطمة. يا محسن بحق الحسن والحسين ومنك الإحسان."[2] وعندما ذكر آدم اسم الحسين انفطر قلبه وسالت دموعه فسأل الملاك عن السبب فأجابه الملاك: "ولدك هذا يصاب بمصيبة تصغر عندها المصائب، قال آدم، وما هي؟ قال جبرائيل عليه السلام يُقتل عطشاناً غريباً وحيداً فريدا، ليس له ناصر ولا معين، ولو تراه يا آدم وهو يقول: واعطشاه واقلة ناصراه، حتى يحول العطش بينه وبين السماء كالدخان، فلم يجبه احد الا بالسيوف وشرر الحتوف، فيذبح ذبح الشاة من قفاه، ويُنهب رحله، وتشهر رؤوسهم في البلدان ومعهم النسوان، كذلك سبق في علم الواحد المنان"[3] وعند سماع آدم لهذا بكى بمرارة بكاء الثكلى[4].

ويؤخذ عن آدم انه شارك هو أيضا بآلام الإمام عندما طرد من الجنة مع زوجه حواء وتركوا ليهيموا على وجههم في البرية حتى وصل إلى ارض كربلاء. وهناك اغتم وضاق صدره من غير سبب وعثر في الموضع الذي قتل فيه الحسين حتى سال الدم من رجله فرفع رأسه إلى السماء وقال "إلهي

(١) محمد بن علي بن الحسين الحر العاملي، الجواهر السَنية في الأحاديث القدسية (بغداد: النعمان، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)، ص.٢٥٤. إن أسماء الأشخاص الخمسة المذكورين قد اشتقت من "أسماء الله الحسنى".

(٢) عبد الله البحراني، مقتل العوالم، مجلد ١٦ في "عوالم العلوم" (تبريز: دار الطباعة، دون تاريخ)، ص ٢٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٠، وكذلك انظر إلى مُلا محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، (طهران: المكتبة الإسلامية، ١٣٤٨ هـ)، ٤٤ : ٢٤٢.

هل حدث مني ذنب آخر فعاقبتني به فإني طفت جميع الأرض و ما أصابني سوء مثل ما أصابني في هذه الأرض" فأوحى الله إليه : "يا آدم ما حدث منك ذنب و لكن يقتل في هذه الأرض ولدك الحسين ظلما فسال دمك كما سيسيل دمه". فقال آدم: "يا رب أيكون الحسين نبيا؟" قال: "لا و لكنه سبط النبي محمد". فقال "ومن سيكون القاتل؟" قال : "قاتله يزيد لعين أهل السماوات والأرض". فقال آدم : "فأي شيء أصنع يا جبرئيل؟" فقال "العنه يا آدم" فلعنه أربع مرات و مشى خطوات إلى جبل عرفات فوجد حواء هناك[1].

لا يعود التاريخ المقدس إلى الوقت المادي او الزمني إذ انه له منطقه الخاص الذي يتجاوز زمننا وعصرنا الحالي. فمع آدم ابا الإنسانية يبدأ التاريخ الشعبي البسيط مع الإيقاع الزمني والمكاني. الا ان آدم دخل التاريخ السري او الخفي، التاريخ الذي لا يرتبط بزمان او مكان ويتحرك ضمن الزمان الازلي، الزمان الذي سبق الزمان. يدخل آدم في هذا الزمان من خلال مشاركته في آلام وأحزان الناس الرئيسين في ذلك التاريخ المقدس التي تعد إحزانهم وحياتهم الدنيوية هي النقطة الأساس في ذلك التاريخ.

هناك العديد من الأحاديث التي تؤكد ان الله خلق محمد و علي وسلالتهم قبل ان يخلق الجنة والأرض. القليل من هذه الأحاديث سيتم دراستها في الفصل اللاحق. واحد من هذه الأحاديث له علاقة مباشرة بدراستنا هذه، وهو منسوب لابن مسعود: "قال النبي صلى الله عليه وآله : يا بن مسعود إن الله تعالى خلقني وخلق عليا والحسن والحسين عليهم السلام من نور قدسه، فلما أراد أن ينشئ خلقه، فتق نوري وخلق

(١) المجلسي، ٤٤، ص ٢٤٢.

منه السماوات والأرض، وأنا والله أجل من السماوات والأرض، وفتق نور علي وخلق منه العرش والكرسي، وعلي والله أجل من العرش والكرسي، وفتق نور الحسن عليه السلام وخلق منه الحور العين والملائكة والحسن والله أجل من الحور العين والملائكة، وفتق نور الحسين عليه السلام وخلق منه اللوح والقلم والحسين والله أجل من اللوح والقلم.»[1]

قد لا يكون من قبيل المصادفة ان يرتبط الحسين في أسطورة الخليقة هذه بهاتين المفردتين من القدر والإيحاء. فاللوح هو تاريخ قدر الإنسان والأنموذج الأصلي للقرآن، ويتحرك القلم بمفرده على هذا اللوح الإلهي لكي يتتبع الأحكام الإلهية للأقدار. يرتبط الحسين بشكل خاص ومباشر أكثر مع تاريخ خلق البشرية. ويرتبط كذلك مع المخطط الإلهي لكن ومن خلال استشهاده تم تقرير مصير الإنسان. ان تاريخ الإنسانية يدور حوله اولاً كإمام وأب للائمة وثانياً من خلال مهمة الإمام المهدي الذي سينتقم لدم الحسين وتحقيق مهمته.

وهنا نرى من الضروري بالنسبة لله ان يخلق المخلّص قبل المُخلص وسيكون من الواضح في الفصل اللاحق ان الأئمة، الذي من اجلهم خلق كل شيء، كانوا نفسهم قد خلقوا قبل كل شيء. ومن خلالهم قرر سلفاً التحقق النهائي للخليقة مثل المذهب العقلاني المسيحي فقد خلق كل شيء من خلال المسيح كلمة الله[2]. ولم يكن محور دراما الخلاص، شهادة الإمام

(١) البحراني، ص ٢-٣. للأحاديث المتشابهة انظر أيضا عاملي، جواهر، ٢١٢. هناك العديد من الأحاديث الصحيحة عن الأئمة بهذه الفكرة عند الكليني. سوف يتوجب علينا مرة أخرى العودة لهذة النظرة في الفصل الثاني حينما يبدأ النقاش حول خلق الأئمة.

(٢) إنجيل يوحنا ١ :٣.

الحسين، محصوراً بالزمان الدنيوي. فآدم كغيره من الأنبياء كما قيل لنا قد رأوا تراجيديا كربلاء بكل تفاصيلها[1]. وفي حقيقة الأمر ان الكلمات التي استعملت لوصف الطريقة التي رأى فيها آدم الواقعة الدامية قد مُثلَ له بها إذ ان الله قد أراه شكل الحادثة ومثلها إمامه[2]. ان سرمدية هذه الحادثة او صلب المسيح هي إشارة متكررة في تاريخ الدين الإنساني التي سنعود اليها عندما ندرس الإيمان ومظاهر الإيمان بالآخرة مثل شعائر عاشوراء في الفصل السادس.

يدخل الأئمة تاريخنا من خلال وظيفتهم كأئمة وهذا ما ورثوه عن الرسول ونوابهم حتى آخر الزمان. وكما سنرى في الفصل التالي ان كل نبي من آدم إلى محمد كانت له وصيته الذي استمر بمهمته حتى مجيء النبي الآخر. ولذا وبحسب المذهب الشيعي عجلتا الأنبياء والإمامة وثيقتا الصلة وان الأخيرة مهمة لإتمام الأولى. فلقد أطلق الأئمة في زماننا بدون ان يكونوا ملزمين به. فكأئمة هم ينتمون إلى ما وراء التاريخ تاريخ الخلاص. فلقد اخبرنا الإمام الخامس محمد الباقر: "فلما انقضت نبوة آدم واستكمل أيامه أوحى الله عز وجل إليه أن يا آدم قد انقضت نبوتك واستكملت أيامك فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم

---

(١) بحراني، ص ٢٩. انظر أيضا ص ٢٨٨. هناك واقعية متزايدة في أكثر من الكتب الحديثة، التي تقدم تصويرا واقعيا حول العلاقة بين معاناة الأنبياء القدامى وبين الأئمة. منذ ادم الذي اخبر من قبل الملاك بالمأساة التي سوف تحدث في كربلاء، الذي سوف يصبح الشاهد الفعلي حول الإحداث.

(٢) انظر المجلسي ٤٤، ص٢٤٢، فيما يخص التفاسير المهمة والأحاديث التي تتناول مساهمة الأنبياء القدماء ومعرفتهم وعلمهم بمأساة كربلاء. انظر مُلا آلاخوند الدربندي، اكسر العبادات في أسرار الشهادات، طهران: (دار الطباعة، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م)، ص ٤٨.

وآثار علم النبوة في العقب من ذريتك عند هبة الله (شيث)»[١].

كان الأنبياء وحتى النبي محمد يتبع واحدهم الآخر، وكان الله قد اخبرهم وهم بدورهم اخبر احدهم الآخر عن مجيء محمد. وكان محمد بدوره تحت إمرة الله لينال هذا الميراث النبوي الأساس لعائلته بدءاً بعلي بن أبي طالب. واستمر الله بقوله «فإني لن أقطع العلم والإيمان والاسم الأكبر وآثار النبوة من العقب من ذريتك إلى يوم القيامة ولن أدع الأرض إلا وفيها عالم يعرف به ديني ويعرف به طاعتي ويكون نجاة لمن يولد فيما بينك وبين نوح وبشر آدم بنوح.»[٢].

يتميز الأئمة بمعرفة خفية كدليل على ان "الكلمات" التي تلقاها آدم من الله كانت أسماء الخمسة "المعصومين". والإمام الخامس أعلن لواحد من تلامذته "نحن خزّان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله"[٣].

وفي التقاليد الشعبية كان دائماً ما يربط إبلاغ النبي عن مجيء الأئمة ولاسيما فاجعة كربلاء بالحدث الرئيس في حياة النبي. فبالنسبة لآدم كانت تربط أولا ببداية معرفته النبوية ومن ثم إلى بداية وجوده الأرضي بعد ان فقد وجوده في الجنة وبراءته الأصلية. بالإضافة إلى ذلك فان الهام بيت الأحزان ومكانه فيه قد أعاد آدم إلى الإنسانية الحقيقة والوجود النبوي للأتقياء "الأصفياء" في الله.

فبالنسبة للشخص المتدين كل حدث أو أي شيء قد يعني رمزياً أو فعلياً

---

(١) عاملي، جواهر، ص٢١٠-٢١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١١.

(٣) هذا الاعلان يتكرر في العديد من الاحاديث المنسوبة للائمة في العديد من الإشارات عند كليني، كافي، المجلد ١، ك. الحجة، وكذلك الفصل الثاني.

رابطاً مع الزمان والمكان المقدسين. وهذا ما سيجعل العالم اجمع مقدساً بدون أن يتم إدراك ذلك الذي قاد النساء والرجال الأتقياء على مر العصور لمقاومة المنطق الديني والعقلاني دون ان يعزو بأي شيء أو حادثة وحتى ولو كان تافهاً، إلى رمز العبادة. ان أمثلة مشاركة الأنبياء الأوائل بدراما كربلاء هي مثال واضح على هذه الحال. وفي الحقيقة كلما كانت القصة خيالية كلما كانت القصة تخدم الغرض في توفير العنان المطلق لمخيلة الناس.

فعندما أمر نوح، ثاني اكبر وريث للهبة النبوية من آدم، ان يبني سفينته جاءه الملاك جبرائيل بمخططات بناء السفينة والمسامير التي سيبني بها سفينته[١]. وكانت خمسة من هذه المسامير تضيء كالشمس وشعر نوح بسعادة غامرة لمرأى هذه المسامير وعندما سأل الملاك عن هذا السبب أجابه الملاك ان هذه المسامير ترمز إلى النبي محمد، علي ابن عمه وزوج ابنته، ابنته فاطمة (الزهراء) وابنيهما الحسن والحسين. ومن خلال حزن نوح توقع وبشكل لاشعوري الظلم الكبير والمصيبة التي ستحل على الرجل الذي يرمز له بالمسمار الخامس.

ان حياة نوح غالبا ما تربط بالحسين. فلقد طفت سفينته على المياه حتى واجهته ريح عاتية بدأت تهز السفينة بقوة. وظن الناس في السفينة انهم سيلقون حتفهم غرقاً جزاءً على خطيئة ارتكبوها بدون قصد او وعي. ونادى نوح الله وتذمر بسبب هذا العقاب غير المتوقع وعلم ان السفينة تمر فوق ارض كربلاء إذ استشهد حفيد خاتم الأنبياء محمد على يد أخس الناس على هذه الأرض، ولهذا السبب اهتزت السفينة. وبكى نوح لموت الإمام ولعن قاتليه ومشت السفينة بسلام وسكينة ووصلت إلى مينائها بسلام على الجبل. حدث هذا حسب مقولة الإمام السادس في يوم

(١) بحراني، ص ٢٩. وكذلك انظر المجلسي، ٤٤، ص٢٤١-٢٤٢.

عاشوراء[١]. كما ان هذا النبي القديم قد علم بحادثة كربلاء واحتاج إلى تذكير بهذه الحادثة. ان هدف هاتين القصتين هو ربط واقعة كربلاء بالطوفان. وبهذه الطريقة يدخل التاريخ بأجمعه إلى التاريخ المقدس عن طريق المساهمة بالحادثة الرئيسة.

بالنسبة للمسلمين كان إبراهيم النبي الرأس الأول للإنسانية الثانية ما بعد الطوفان. وكان أبو الإيمان الموحد المؤمن بالله الواحد، نبياً قوياً واحداً من أولي العزم[٢] وولياً لله. لذا فهو يشارك بشكل مباشر وكامل في أحزان آل البيت. وبالنسبة لحاله فانها تدمج التقاليد الدينية والشائعة عندما يقدم دراما مشابهة بالدراما المقدسة لشهادة الحسين. الا إننا أخبرنا انه قد رأى كل ممالك الأرض[٣] وتلك التي تحت العرش إذ رأى خمسة ممالك مقدسة كأشكال من النور تمدح وتمجد الرب[٤]. وعندما أخبر بالمصيبة التي ستقع لإحدى تلك الممالك فانه بكى وانتحب. غير ان إبراهيم يدخل مباشرة إلى بيت الأحزان من خلال ما نسميه بتضحية إبراهيم. بحسب ما قاله الإمام الثامن، فانه على الرغم من ان الله أمر إبراهيم ان يذبح الكبش السماوي بدلاً من ابنه إسماعيل الا ان إبراهيم كان يتمنى لو يذبح ابنه حتى يجرب قلبه حزن الأب الذي يذبح اعز أبنائه. وفي حوار درامي مثير بين الله

---

(١) المجلسي، ٤٤ ص ٢٤٣. وكذلك انظر جعفر التوستري، خصائص الحسين ومزايا المظلوم، (وردت في مخطوطة نسخت سنة ١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٧ م) ص ٦٦.

(٢) هؤلاء هم الأنبياء الذين جاءوا مع الوحي والشريعة، وهم عادة خمسة أنبياء: نوح، إبراهيم، موسى، يسوع المسيح ومحمد. كليني، كافي، الحجة، ص٢٦٧.

(٣) انظر القرآن ٧٦:٦

(٤) توستري، ص ٦٨.

وإبراهيم[1] يعبر الأخير عن مرارة حزنه على شهادة الحسين ويعلن انها اشد وقعاً على قلبه من ذبح ولده إسماعيل بيديه. وكما ان العائلة المقدسة تعد اعز على المجتمع الشيعي من المال والحياة نفسها وكذلك كان الأمر بالنسبة للأنبياء الأوائل. ان تضحية إبراهيم خليل الله لم يكن المقصود بها عرض الثقة والطاعة لله بل لربط الحزن في مهمته النبوية مع الأئمة وأحزانهم على الرغم من المعاني الضمنية للطاعة في النص القرآني[2]. ان إبراهيم يود لو ان ابنه قد ذبح بيديه ليس فقط إطاعة لله بل لمشاركة أحزان محمد على حفيده لإمام الشهيد. كما نرى في تعليق المجلسي: "ليس في الخبر أنه فدى إسماعيل بالحسين، بل فيه أنه فدى جزع إبراهيم على إسماعيل، بجزعه على الحسين عليه السلام، وظاهر أن الفداء على هذا ليس على معناه بل المراد التعويض، ولما كان أسفه على ما فات منه من ثواب الجزع على ابنه، عوضه الله بما هو أجل وأشرف وأكثر ثوابا، وهو الجزع على الحسين عليه السلام، فإذا كان المراد بالذبح العظيم قتل الحسين عليه السلام لا يكون المفدى عنه أجل رتبة من المفدى به فان أئمتنا صلوات الله عليهم أشرف من اولي العزم عليهم السلام فكيف من غيرهم"[3].

كما ان هناك إشارة أخرى إلى ان إبراهيم كآدم قد شارك مادياً بآلام استشهاد الحسين فعندما كان يركب حصانه ذات يوم مر إبراهيم بأرض كربلاء في البقعة التي سفك فيها دم الحسين، وقع إبراهيم عن حصانه على الأرض وانشق رأسه بجرح عميق انبثق منه الدم فدعا الله ان يغفر له خطيئته وتساءل عن السبب "أي خطيئة ارتكبت الآن؟" فجاءه الملاك

(١) انظر الملحق الفصل أ.١١أ.

(٢) انظر القرآن، ٣٧: ١٠٣.١٠٥.

(٣) المجلسي، ٤٤، ص ٢٢٧.

جبرائيل وقال له: "يا إبراهيم ! ما حدث منك ذنب، ولكن هنا يقتل سبط خاتم الأنبياء، وابن خاتم الأوصياء، فسال دمك موافقة لدمه". وسأل إبراهيم عن قاتل الحسين وأجابه الملاك "لعين أهل السماوات والأرضين، والقلم جرى على اللوح بلعنه بغير إذن ربه، فأوحى الله تعالى على القلم إنك استحققت الثناء بهذا اللعن" فرفع إبراهيم يديه إلى السماء ولعن يزيد وأجابه حصانه بـ "آمين". وسأل إبراهيم الدابة "أي شيء عرفت حتى تؤمن على دعائي؟" فأجابه الحصان وبكلام فصيح: "يا إبراهيم! أنا أفتخر بركوبك علي فلما عثرت وسقطت عن ظهري عظمت خجلتي، وكان سبب ذلك من يزيد لعنة الله تعالى"[١].

كان ابن إبراهيم الأول - إسماعيل - الطفل المفتدى وسلف النبي العربي وعائلته، قد اعلم أيضا بواقعة كربلاء، فحينما كان يرعى غنمه على ضفاف الفرات توقف الغنم ورفض ان يأكل ويشرب في منطقة كربلاء وعندما سأل إسماعيل الملاك جبرائيل عن سبب ذلك أجابه الغنم قائلاً عن المصاب العظيم والحزن الذي سيحل على الإمام لذا توقف عن الاكل والشرب في هذه البقعة إذ قتل الحسين عطشاناً جائعاً من دون ان يكون هناك من يمد له يد المساعدة.

توضح القصص التي تروى عن إبراهيم وابنه إسماعيل التراجيديا الكونية لمحرم وعن تميز الحيوانات من البشر في معرفتهم وحزنهم على الإمام المظلوم وعائلته. ان الحيوانات كونها مخلوقات غير عاقلة تملك نوعاً من المعرفة الغامضة أكثر من أي إنسان فهي بريئة من دم الإمام ولا تقبل بالإثم الذي وقع بحقه. ان الحيوانات كما سنرى تشترك تماماً بالآلام والمعاناة عوضاً عن الإمام الحسين، ليس فقط الحيوانات والطيور بل كل عناصر

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤٣، انظر ايضا بحراني ٢٩ -٣٠.

الطبيعة شاركت في أحزان آل البيت .

وعندما سمع النبي موسى "كليم الله" بواقعة كربلاء بصورة شاملة من بقية الأنبياء وحتى النبي محمد، فقصته تتناول بياناً بسيطاً للتقليد الكامل الذي يشمل مهمة الحسين واستشهاده وذلك عن طريق نص طويل مفصل لآلام ومعاناة الحسين وعائلته والطريقة التي سيقتل بها الحسين والعذاب الشديد الذي سينتظر قاتليه. يوضح هذا الاعتبار الفسيفسائي كل الخصائص الدينية التي يقرأها هذا النبي القديم الجليل. يرتبط هذا التقليد بكل الامتيازات الشفاعية للنبي موسى التي تعدّ جزءاً من وحيه القدسي[(١)] .

أما المسيح (عيسى) ويوحنا المعمدان ابن زكريا فانهما يحتلان جزءاً بارزاً من بيت الأحزان. فعلى الرغم من ان المسيح لم يستشهد حسب ما يعتقده الإسلام الا انه ظلم ونبذ من قبل الناس وفي النهاية تم إنقاذه من خلال القوة الإلهية. ان مناقشة العلامات والأعاجيب التي تصاحب موت النبي او الإمام والمنسوبة إلى الإمام الخامس محمد الباقر الذي يقول: "في تلك الليلة التي قتل فيها علي لم يرفع عن وجه الأرض حجر الا وجد تحته دم عبيط حتى طلع الفجر، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها هارون أخو موسى، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها يوشع بن نون، وكذلك كانت الليلة التي رفع فيها عيسى بن مريم الى السماء، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها شمعون الصفا، و كذلك كانت الليلة التي قتل فيها الحسين بن علي"[(٢)] .

---

(١) راجع الملحق، أ. ١ب.

(٢) جعفر بن محمد بن قولويه القمي، كامل الزيارات، طبعة ميرزا عبد الله الاميني التبريزي (نجف: المطبعة المرتضوية، ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧ م)، ص ٧٦.

كان المسيح ابن العذراء (البتول) مريم سيدة النساء. وكانت مريم تقية وفقيرة وكان الله يحميها ويحفظها إشارة إلى عطفه ورحمته. اما فاطمة الزهراء "مريم الكبرى"[١] فهي تشترك مع مريم بهذه الصفات في الدين الإسلامي كما سنرى لاحقاً في هذا الفصل. لذا فان المسيح وفي مفهوم معين هو أخو الحسين. الا ان الأخير لا يستطيع ان يكون من حمل عذري الا انهما يتشاركان مولداً عجائبياً إذ بقيا في رحم امهما لمدة ستة أشهر فقط. وان بعض التقاليد تعزو هذا المولد العجائبي إلى النبي يوحنا أيضا. وفي الحقيقة ان الشخصيتين المسيح ويوحنا دائماً ما تدمجان في شخصية واحدة مشابهة إلى الحسين في التقاليد الشعبية.

وروي إن عيسى عليه السلام كان سائحا في البراري ومعه الحواريون، فمروا بكربلاء، فرأوا أسدا كاسرا قد أخذ الطريق، فتقدم عيسى إلى الأسد وقال له: لم جلست في هذا الطريق ولا تدعنا نمر فيه؟ فنطق الأسد بكلام فصيح وقال: إني لا أدعكم تمرون حتى تلعنوا يزيد بن معاوية قاتل الحسين؟ فقال عيسى عليه السلام ومن يكون الحسين؟ قال: هو سبط محمد النبي آلامي، فبكى عيسى ومن معه، ثم قال: ومن يقتله قال :لعين أهل السماوات والأرض، فلعنه عيسى ولعنه الحواريون، فتنحى الأسد عن طريقهم فساروا لقصدهم[٢].

وفي قصة أخرى كانت هناك مجموعة من الغزلان ترعى في كربلاء وعندما اقتربت من البقعة التي قتل فيها الحسين جلست الحيوانات لترثى موت الإمام الحسين وقصت الحادثة للمسيح. إذ تصور المسيح الحادثة بأكملها وشرحها بوضوح إلى شعبه حتى يساندوا الإمام الشهيد. ان هذه

---

(١) ماسينون ١ ص ٥٧٣.

(٢) بحراني، ص٣٠.

القصة مهمة بشكل خاص لان علي كما يقال قد وجد سماد هذه الغزلان نفسها[١].

ان بعض المتطرفين الشيعة ذهبوا بعيداً إلى حد ان جعل الحسين ابن فاطمة مثل المسيح ابن مريم العذراء في كل وجه. لذا يصور الحسين بقيامه من بين الأموات واذا لم يتكلم في مهده[٢] فانه مجد الله في رحم امه ومن ثم جعل طفلاً يتكلم في مهده حتى يكشف عن زنا امه[٣]. كما ان بعض الشيعة المتطرفين الآخرين ذهبوا إلى حد القول بان الحسين، مثل المسيح، لم يمت بل صعد إلى السماء.

يربط المذهب الشيعي يوحنا المعمدان، يحيى ابن زكريا، بالحسين أيضا. قضى يوحنا معظمَ حياته معترضاً على حماقات البشر وحبهم للمادة والممتلكات. وعلى الرغم من استشهاده الا انه استمر حتى النهاية في لوم الملك الشرير[٤] لأعماله الشريرة. اما والد يوحنا، زكريا، فلقد كان رجلاً صالحاً يقيم في بيت الله وقضى حياته في الصلوات والعبادة، وقد أخبر بأسماء الأعضاء الخمسة للعائلة المقدسة. وكلما كان يقول او يتذكر الأسماء الأربعة الأولى كان يزول عنه الهم والغم لأنه كان يجد فيهم الطمأنينة والراحة اما عندما كان يذكر الخامس كان قلبه يثقل بالحزن وتمتلئ عينيه

(١) انظر الملحق، أ. ١ . أ.

(٢) حول كلام المسيح في المهد، انظر القرآن١٩ : ٢٩ -٣٣.

(٣) لهذه الاحاديث المتعلقة بالحسين، انظر الفصل الثالث، ص ٨٦.

(٤) إن التقليد الإسلامي الشعبي هنا يخلط بين هيرودس الملك، حاكم يهوذا مع خصمه ملك بابل، نبو خذ نصر، التقوى الشيعي يعطيه اسم بخذنصر. انظر رشيد الدين بن شهراشوب، مناقب آل أبي طالب، (نجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٧٦ هـ/ ١٩٦٥ م، الجزء ٣)، ص ٢٣٨.

بالدموع. وعندما اشتكى لله عن ذلك تلقى الجواب بهذه الكلمات "ك هـ ي ع ص"[١]. ان معنى هذه الكلمات التي سئل عنها الإمام الثاني عشر في أثناء اختفائه السفلي فبعد ان قص حكاية يحيى قال "الكاف تعني كربلاء، هاء تعني إبادة (هلاك) العائلة النقية، والـ ياء ترمز إلى يزيد قاتل الحسين والـ عين إلى عطش الحسين والـ صاد إلى صبره وتحمله، ومن ثم استمر الإمام الثاني عشر "فدعا زكريا ربه ان يمنحه ابناً يكون وريثاً له وسيحبه كثيراً، فاستجاب الله لدعائه ليحزن على استشهاد ابنه كما سيحزن محمد على شهادة ابنه الحسين. وأكمل الإمام "كان حمل يحيى ستة أشهر، وحمل الحسين ستة أشهر، وذبح يحيى كما ذبح الحسين ولم تبك السماء والأرض إلا عليهما"[٢].

قال: "علي زين العابدين" الإمام الرابع والابن الوحيد للحسين الذي بقي على قيد الحياة، انه وفي طريقهم إلى كربلاء كان والده كثيراً ما يذكر يحيى مكرراً إن من هوان الدنيا على الله ان رأس يحيى أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل"[٣]. ومن ثم يروي حسب ما قاله أبوه قصة صراع النبي ضد الملك الشرير ومن ثم براءته الأخيرة[٤].

---

(١) ابن شهراشوب، الجزء ٣، ص٢٣٧. وكذلك قرآن ١ :١٩.

(٢) ابن شهراشوب الجزء ٣، ص ٢٣٥ -٢٣٦.

(٣) محمد ابن النعمان المفيد، الإرشاد، طبعة السيد كاظم المياموي (طهران: دار الكتب، ١٣٧٧ هجرية)، ص٢٣٧.

(٤) لقد قيل لنا بان ملك بابل قد احتل مملكة يهوذا وسبى أكثر من سبعين ألفا من الشعب إلى بابل وقطع راس النبي يوحنا المعمدان فيما بعد حتى ظهر النبي الذي قام بتهدئة الوضع. كذلك سوف يقوم المهدي بذبح العديد من الناس انتقاما لدم الحسين. أن دم القتلى سوف يكون أكثر من سبعين مرة انتقاما للحسين وهذه هي مهمة المهدي المنتظر. انظر إلى الفصل السادس، ص٢١٦.

٣-١ عوز وفقر آل البيت وحظوتهم عند الله

كما نوقش في بداية هذا القسم ان الآلام لها فضيلتها الخاصة عند الله فهي طريق الرجل المؤمن إلى الخلاص وانها بحد نفسها وسيلة لتنقية روحه وامتحاناً لإيمانه. يتم التعبير عن تواضع الإنسان أمام الله من خلال الصبر وتحمل المعاناة من قبل الرجل المؤمن. اما بالنسبة لآل البيت فانها كانت تعني الصبر على الجوع والفقر، العذاب والحرمان وأخيرا كأس الشهادة كخاتمة لجهادهم في سبيل الله. الا انه وكما سنرى فان المكافأة كانت موجودة أصلا في الوعد بالطمأنينة والثروات والخلاص وحتى التجربة المسبقة بتذوق فواكه الجنة هنا على الأرض. ان تفاعل الألم مع السعادة، الفاقة والوفرة، التواضع والسمو هو ما يميز فعلاً عالم بيت الأحزان.

ففي احد الأيام وفي بيت ام سلمة (الزوج المفضلة للرسول بحسب رأي الشيعة) استلقى الرسول ليرتاح تحت كسوته، فجاء أولا حفيديه الحسن والحسين واستلقيا بجانبه ومن ثم تبعهما علي وفاطمة وعندما كان الخمسة جميعهم هناك جلس الرسول وقال "اللهم إن هؤلاء أهلُ بيتي وخاصتي فأذهِب عنهم الرجسَ، وطَهِّرهم تطهيراً، "[١]. ومنذ ذلك الوقت عرفوا "بأهل الكساء"[٢].

---

(١) انظر القرآن ٣٣: ٣٣.

(٢) هذا التقليد يوجد عمليا في جميع الأحاديث النبوية السّنية والشيعية. ففي السّنة مثلا انظر ابو القاسم علي ابن الحسن بن هبة الله ابن عبد الله ابن الحسين ابن عساكر، التاريخ الكبير، طبعة عبد القادر أفندي بدران (دمشق: روضة الشام، ١٣٣٢ هـ / ١٩١٣م)، المجلد الرابع، ص ٣١٤ - ٣١٥. اما في المصادر الشيعية فانظر محمد بن الفتّال النيسابوري، روضة الواعظين، طبعة محمد خرساني (نجف: المطبعة الحيدرية،

فأصبح الكساء وحسب التقاليد الشيعية رمزاً واضحاً للوحدة العائلية للرسول في السراء والضراء في الأفراح والأتراح وفوق كل شيء في الميراث النبوي. فهم يمثلون ورثة للمعرفة النبوية والقيادة (الإمامة) والمشاركون في الأحزان العذابات والشهادة المكتوبة على كل الأنبياء منذ بداية تاريخ الإنسانية. ان الشهادة كما ينسب إلى كعب الأحبار " بدأت بهابيل وانتهت بالحسين "[١]. ومع هذا فان الحسين لم يكن بأي شكل من الأشكال الشهيد الأخير للعائلة المقدسة إذ قيل لنا بان كل الأئمة ما عدا الإمام الثاني عشر قد كانوا شهداء[٢]. ان كل الشهداء في سبيل الله قبل وبعد الحسين كانوا شركاء في استشهاده فهو معروف بالنسبة للشيعة والسنة كذلك بأنه أمير الشهداء (سيد الشهداء).

هناك تقليد آخر وبالمحتوى السابق بنفسه عن الفة العائلة التي اجتمعت في قصة الكساء موضحة بشكل درامي وحدة عائلة الرسول في المصائب. ان القصة المأساوية التي حكاها علي زين العابدين قد سمعها من عمته زينب اخت الإمام الحسين التي بدورها حكتها إلى ام أيمن التي تحققت من

١٣٨٦هـ /١٩٦٦ م، ص١٥٧ - ١٥٨). وكذلك أبو جعفر محمد بن جرير ابن رستم الطبري، دلائل آلامامة، (نجف: المطبعة الحيدرية ١٣٦٤هـ /١٩٤٩م)، ص٣. يقولالطبري هنا بان الأحداث كانت مخطط لها من قبل النبي والقرآن الكريم وكأنها مقتبسة من مكان أخر.

(١) خوارزمي، المجلد الأول، ص١٦٥.

(٢) الطبري يطبق هذه الحجة على جميع الأئمة في كتابه "دلائل آلامامة". وهو يقدم هذه الحجة كدليل لآمامة كل واحد من آلامة عدا آلامام الثاني عشر. وللإيضاح أكثر انظر إلى الحديث الطويل للإمام السادس المقتبس في كتاب ابن بابويه، كتاب العلل، ص٢٢٥.

صحتها مع والدها "علي" على فراش الموت[1].

ففي يوم زار النبي ابنته فاطمة التي صنعت له "حريرة" (مزيج من الحليب والبيض المحلى) وجلب علي صحناً مليئاً بالتمر وجلبت ام ايمن لبناً خاثراً وزبدة في طبق خزفي. وعندما أكل الجميع غسل الرسول يديه وتوضأ بينما كان علي يسكب الماء له. ثم واجه القبلة ليصلي ويشكر الله. رفع النبي عينيه إلى السماء وقتاً طويلاً ومن ثم سجد على الأرض. فتصلب جسمه ووجهه على الأرض وبكي طويلاً وبكى كل الذين حوله لبكائه. وقالوا ان ما رأيناه من حالك افطر قلوبنا فأجاب انه كان مبتهجاً شاكراً الله على عائلته الا أن الملاك جبرائيل نزل إليه من السماء قائلاً له: - "يا محمد إن الله تبارك وتعالى اطلع على ما في نفسك، وعرف سرورك بأخيك وابنتك وسبطيك، فأكمل لك النعمة، وهنأك العطية بأن جعلهم وذرياتهم ومحبيهم وشيعتهم معك في الجنة لا يفرق بينك وبينهم: يحيون كما تحيى ويعطون كما تعطى حتى ترضى وفوق الرضا على بلوى كثيرة تنالهم في الدنيا، ومكارة تصيبهم بأيدي أناس ينتحلون ملتك ويزعمون أنهم من أمتك، براء من الله ومنك خبطا خبطا وقتلا قتلا، شتى مصارعهم نائية قبورهم، خيرة من الله لهم ولك فيهم، فاحمد الله عز وجل على خيرته وارض بقضائه، فحمدت الله ورضيت بقضائه بما اختاره لكم"[2].

ثم اخبر جبرائيل الرسول بشهادة علي على يد أشر الخلق والخليقة بعيداً عن بيته. ووصف الملاك بشكل مؤثر قدر الحسين وأصحابه، وتنبأ بإقامة

---

(١) إن السياق المتبع في هذا التقليد سوف يؤخذ بنظر الاعتبار وسوف يناقش في القسمين الخامس والسادس اللذان يتناولان الموضوع نفسه.

(٢) ابن قولويه، ص ٢٥٥.

ضريح الحسين في كربلاء وكيف سيؤدي هذا الضريح دوراً في حياة المؤمنين. كما قص الملاك القدر الذي ستواجهه العائلة المقدسة وأعدائها في يوم القيامة، وعن الحسين نفسه قال:-

"واما سبطك هذا ـ وأومأ بيده إلى الحسين (عليه السلام) ـ مقتول في عصابة من ذريتك وأهل بيتك، وأخيار من امتك بضفة الفرات، بأرض تدعى كربلاء، من أجلها يكثر الكرب والبلاء، على أعدائك وأعداء ذريتك، في اليوم الذي لا ينقضي كربه، ولا تفنى حسرته، وهي أطهر بقاع الأرض، وأعظمها."[1].

قد يقرأ هذا التقليد اما كقصة خيالية ناتجة عن أناس مضطهدين او كقصة لها مغزى رمزي عميق في حياة الإنسان. ان المعاناة حسب هذه القصة يجب ان تترافق مع الحظوة الإلهية والمكانة العالية عند الله ليس فقط للشهداء أنفسهم بل لأولئك الذين يختارون القدر نفسه معهم أيضا. فمع الشهيد العظيم سيدخلون بيت الأحزان الذي يصبح جسراً إلى الجنة حديقة الأنبياء.

عندما يعرض الكساء في هذا التقليد يصبح نفسه بيت الأحزان ورمزاً غير متناه للرحمة للعائلة الحزينة وأصدقائها. ان شهادة الحسين تعد مميزة إلى ابعد الحدود لأنه الإمام الخامس من أصحاب الكساء. ان وجود أصحاب الكساء بحد ذاته على الأرض، يعد لطفاً إلهيا. وعندما توفي الرسول بقي أربعة وجد فيهم الناس الرحمة والطمأنينة التي وجدوها في كل واحد منهم بعد رحيل الاخر. لان وجود واحد منهم كان يعني وجود

(١) المصدر نفسه، ص ٢٥٩.

الجميع. وعندما توفي الحسين بقي واحد من الخمسة وهكذا كان موته موت جميعهم[1].

القى الرسول حديثاً وموعظةً على أصحابه والمجتمع الإسلامي في المدينة[2] محدثاً اياهم عن معاناة أصحاب الكساء الاربعة كل على حدة وببعض التفصيل. ان هذا التقليد لا يوضح فقط اضطهاد العائلة المقدسة بل الحظوة الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها عند الله وحب النبي لهم. كما ان المضطهدين غالباً ما يلعنون وبقسوة لانهم كانوا يعلمون طبيعة الناس الذين سيضطهدونهم وانهم كانوا يعلمون أيضا الحساب العسير الذي سيلقونه جزاءً لعملهم هذا.

وكما يخبرنا ابن عباس ان النبي كان جالساً يوماً ما مع أصحابه عندما جاءه الحسين فنظر الرسول إلى الطفل وبكى فحضنه واجلسه على رجله اليسرى وجاء الحسن نظر اليه الرسول فعانقه وبكى واجلسه على رجله اليمنى ثم تبعهما علي وفاطمة ونظر اليهم الرسول وبكى ثم قال: "هؤلاء انبل مخلوقات الله على الأرض واحبهم اليه والي"[3]. ثم ذكر المظالم التي سيتعرض لها علي من بعده وانه سيحرم من كرسي السلطة (الخلافة) الذي اختاره الله له وانه سيستمر بمواجهة الرفض حتى يضرب بالسيف وكيف ان لحيته ستتلطخ بدمه وان هذا سيحدث في رمضان (اقدس أشهر السنة).

---

(١) ابن بابويه، علل، ص ٢٢٥.

(٢) أبو جعفر بن محمد، ابن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، المعروف بالشيخ الصدوق، الامالي والمجالس، (قم: مطبعة الحكمة، ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م)، ص ٧٨ - ٨٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٠ -٧١.

هاتان الاشارتان تؤلفان النص المأساوي لما سيتعرض له علي من وجهة نظر الشيعة.

ثم يذهب النبي إلى شرح الحرمان والعذاب والمظالم التي ستعانيها فاطمة على ايدي رجال مسلمين بارزين في المجتمع الإسلامي. إذ تصور فاطمة في التقليد الشيعي بوصفها امرأة موجوعة قضت باقي ايام حياتها تنوح على مقتل والدها رافضةً أي اتصال مع العالم الخارجي. ان معاناتها وموتها يكونان المأساة الأولى في الإسلام وان الطائفة التي تزايدت حول شخصيتها ليست مقصورة على الشيعة فقط. كان التقليد اننا سنعدّ هنا ان النص الأخير قد اخذ عن الرسول وأعيد سرده ومع هذا فانه بشكل عام مقبول مع بعض التغييرات الطفيفة من قبل المسلمين. كما سنشرح لاحقاً في هذا الفصل الاحداث التي قادت إلى موت فاطمة[١].

أما بالنسبة إلى الحسن فان التقليد يخبرنا ان الرسول قد قال انه سيحرم من ميراثه منصب الخلافة من بعد موت والده مطعوناً من قبل أولئك الذين كانوا يدعون انهم أصحابه ومن ثم استشهاده مسموماً. ان السماء والأرض ستحزنان لموته وان العيون التي ستبكيه لن تعمى في اليوم الذي ستعمى فيه العيون .

وبالنسبة للحسين كما تخبرنا الأحاديث بان محمد قد قال: "واما الحسين فانه مني، وهو ابني وولدي، وخير الخلق بعد اخيه، وهو امام المسلمين، ومولى المؤمنين، وخليفة رب العالمين، وغياث المستغيثين، وكهف المستجيرين، وحجة الله على خلقه اجمعين، وهو سيد شباب اهل

(١) انظر الملحق أ، القسم الثاني، الجزء أ، المتعلق بفاطمة، وكذلك الإشارة المتعلقة في الملحق.

الجنة، وباب نجاة آلامة، امره امري، وطاعته طاعتي، من تبعه فانه مني، ومن عصاه فليس مني، واني لما رايته تذكرت ما يصنع به بعدي، كاني به وقد استجار بحرمي وقبري فلا يجار، فاضمه في منامه إلى صدري، وآمره بالرحلة عن دار هجرتي، وابشره بالشهادة، فيرتحل عنها إلى ارض مقتله وموضع مصرعه ارض كرب وبلا وقتل وفنا، تنصره عصابة من المسلمين، أولئك من سادة شهدا امتي يوم القيامة، كاني انظر اليه وقد رمي بسهم فخر عن فرسه صريعا، ثم يذبح كما يذبح الكبش مظلوما»[١].

انه من الواضح في مثل هذه التقاليد ان الكثير من التاريخ السابق والتفسيرات قد نقلت عن الرسول، ومن أصحابه المباشرين وأفراد عائلته. ومع هذا فان هذه التقاليد الشيعية تدعي المصداقية لان الكثير منها منسوب إلى احد من الأئمة او احد أقارب الرسول. ان هذه المقولة السابقة هي إحدى التقاليد القديمة[٢] فهي وغيرها مما يشبهها تخدم تطور طائفة محرم التي ما زالت تسرد في مجالس التعزية.

والمتقين الذين يقودهم الأئمة، ينظرون إلى حياة وأقوال الرسول وعائلته لكي تقودهم في رحلتهم الحزينة في طريق العذاب والضعة التي تؤدي إلى الحياة السرمدية في الجنة. لقد وجد الفقير والمحروم في حياة العائلة المقدسة مثالاً للصبر في وسط البيئة الفقيرة الجوع، المرض والحرمان لفاطمة الزهراء قد أعطت الأمل والسلوان للمريض والمحروم.

هناك الكثير من الأحاديث التي تتطرق إلى الجوع والفقر للعائلة المقدسة الا ان الجميع يصر على ان هذا الفقر هو زينة المتقين ولاسيما اعضاء بيت

---

(١) ابن بابويه، امالي، ص ٧٠ - ٧١.

(٢) هذه المقولة موجودة في مجلس عزاء مؤرخ في ٣ شوال، ٣٦٧هـ / ٩٧٨م. وهو ذو صلة بسلطة ابن عباس، انظر مجلس ٢٤ في كتاب المعالي أو المجالس لابن بابويه.

النبوة. ولقد اثبت الله مراراً حظوتهم لديه من خلال معجزة الوفرة لا ليطعموا انفسهم فقط بل جيرانهم كذلك. وهذه المعجزة لا تختلف عن معجزة المسيح في اشباع الناس.

جاء الرسول يوماً ما إلى ابنته بحثاً عن شيء يأكله لأنه لم يتناول شيءً منذ ثلاثة أيام. الا انها وبحزن أجابت انها لا تملك شيئاً لتقدمه وان عائلتها هي أيضا كانت جائعة. الا ان احد جاراتها أرسلت لها صحناً من الخبز والحم فدعت الرسول ليأكل. وعندما فتحت الغطاء عن الصحن وجدت ان هناك ما يكفي لهم جميعاً ولجيرانهم أيضا. فقال لها النبي "من أين لك هذا يا بنية؟" فأجابت "هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب" فأشرق وجه الرسول فرحاً وقال "الحمد لله الذي جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل"(١).

ان العديد من التقاليد التي تدور حول الفقر والعازة لعائلة الرسول تخدم عدة اغراض للمتقين. وهذه كثيراً ما تذكر وبفخر وتزيين أثناء مجالس التعزية إذ يتحمل الناس مشاعر الفقر والحرمان مع العائلة المقدسة. فهم يشعرون انهم ومن خلال معاناتهم يشاركون في معاناة آل البيت. ولاحقاً عندما تتاح الفرصة فان المتقين يقدمون الهبات في سبيل أل البيت محاكاة لهم في كرمهم(٢).

---

(١) إن الحوار بين النبي وابنته فاطمة هو تكرار لسؤال زكريا نفسه لمريم العذراء حينما دخل إلى المعبد ووجدها متعجبة من الرزق الذي كان الله يرزقها به، انظر القرآن ٣:٣٧، ولجميع الاحاديث المتعلقة بهذا انظر، خوارزمي، المجلد الأول، ص٥٨.

(٢) انظر الملحق أ، القسم الثاني، الفصل ب. إن هذا الكرم، يوضع في سياقه الفلكلوري الراقي، والذي يعبر في نفس الوقت عن مهمة محمد الرسولية وكذلك على شهامة وشجاعة عائلته الفائقة.

ان هذه القصص لا تنقل اية افكار لاهوتية او ما وراء الطبيعة الا انها توفر الاساس للافكار الصوفية والروحانية. لا نستطيع ان نتطرق إلى هذه الافكار حالياً لاننا سنركز على التقوى الشعبية التي نبعت منها هذ التعاليم الخفية[1]. ويجب ان نلاحظ ومن خلال عدم وجود أفكار نظامية عن شخصية العائلة المقدسة في الأدب الشعبي الا ان الكثير من ذلك وجد في التقاليد والتقوى الشعبية. وهذا ما سنتحدث عنه باسهاب في مناقشتنا للإمامة في الفصل التالي.

ان الفكر الشيعي، الشعبي واللاهوتي في الوقت نفسه قد ادعى وفي عدة أشعار تلك التي تصف المؤمنين وفضائلهم، ان القرآن[2] يشير اولاً إلى آل البيت ومن ثم إلى اتباعهم (من الشيعة) ومن ثم إلى باقي المؤمنين عامة من البشر. وهذا ما يثبت ان الأئمة هم رفاق القرآن الكلمة الحية بكل ما في الكلمة من معنى. فحياتهم وأفعالهم هي تفسير الكتاب المقدس. فلقد قيل لنا ان سورة "الإنسان" قد أوحيت إلى الرسول لتصفهم لانهم فعلاً نفذوا الوصية او النصيحة[3].

يتضمن التطبيق الفعلي للنص القرآني على العائلة المقدسة في الحكاية النبوية التالية. في يوم مرض الحسن والحسين وجاء الرسول مع كل أصحابه ليطمأن عليهما. فاقترح على علي ان ينذر لله نذر حتى يعيد الله

(١) لشرح وتفسير هذه المعتقدات الشعبية في مصطلحاتها الروحية والاشراقية انظر "ماسينون، المجلد ١، ص ٥١٤.

(٢) انظر الفصل الخامس، ص ١٩٣. إن المصطلح "شريك القرآن" هو يطلق بشكل خاص على الامام الثاني عشر ضمنا وللائمة الاخرين، العديد من الزيارات (صلوات الحج) تتضمن هذا التعبير أو فكرة عامة منه، راجع، ابن قولويه.

(٣) انظر ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص٤٩.

اليهم الصحة. فأقسم علي وفاطمة وخادمتهما فضة والولدين الحسن والحسين على ان يصوموا ثلاثة ايام اذا استعادا صحتهما. ففي اليوم الأول لم يكن هناك في البيت ما يفطروا به صومهم ذلك المساء. لذا ذهب علي إلى جار له من اليهود يقال له : شمعون، يعالج الصوف، فقال : هل لك أن تعطيني جزة من صوف تغزلها لك ابنة محمد بثلاثة أصوع من شعير ؟ قال : نعم، فأعطاه، فجاء بالصوف والشعير، وأخبر فاطمة فقبلت وأطاعت، ثم عمدت فغزلت ثلث الصوف، ثم أخذت صاعا من الشعير فطحنته وعجنته وخبزت منه خمسة أقراص، لكل واحد قرصا، وعندما جلسوا ليأكلوا كان علي اول من بدأ بقطع الخبز وقبل ان يضع الطعام في فمه جاء رجل فقير إلى الباب قائلاً : "السلام عليكم يا أهل بيت محمد، أنا مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني مما تأكلون، أطعمكم الله على موائد الجنة، فوضع علي اللقمة من يده ثم قال : فاطم ذات المجد واليقين، يا بنت خير الناس أجمعين أما ترين البائس المسكين، جاء إلى الباب له حنين يشكو إلى الله ويستكين، يشكو إلينا جائعا حزين كل امرئ بكسبه رهين، ..". فأقبلت فاطمة تقول : "أمرك سمع يا ابن عم ! وطاعة، ما بي من لؤم ولا وضاعة، غذيت باللب وبالبراعة، أرجو إذا أشبعت من مجاعة أن ألحق الأخيار والجماعة، وأدخل الجنة في شفاعة". فاعطت الفقير كل ما كان امامهم من طعام وناموا جياعاً في تلك اللية إذ لم يدخل جوفهم سوى الماء. في اليوم التالي حضرت فاطمة طعام العشاء (الافطار) كما حضرته في اليوم السابق، الا انه حضر يتيم هذه المرة يسألهم طعاماً واعاد كلمات الرجل الفقير نفسها فخاطب علي زوجه قائلاً "فاطم بنت السيد الكريم، بنت نبي ليس بالزنيم قد جاءنا الله بذا اليتيم، من يرحم اليوم هو الرحيم موعده في جنة النعيم، حرمها الله على اللئيم وصاحب البخل يقف ذميم، تهوي به النار إلى الجحيم شرابها الصديد والحميم". فأقبلت فاطمة هي تقول : سوف أعطيه ولا أبالي، وأؤثر الله على عيالي، أمسوا جياعا وهم أشبالي".

وفي اليوم الثالث عندما جلسوا ليأكلون جاء اسيراً عربياً على باب بيتهم قائلاً "السلام عليكم يا أهل بيت محمد، تأسروننا وتشدوننا ولا تطعموننا ؟" تأثر علي من هذا الكلام قائلاً لزوجه فاطمة "فاطم يا بنت النبي أحمد، بنت نبي سيد مسود، قد جاءك الأسير ليس يهتدي، مكبلا في غله مقيد يشكو إلينا الجوع، من يطعم اليوم يجده في غد عند العلي الواحد الموحد". الا ان فاطمة في هذه المرة تململت بأسى وقالت "لم يبق مما كان غير صاع، قد دبرت كفي مع الذراع، شبلاي والله هما جياع، يا رب لا تتركهما ضياع، أبوهما للخير ذو اصطناع، عبل الذراعين طويل الباع، وما على رأسي من قناع، إلا عبا نسجتها بصاع" فأخذت الطعام واعطته للاسير اما هم فنامو جياعاً لليوم الثالث على التوالي[١].

في اليوم التالي زارهم النبي وكان حزيناً لمصيبتهم. فصلى لله ان يعطيهم فاستجاب الله لدعائه ولدعاء الرجال الفقراء الثلاثة أيضا في الحال. فجاء الملاك جبرائيل صحفة من الذهب مرصعة بالدر والياقوت، مملوءة من الثريد وعراقا، يفوح منه رائحة المسك والكافور، فجلسوا، فأكلوا حتى شبعوا، ولم تنقص منها لقمة واحدة.

مثل هذه القصص الشعبية يجب ان يكون لها نهاية. فهي تجيب عن سؤال بسيط لأي فرد يسمع مثل هذه القصص: مثلاً ما الذي حدث للمائدة الإلهية؟ لقد حملت إلى السماء بعد ان حاول الحسين ومن دون قصد ان يعطي من هذا الطعام السماوي إلى الغرباء. ففي يوم رأت امرأة يهودية الحسين يلعب في الطريق وفي يده قطعة من الطعام السماوي وبتعجب "يا أهل الجوع ! من أين لكم هذا ؟ أطعمنيها" فمد الحسين يده لها ليعطيها القطعة المقدسة نزل الملاك وانتزع الطعام من يده واخذ معه الصحفة عائداً

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٧.

إلى السماء. فقال الرسول" لولا ما أراد الحسين من إطعام الجارية تلك القطعة لتركت الصحفة في أهل بيتي يأكلون منها إلى يوم القيامة، لا تنقص لقمة"[١].

اما الأشعار التي تحقق محتوى هذه القصة "كانوا يعطون الطعام حباً بالله، للفقير واليتيم والأسير، ولن نسألك عوضاً عنها ولا حتى ان تشكرنا على ذلك"[٢] ان مفسر هذه القصص يعلق على ذلك بقوله: والله انهم لم يكونوا ينوون ان يقولوا شيئاً من ذلك إلى الرجال الثلاثة وانما كانت النية على ذلك في قلبهم[٣].

لم يكن عدم وجود الإحسان هو الذي ادى إلى اختفاء الطعام في الأخير، وانما الطعام نفسه إذ كان مادة خارقة للطبيعة ولا يمكن ان يؤكل الا من قِبل أولئك الذين كان مقدراً لهم ذلك. ان القصة، ومع هذا، كان يجب ان تذكر سبب اختفائه وان تجيب عن سؤال بسيط. وما يجب ان نضيفه ان هذه القصة هي إحدى القصص القديمة للشيخ الصادق الذي روى هذه القصة على شهادة الأئمة في إحدى مجالس التعزية التي أقيمت في شهر صفر ٣٦٨/ ٩٧٨[٤].

---

(١) هذا التقليد موجود في العديد من المصادر. للإشارة اليها انظر ابن شهرآشوب المجلد الثالث، ص١٤٧ - ١٤٩. و فخر الدين النجفي (المعروف أيضا بالفخري)، المنتخب في جمع المراثي والخطب، (النجف: المطبعة الحيدرية، بدون تاريخ)، ص ١٣٧، (انه يعتمد على ابن شهرآشوب)، نسابوري، ص١٦٠.

(٢) القرآن ٨: ٧٦؛ اربيري: المجلد الثاني، ٣١٥؛ انظر ايضا ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ١٤٧ - ١٤٩؛ وكذلك ابن بابويه، أمالي، ص ١٥٢ - ١٥٧.

(٣) انظر ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص١٤٩.

(٤) معنى اسم الشيخ الصدوق الموصوف بابن بابويه هو صادق الأقوال، وهو من المحدثين الشيعية الأوائل الجديرين بالثقة.

يتمتع أولياء الله بقرب كبير له. فالله يطعمهم ويلبسهم، ويستشيط غضباً لمعاناتهم على ايدي الناس ويتباهى مزهواً بهم أمام ملائكته. ان الصبيين في بيت الأحزان كانا غالباً ما يلعبان مع جبرائيل مبعوث الله إلى البشر وكثيراً ما كان يتمازح مع الأطفال الصغار. وفي مثل تلك الأوقات كان الملاك جبرائيل يأخذ شكل شخص اسمه "دحيّة الكلبي" أكثر الرجال وسامةً في زمانه. ففي إحدى الأيام وبينما كان الصبيين يتقافزان من حول الملاك مد يده بعيداً كأنه يحاول الوصول إلى شيء ما وأعطاهم تفاحة، ورمانة[1] وسفرجلة. وقال لهم الرسول ان يأخذوا هذه الفواكه وان يتشاركوا بها مع والديهم. ومن ثم شاركهم واكل الجميع من هذه الفواكه ولكن كلما كانوا يأكلون كان يعاد بشكل عجائبي. وهكذا بقيت فاكهة الجنة الثلاث حتى بعد وفاة الرسول ولم تنفذ او تتغير حتى وفاة فاطمة. فعند وفاتها اختفت الرمانة وحسب شهادة الحسين انه وبعد استشهاد والده اختفى السفرجل أيضا إلا ان التفاحة بقيت على حالها. وعندما سمم الحسن بقيت التفاحة فقط لأنها كانت في حوزة الحسين الا ان التقليد يتضمن ان التفاحة فقدت القدرة على مضاعفة نفسها. وكان الحسين غالباً ما يشمها كلما واجهته المصاعب وكان يجد فيها السلوان والراحة. وعندما منع من الوصول إلى مياه الفرات في كربلاء شمها بحثاً عن الراحة ولاطفاء عطشه. وقبل ساعة من مماته رآه ابنه علي زين العابدين يأكلها يائساً اشارةً إلى دنو اجله. ومع هذا فقد اكد ان رائحتها الطيبة كانت تنبعث من قبر والده وان الاتباع المخلصين فقط للعائلة المقدسة كانوا يشمون تلك الرائحة قبل حلول الفجر[2].

(١) إن الرّمان قد ذكر في القرآن على انه من فواكه الجنة، القرآن، ٦٨:٥٥.

(٢) ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ١٦١؛ نسابوري، ص١٦٠.

ان الفاكهة هي طعام الجنة والعلامة على الحظوة او المرتبة الإلهية او البركة. ففي احد التقاليد ضمناً ان الملاك اعطى العائلة المقدسة فاكهة الجنة الحقيقية ممكناً اياهم من ان يشاركوا في بركات الأرض المقدسة وذلك حتى في الحياة الحاضرة، البركات التي ستصبح في نهاية الأمر لهم ليتمتعوا بها ومن ثم ليمنحوها إلى اتباعهم المخلصين. ان البركة والحظوة التي وجدوها في الله تفيض إلى ابعد من الناس المخلصين معلنةً إلى العالم القوة العجائبية للعائلة المقدسة. وكما نرى هنا فان رائحة التفاحة بقيت كذكرى لمعاناة الرجل التقي واستشهاد الإمام الحسين. يجب ان تعدّ هذه التفاصيل مهمة لهدف هذا التقليد. تخدم هذه التقاليد وغيرها بالنسبة للتقاة المخلصين أساسا للقداسة الخاصة لهذه الفواكه. وبشكل خاص لهذه الفواكه الثلاثة التي ذكرت آنفاً. ولا زلنا نذكر هذه الفواكه التي توزع في الفصل المناسب على الحضور في شهر محرم وفي خدمات الذكر.

ولم يكن للفواكه دور في البركات التي منحها الله من خلال العائلة المقدسة بل الأشجار أيضا إذ تستعمل رمز بطريقة أو بأخرى إلى معاناتهم[1]. فكل تقليد من هذه التقاليد المشار إليها هنا تخدم عدة أغراض وبشكل بارز فان كل قصة تخدم اعجوبة او معجزة او اشارة تصور إحدى مصائب العائلة المقدسة.

فبالإضافة إلى قتل الحماسة الدينية للأتقياء الا ان القصص التي نتعامل معها تهدف غرضاً اخر. ان الخدمات الخاصة من الطعام السماوي لاطعام آل البيت والطريقة التي احب ورعى بها الله سكان هذا البيت يتناقض تماماً

---

(١) انظر إلى الملحق أ، القسم الثاني والفصل ج، تجد التعبير الواضح للفكرة بان الزهرة الأولى قد أثمرت وبشكل وفير ولكنها بدأت تتلاشى تدريجيا ماتت مع موت الامام الحسين.

مع المعاملة القاسية التي تلقاها آل البيت على ايدي الرجال الاشرار. تظهر هذه الخدمة الخاصة والحب اللانهائي لآل بيت محمد بشكل جلي ودرامي إلى العامة من اتباعهم في أثناء المصاعب والأحزان. لقد خلق الله كل شيء من اجلهم الا انه اختار ان يكونوا جاهلين عن هذا الأمر في عالم كان منشأه وقوامه معتمداً عليهم.

لقد كان قدر وامتياز للعائلة المقدسة ان تكون فقيرة وجائعة، مظلومة واخيراً شهيدة. الا ان الله وملائكته كانوا يواسونهم ويظهرون مكانتهم عند الله للناس بما في ذلك مضطهديهم. فنحن نعلم من عدة مصادر كما سنرى في الفصل الثالث من هذه الدراسة ان الملائكة قد فرحت عندما ولد الحسين وانها كانت تبكي عندما كان يبكي كطفل صغير.

في يوم عندما كان الحسن والحسين أطفالا، اشتكيا إلى أمهما من ان كل زملائهم كانوا يلبسون الثياب الجديدة في العيد الا هما. ولم تكن فاطمة ترغب في تخييب ظنهما فأخبرتهما ان الملابس لا زالت عند الخياط وعندما يحضر الثياب سيكون لهما ملابس جديدة في العيد أيضا. وفي ليلة العيد ذكر الولدين أمهما مرة أخرى من أن العيد قد أتى وان الملابس لم تكتمل بعد ثم ذهب الطفلان للنوم خائبي الأمل وفي الليل دق الباب رجل قال انه الخياط جالباً ملابس العيد للطفلين. في اليوم التالي اخبر الرسول ابنته أن الرجل الذي أتى في الليل لم يكن خياطاً بل "رضوان" احد الملائكة حارس كنوز الجنة[١].

وفي نص آخر ذهب الأولاد إلى الرسول يشتكون من عدم حصولهم على ملابس العيد فنزلت الروح الطاهرة الملاك جبرائيل حاملاً لباسين من الجنة

---

(١) ابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص١٥٥.

لهما. إلا ان الصبيين كانا يفضلان الألوان الزاهية فرش الملاك جبرائيل الماء على الملابس في حين فرك الرسول الثياب بيديه ليحولها إلى ثياب زاهية الألوان. قام كل طفل باختيار اللون الذي يريده فاختار الحسن اللون الأخضر والحسين الأحمر. عند ذاك اخبر الملاك محمداً بمعنى اختيارهم. فلقد اختار الحسن اللون الأخضر لون جسده الذي سيصبح عليه بعد ان يشرب السم الذي سيقتله. اما الحسين فلقد اختار اللون الأحمر لون الدم الذي سيسبح به جسمه في واقعة كربلاء. حزن الرسول عندما علم تفاصيل مأساة هذه العائلة ولاسيما تلك في كربلاء[١].

إن هذه القصص التي تم عرضها وغيرها تقدم في شهر محرم مجالس التعزية لإثارة عواطف المشاركين. كما يجب التأكيد إن أولئك الحاضرين في مثل هذه المجالس ليسوا مشاهدين او مستمعين فقط بل مشاركين فعالين في هذه الدراما المقدسة. إن ميزة خدمات الذكر هذه ليست مهمة بسبب التفاصيل الأسطورية او الخيالية التي تملأ هذه القصص إلا أن هذه التفاصيل تؤلف حقيقة واقعية موجودة دائماً في حياة المتقين حقيقة تنشأ لتصبح أكثر واقعية مع كل جيل متعاقب. يبقى التأثير الدرامي لهذه القصص طوال الوقت من خلال عنصر التواتر ومن خلال المقارنة. وفي كل من هذه القصص نرى أن الحرمان غالباً ما يقارن مع الغنى، الفقر مع الثروات، الضعف والضعة مع الانتقام والعداء. ومع هذا ومن خلال حالة الحزن والألم الطاغي فان المكافأة، الانتقام والسخط غالباً ما تعد كوعد لما يشعر به المؤمنون من شوق بالغ يعبر عنه بالدموع والصرخات. ان الأحزان والوعد يتداخلان من قبل المشاركين ليصبحا لهم.

(١) انظر المجلسي ٤٤، ص ٢٤٥، وكذلك طريحي، ص١٢٤.

٤-١ معاناة وموت فاطمة الزهراء سيدة بيت الأحزان

تعد فاطمة الزهراء وحسب المذهب الشيعي واحدة من أكثر الشخصيات المأساوية في تاريخ الإنسانية والتي عاشت معظم حياتها القصيرة في بيت الأحزان فأصبحت سيدة كل الأزمان وحتى يوم القيامة. ولدت فاطمة من أم توفيت بعد فترة قصيرة من ولادتها. توفيت فاطمة شهيدة ولا زالت تسكن في بيت الأحزان في الجنة تندب موت ابنها المذبوح إذ تشاركها الملائكة أحزانها. لذا فإنها ستستمر في ذلك الحال حتى يوم الحساب إذ سيقتص الله لها من أولئك الذين ظلموها.

لقد رأينا الشرح المثير الذي ينسب إلى النبي عن المصيبة التي ستحل بها بعد موته. ويؤكد المذهب الشيعي إن علي كان مشغولاً في الجدال حول سؤال وراثة الخلافة. إذ كان علي هو الوريث الشرعي للرسول كما أعلن في غدير خُم بفترة قصير قبل وفاة الرسول. وعندما رفض علي الخروج من البيت واعلان البيعة إلى ابي بكر احرق عمر والغوغاء باب داره مهددين بحرق الدار على رأسه ورأس عائلته اذا اصر على معارضته. ثم اتت فاطمة إلى الباب بشعر أشعث ووجه مكشوف باكية لائمة أولئك الذين كانوا أصحاب والدها لقد كانت مغلوبة وحل بها الخزي فاضطر علي إلى إعلان البيعة بالإكراه. وبعدما أصبح ابو بكر الخليفة ذهبت اليه فاطمة لتطالب بميراث والدها وهو بستان فدك خارج المدينة المنورة. الا ان ابا بكر اعترض على ذلك قائلاً انه سمع رسول الله يقول "نحن معاشر الأنبياء نرثُ ولا نورث"[١] الا انها استطاعت إقناعه بحقها في بستان الفدك الا انها

(١) قول النبي هذا أعطى من قبل ابي بكر الصديق كاثبات لفاطمة حول ادعائها بشان موضوع الفَدك. للتفسير اللاهوتي لهذا الحدث انظر نصير الدين الطوسي، تجريد

قابلت عمراً وهي في طريقها إلى الخارج الذي مزق العقد الذي كتبه لها ابو بكر[١]. لذا فان ابنة محمد بدأت تعاني من الظلم الذي تنبأ به والدها وعادت إلى بيتها مقهورة. "هذا ابن أبي قحافة يبتزني نحلة أبي وبلغة ابني! لقد أجهد في خصامي، وألفيته ألد في كلامي حتى حبستني قيلة نصرها، والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع، خرجت كاظمة، وعدت راغمة، أضرعت خدك يوم أضعت حدك، افترست الذئاب، وافترشت التراب، ما كففت قائلاً، ولا أغنيت طائلاً ولا خيار لي، ليتني مت قبل هنيئتي، ودون ذلتي، عذيري الله منه عادياً، ومنك حامياً، ويلاي في كل شارق! ويلاي في كل غارب! مات العمد، ووهن العضد، شكواي إلى أبي! وعدواي إلى ربي! اللهم إنك أشد منهم قوة وحولا، وأشد بأسا وتنكيلاً"[٢].

وتشير القصص إلى أن فاطمة كانت امرأة ضعيفة وكانت دائماً ما تنام عندما كانت تخرط المطحنة اليدوية لصنع الخبز لعائلتها وفي مثل هذه الحالات كانت الملائكة تسرع لتعاونها. وفي احد الأيام جاء الرسول إلى بيتها ورآها تطحن الشعير ملفعة بثوب منسوج من شعر الجمل القاسي. فنظر اليها وبكى قائلاً ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

الاعتقاد، (مشهد: مطبعة جعفري، بدون تاريخ)، نشر مع تعليق بوساطة جمال الدين علي منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي تحت عنوان: كاشف المراد في شرح تجريد في الاعتقاد، ص٢٣٧.

(١) انظر إلى المقالات حول فدك في الموسوعة الإسلامية (الطبعة الثانية)، ص ٧٢٥ - ٧٢٩، وفاطمة في نفس الموسوعة، ص ٨٤٢ - ٨٥٠.

(٢) ابن شهرآشوب، المجلد الثالث ص ٥٠ -٥١.

(٣) القرآن ٥ : ٩٣؛ اربيري، المجلد الثاني ص٣٤٢.

وفي احد الأيام أرادت ان يكون لها خاتماً وأخبرت والدها عن هذه الرغبة. فنصحها بان تصلي مرة أخرى بعد صلاة العشاء وان الله سيلبي لها طلبها. وعندما استيقظت في اليوم التالي وجدت خاتماً جميلاً من الياقوت تحت مخدتها. وفي الليلة التالية حلمت أنها كانت في الجنة ورأت عدة أماكن مزينة بأحجار كريمة. واخبروها ان كل هذه الأماكن ملك لابنة محمد. وفي احد هذه ألاماكن رأت سريراً مصنوعاً من الياقوت وبنفس لون خاتمها. الا أن السرير مع هذا كان يفتقد إلى احد أرجله وعندما استعلمت عن السبب قيل لها ان ابنة محمد كانت ترغب بخاتم لذا فقد صنع لها من احد أرجل هذا السرير. وفي اليوم التالي قصت فاطمة الحلم على والدها الذي قال لها "يا ابنتي ان الله قد اختار لنا الآخرة على هذه الدنيا فأرجعي خاتمك وضعيه تحت الوسادة إذ سيعود إلى مكانه" فندمت فاطمة على إظهارها تلك الرغبة في الحصول على بأشياء في هذا لعالم وهكذا اخذ منها الخاتم[١].

ان هذه القصة تفسر نفسها بنفسها فكل ما يرغب المرء في الحصول عليه في هذه الدنيا سيحرم منه في الحياة الأخرى. الا ان هذه القصة توضح شيءاً آخر ان ابنة محمد الفقيرة والمحرومة في هذه الدنيا ستكون غنية في الحياة الأخرى فحتى لو اظهرت رغبتها لاشياء مادية في هذه الدنيا فان ثرواتها في الجنة عظيمة جداً ولن تفقد ولو جزءاً منها.

عاشت فاطمة لمدة قصيرة بعد وفاة والدها تبعاً لمصادر عديدة، ستة أشهر، خمسة وسبعون يوماً او أربعون يوماً فقط[٢]. فلقد قضت حياتها

---

(١) ابن شهرآشوب، المجلد الثالث ص١١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣٣، وكذلك انظر الخوارزمي المجلد الأول، ص٨٥، والطبري، دلائل، ص ١١ - ٤٣.

تنوح على موت والدها حتى أن الناس في المدينة اشتكوا لزوجها علي من ان بكائها المستمر يسبب لهم الإزعاج. وبدلاً من ذلك بدأت تذهب إلى المقابر لتبكي هناك.

وتبعاً لعدة مصادر فان فاطمة توفيت بعد ان مرضت بفترة قصيرة. الا ان بعض القصص تشير إلى ان فاطمة لم تمرض. فعندما علمت ان اجلها قد حان ولم تكن ترغب ان يشهد ولديها موتها أخذتهما إلى الجامع ليبقيا مدة مع والدهما. ومن ثم عادت إلى البيت فاغتسلت ببقايا زيوت دفن الرسول وكفنت نفسها واستلقت على الأرض موجهة نفسها نحو القبلة. فأخبرت أسماء بنت عميس مربيتها ان تناديها ثلاث مرات بعد ساعة وان لم تجب فان هذا يعني انها قد رحلت إلى والدها. فعادت أسماء ونادتها فلم تجب فاطمة فذهبت أسماء إلى الجامع إذ أخبرت علياً الذي اغشي عليه عندما سمع الخبر. وكانت قد طلبت ان لا يبكيها غير زوجها وان تدفن سراً في الليل. وفي الجامع صلى علي "يا الهي انظر إلى ابنة رسولك خذها إلى النور بعيداً عن الظلمة"(١) وفي الحال ظهر نور مشرق في نفس البقعة ولعدة أميال من "البقيع" مقبرة المدينة" إذ تقدم علي وابو ذر حاملين الجثة إذ نادى صوت "اليّ، اليّ اجلبوها اليّ"(٢) ومن ثم وجدا قبراً مفتوحاً وضعاها فيه حتى أستوت الأرض فوقه كي لا يعلم احد ولن يعلم بمكان قبرها حتى يوم القيامة.

إلا أن القصص الشعبي يؤكد ان فاطمة توفيت بعد مرض شديد لإقامة الدليل على قهرها والاجهاض المتكرر ومن ثم مرضها وموتها؟ كما تكلم الرسول على مريم ام المسيح التي ستأتي لطمأنتها والعناية بها في مرضها.

---

(١) طريحي، ص ١١٧. وايضا الخوارزمي، المجلد الاول، ص ٨٦.

(٢) الخوارزمي، المجلد الأول، ص٨٦.

كما كان ضرورياً أيضا تأكيد الجوانب العجائبية لموتها لإظهار مكانتها عند الله. وهذا ما يمكن إظهاره فقط في رغبتها طوعياً في الالتحاق بوالدها والتي أصبحت حياتها بعد مماته مليئة بالآلام والعذاب، بل أيضا اختيارها للحالة والوقت الذي ستموت فيه، لذا قيل انها ماتت ساجدةً في أثناء الصلاة[١]. وفي كلتا الحالتين فان الأثر الدرامي المتصاعد للتراجيديا يسمح للناس ان يتدخلوا في هذه الحادثة وان يشاركوا فيها. ان المتناقضات الواضحة التي تتسم بها القصص المتعددة لموت فاطمة ذات أهمية طفيفة للمؤمنين مادام الغرض من حياتها واضحاً بما فيه الكفاية.

كما سنرى في هذه الدراسة ان اتباع الأئمة (الشيعة) ومن خلال مشاركتهم في معاناة العائلة المقدسة يتحدون مع المعانين. فهم يعرفون من خلال الأئمة ومعاً يشكلون مجتمع النخبة. كما يعبر عن هذه الوحدة وبشكل واضح الإمام السادس جعفر الصادق : "... وخلق الله أرواح شيعتنا من طينتنا و أبدانهم من طينة مخزونة مكنونة أسفل من ذلك الطينة ولم يجعل الله لاحد في مثل الذي خلقهم منه نصيبا إلا للانبياء، ولذلك صرنا نحن وهم: الناس، وصار سائر الناس همج، للنار وإلى النار"[٢].

ان موقف التفوق هذا على الظالمين قد ميز العديد من المجتمعات المضطهدة. وليس من الصعب إيجاد الأمثلة خلال عصور مختلفة من تاريخ اليهود وبداية عصر الكنيسة الأولى. ان المسلمين الشيعة غالباً ما تبنوا هذا الموقف من الرفعة وبدرجات مختلفة ولا يعد هذا ظاهرة غير طبيعية.

سيشارك أتباع الأئمة في المكافأة التي ستمنح إلى أعضاء بيت الأحزان

(١) المصدر نفسه، ص ٨٥.

(٢) الكليني، الكافي، المجلد الأول، ص٢٣٣.

في الحياة القادمة. وكما ظلم الأئمة فان أتباعهم قد تحملوا وبصبر المصاعب، المعاناة، والحرمان بسبب إخلاصهم لبيت محمد. ان المجتمع الشيعي في إحيائه ذكرى استشهاد الإمام وعائلته وأصدقائه فانه بذلك يجدد العهد والميثاق الذي تتميز به الأمانة[1] الأساس التي منحها الله لكل الخليقة والتي قبل بها الإنسان فقط. ان هذه الامانة، وكما سنرى لاحقاً، يراها المجتمع الشيعي كإمامة الأئمة ألاثنى عشر ولهذا السبب لكي نفهم تماماً دور الحسين في دراما المعاناة والخلاص يجب ان نمنح بعض التركيز إلى محتوى ودور الأئمة في (الاثني عشر شيعي). ان النقاش الآتي للإمامة سيوضح الكثير مما قيل سابقاً ووضع حياة الإمام الحسين وشهادته في السياق المناسب.

(١) القرآن٧٢: ٣٣، وانظر الفصل الثاني، ص ٥٨.

الفصل الثاني

أدلة الله (حجة الله)[1]

(١) "الحجة" هي مفردة لكلمة "حُجج"، وممكن ان تعني دليلا أو برهانا أو زعما، أما بالنسبة للشيعة الامامية فأنها تعني "يوم الحساب" وبرهانا أوحجة الله ضد الذين رفضوا ارادته ووحيه كما جسده وعبر عنه الأئمة. وهكذا فان إعطاء البراهين باللغة الانكليزية لكلمة "حجج" فإنها في أحسن الأحوال تعطي معنى ضعيف للكلمة.

حاولنا في الفصل السابق من هذه الدراسة ان نصور عائلة النبي محمد في دورها كعضو في بيت الأحزان ودورها في الحظوة الكبير كونها من أصحاب الله (الأولياء) ونخبته. فالأئمة كالأنبياء وغيرهم من الشخصيات العظيمة في التاريخ الديني يعدّون من المجتمع الشيعي في نفس الوقت كجماعة مذلولة، قوية وفقيرة ولكن غنية إلى ابعد الحدود، مظلومة، حزينة ولكنها تملك الحظوة والبركة. وعلى الرغم من انهم وفي نهاية الأمر استشهدوا جميعاً الا ان الأئمة ومن خلال معاناتهم واستشهادهم سيظلون يظهرون مجدهم وسطوتهم ومرجعيتهم حتى اليوم الأخير. فلقد وقفت معاناتهم امام البشرية باختيار البركة الازلية او اللعنة. ان الأئمة الذين هم أولياء الله وهم أيضا خلفائه في الوقت نفسه، ممثليه ونوابه على الأرض وحراس وحيه. ان هذا الجانب من مفهوم ودور الأئمة هو الذي سنحاول استكشافه في هذا الفصل.

في البداية سنبحث في خلق الأئمة، طريقة خلقهم والمادة التي خلقوا منها ومن ثم سنبحث في العلاقة بينهم وبين الله من جهة، وبين العالم ومكانتهم في التاريخ الإلهي او الايحائي او اتصال الله مع بين البشرمن جهة أخرى. فالاسئلة التي تشغل بالنا هنا، اولاً مكانة الأئمة في العقد السماوي مع الإنسان. او ما يمكن ان نطلق عليه آلامانة التي منحها الله إلى كل الخليقة قبل ان يصنع العالم؛ وثانياً العلاقة بين الأئمة والوحي الفعلي

ولاسيما القرآن وكذلك العلاقة بينهم وبين الأنبياء ولاسيما النبي محمد (كلا الغرضين كمنحدرين من سلالته وورثة لمهمته النبوية ومعرفته السرية)؛ وأخيرا الشخصية الحقيقية للإمام وعلامات إمامته وخصائصه الجسدية والروحية. وكما في كل الفصول من هذه الدراسة فإننا نركز على المذهب الشيعي كما في المصادر التي بحثنا فيها.

ان غرض هذا الفصل هو توفير خلفية مناسبة لبحث حياة، وموت الإمام الحسين. وانه من الضروري ان نؤكد على نقطة سبق وان تم التركيز عليها الا وهي ان الحسين كان يعدّ ومنذ البداية من قبل المجتمع الإسلامي على انه أكثر من مجرد رجل تقي وفاضل. فلقد كان حفيد الرسول محمد وهذا ما أعطاه مكانة خاصة في المجتمع وساهم في نشوء الافكار والممارسات المكرسة له والتي اوحي بها موته. ومع هذا، فان الدلالة الكونية لموته، الفكرة التي تطورت بسرعة بعد استشهاده، كانت امتداداً لمكانته كأمام. لقد عدّ المجتمع الشيعي معاناة واستشهاد الحسين جزءاً من دوره كإمام وكذلك مصدراً للحكم والإدانة لمعارضيهم. ولم تخل الأفكار الشيعية من ولادته العجائبية، حياته الغنية وموته العجائبي من مثل هذه الخلفية. في هذا الفصل سنعد الطريق لاعتبار الحسين اماماً من خلال البحث في مفهوم الإمامة نفسها في المفهوم الإسلامي.

٢-١ خلق الأئمة والمادة التي صنعوا منها

يمكن اعتبار الأئمة بالنسبة للشيعة فكرة جوهرية في ذهن الله وجدت ظهوراً زمنيا مؤقتاً في اشخاص ليحتلوا مكانة ما بين الإنسان والكائنات السماوية. انهم بشر مخلوقين بمعنى انهم لا يشتركون مع الله في وجوده السابق الأزلي او منذ البدء. ومثل جميع البشر فانهم يخضعون للموت والبعث. مع ذلك فانهم في البداية تكونوا في فكر الله كمبدأ للنظام،

والتناغم والتوافق والطيبة في العالم ومن ثم جسدوا ككينونة مضيئة سرية انتقلت إلى اصلاب الأنبياء وارحام النساء الصالحات حتى وصلت إلى الرسول محمد. ومن ثم ولدوا كرجال من خلال "امير المؤمنين" الإمام الأول "علي" وزوجه "فاطمة" ابنة محمد.

يتم ادراك العناية الإلهية من خلال الكثير من التقاليد التي تحكي طريقة خلقهم ووجودهم الأساس. فالأئمة يختلفون عن باقي البشر في انهم لم يخلقا من تراب الأرض بل خلقوا اولاً أشكالاً مضيئة تمجد عظمة الله بحقبة طويلة قبل خلق العالم المادي. وفي قصة طويلة يخاطب فيها الرسول ابنته قائلاً "يا ابنتي ان الله جلت قدرته، القي نظرة على سكان الأرض واختار والدك وجعل منه نبياً. والقى نظرة أخرى واختار زوجك علي وجعل منه اخاً وخليفةً لي (وصي.) والقى نظرة ثالثة واختارك انت وامك جاعلاً منكما سيدتا نساء العالم. والقى نظرة رابعة واختار ابنيك جاعلاً منهما سيدين على شباب الجنة..."[١].

وكما يخبرنا القرآن ان كل الاشياء خلقت من الكلمة الإلهية أي الأمر الإلهي[٢]. الا انه تم اختيار الأئمة من خلال قوة العين الإلهية. وهنا لا تظهر قدرة الله الكلية في خلق الأئمة بل ومحبته وعاطفته. لانه وعند خلق الأئمة ادار الله راسه نحو العالم وكونت نظرته العائلة المقدسة التي تعدّ المنبع الحقيقي للرحمة الإلهية. لذا يعدّ الأئمة في الفكر اللاهوتي الشيعي قاعدة الإيمان كرمز للرحمة الإلهية[٣] وان الأرض لا يمكن ان تستمر بدون أي

---

(١) الخوارزمي، المجلد الأول، ص. ٦٧. نفس الحديث يذهب إلى القول بان الحسن والحسين سوف يزينا عرش الله في يوم القيامة.

(٢) القرآن ٢، ١١٧.

(٣) الطوسي، تجريد، ص ٢٥٥.

امام في أي زمن الازمان[1].

اوضح الإمام الساس جعفر الصادق في احد اجوبته إلى احد تلامذته انه لوكانت الأرض قد خلت من امام واحد لكانت قد تلاشت مع كل سكانها[2]. فان الإمام، وكما سنرى لاحقاً، هو الإنسان الكامل الذي يعد وجوده مهماً لديمومة الحياة. وفي الحقيقة فان الإمام اكتسب الكثير من الاهمية الدينية في التقليد الشيعي عن الإنسان الكامل في الصوفية اللاحقة[3].

ان الكثير من القصص تتحدث عن الخلق الحقيقي للائمة على الرغم من احتوائها على الكثير من التناقضات والاختلافات في التفاصيل الا انها جميعاً تخدم الغرض نفسه لاظهار المقام العالي للائمة وقربهم من الله. فقد قيل ان الإمام السادس قد قال لاحد تلامذته ابو بصير عن طريقة خلق الرسول والأئمة في الحديث القدسي والتي تفوه بها الله إلى محمد مباشرةً "يا محمد إني خلقتك وعليا نورا (يعني روحا) قبل أن أخلق سماواتي وأرضي وعرشي. ثم جمعت روحيكما وجعلتهما واحدة. ثم قسمتها اثنتين وقسمت اثنتين اثنتين فصارت أربعة : محمد واحد. وعلي واحد. والحسن والحسين اثنتان".

---

(١) انظر الكليني، كافي، كتاب الحجة، في الباب المعنون بان الأئمة هم اركان الأرض، ص ٢٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٨.

(٣) تُعزى الكثير من الاحاديث التي تظهر في معظم المصادر الرئيسة مع اختلاف بسيط إلى آلامامين السادس والثامن، وهي خير شاهد على هذا التطور الهام جدا والمثير الاهتمام. الكليني هو أول المحدثين الشيعة والذي توفي في ٣٢٩ هـ/ ٩٣٩ ميلادية. هذا مايجعلة معاصرا لأربعة من الأئمة الأثني عشر.

واستمر الإمام في قوله "ثم خلق الله فاطمة من نور ابتدأها روحا بلا بدن. ثم مسحنا بيمينه فأفضى نوره فينا"[1]. ومن محتوى هذه القصة يظهر لنا ومن خلال الفعل الأخير من اظهار النور الإلهي في الأئمة إلى وجودهم الأرضي.

وكما لاحظنا في الفصل السابق من هذه الدراسة[2] ان الأئمة قد تم خلقهم قبل كل الاشياء وانهم اعظم من الخليقة كلها. ان هذا التقليد الذي مر ذكره يتقدم خطوة ابعد ويوحي ان الأئمة سبقوا حتى الظهور الإلهي نفسه. فهم يعودون إلى زمان ما قبل الزمان إلى الزمان الذي كان الله نفسه فيه في "غموض الذات التامة"[3]. فقبل ان يخلق الله العرش كان محل جلالته يشمل الكون كله[4]. يعدّ الأئمة مع بقية الخلائق العظيمة، اشياء منظورة مثل السماء، الأرض والمحيط العظيم و الاشياء المنظورة الأخرى مثل عرش الله، ملائكته واللوح والقلم الذي يكتب القدر. يعدّ الأئمة اعظم من كل اعاجيب الخليقة التي خلقت من اجلهم والتي يعتمد دوامها على وجودهم.

انه من الصعب وليس مسوغاً من قبل الطبيعة غير المنظمة للمادة التي هي قيد الدراسة. فالواحد فد يستطيع القول انهم خلقوا من جوهر النور

---

(١) عاملي، جواهر، ص ٢١٢.

(٢) انظر الفصل الأول، ص ٢٩.

(٣) في إحدى المرات سأل احد الأشخاص النبي حول أين كان الله قبل ان يخلق الخلق؟ فاجابة بأنه كان في غياهب الظلمة. هذا الحديث يظهر لاحقا في الأدب الصوفي وربما يظهر الأفكار القرآنية (الموسوعة الإسلامية القصيرة ل. جيب. ه. كراميرس، "خلق" ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٤) القرآن ٢٥٥:٢.

الإلهي قبل كل الخليقة وبدأوا يأخذون اشكالاً مع بقية الخليقة. وعندما استمر الخلق هم أيضا تحولوا من اشكال شديدة الرقة إلى اشكال صلبة أكثر او مادية. وحتى اجسادهم الإنسانية فلقد خلقت من مادة موجودة اصلاً منذ زمان ابعد بكثير من ولادتهم على الأرض. وكما يفسر الإمام جعفر الصادق هذا التحول المادي بقوله :

"خلقنا الله من نوره وشكلنا من طين محروس جيداً تحت عرشه ومن ثم جعل النور يسكن فيه (الطين) وهكذا أصبحنا بشراً نورانيين ولم يشرك الله هذه المادة التي خلقنا منها احد اخر"[1].

٢-٢ مكانة الأئمة في التاريخ الإنساني وعلاقتهم بالوحي الإلهي.

ان الأئمة هم ورثة الأنبياء ولهم حظوة كبيرة عند الله. فهم المعنى الخفي لكلمة الالهام و يمثلون التجسيد المادي لها. ولقد رأينا سابقاً كيف ان كلمات القرآن تشير اولاً لهم وثانياً إلى غيرهم[2]. ويذهب الإمام السادس خطوة ابعد من ذلك في هذا التعريف التفسيري لآية النور[3] فقد سأله احد تلامذته عن معنى كلمة (نور) فاجابه الإمام كما يلي :

"ان الله هو نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة (فاطمة) في مصباح (الحسن) والمصباح في زجاجة مثل النجم اللامع (فاطمة مثل النجم المشع بين كل نساء الأرض) متقد من شجرة مباركة (ابراهيم)، زيتونة لا في الشرق ولا في الغرب (ليست من اليهود او المسيحيين) والتي سينبعث نورها (المعرفة التي ستنبثق منها) حتى ولم يلمسها النار، نور على

(١) كافي الكليني، المجلد الأول، ص٢٣٣.

(٢) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب.

(٣) القرآن ٣٥:٢٤.

نور (امام يسبق امام) والله يهدي إلى النور من يشاء (الله يهدي من خلال الأئمة من يشاء)"[١].

لا يعدّ الأئمة رموزاً للنور الإلهي او الاناء الذي تنير من خلاله[٢]. بل هم البراعم المتفتحة لشجرة الزيتون المباركة (إبراهيم) الذي جسد بنفسه الإيمان الحقيقي، الدين النقي (الحنيف) المتحرر من انحرافات الشرق والغرب. لذا فان الأئمة حافظوا في انفسهم الحق النقي للوحي الإلهي وابقوا تاريخه مستمراً. واخيرا، يعد الأئمة في القرآن أدوات للهداية الإلهية. فهم القرآن الناطق والرمز الحقيقي الحي في حين ان القرآن صامت وان فهم الدلائل والرموز الجوهرية الإلهية يعتمد عليهم.

يُعد الأئمة الميثاق الأساس بين الله والعالم و امانته التي منحها إلى السماء والأرض. قال الإمام السادس جعفر مرشداً (المفضل) احد تلامذته الرئيسين، عن معنى اية آلامانة في القرآن:

"ان الله جل اسمه خلق (ارواح) الناس الفي سنة قبل اجسامهم. فلقد خلق ارواح محمد، علي، فاطمة الحسن والحسين وبقية الأئمة اسمى وانبل من بقية الاشياء الأخرى. ومن ثم اظهر الله لهم (ارواح العائلة المقدسة) الجنة، الأرض والجبال التي انبهرت بنورهم. ثم قال إلى السماء، الأرض والجبال "هؤلاء هم احبابي واصدقائي (الأولياء) وحجتي على خلقي والأئمة على خلقي البشري... وان الذي يحبهم (الذي يقبل بسلطتهم)

---

(١) الكليني، المجلد الأول، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ الترجمة المستخدمة هنا هي لـ اربيري المجلد الثاني، ص ٥٠ -٥١.

(٢) تتميز فاطمة الزهراء وكانها المحراب، فهي تشارك الأئمة في مميزاتهم وربما قد أصبحت في الواقع واحدة منهم في الأهمية.

خلقت له الجنة اما الذين يعارضونهم ويظهر العداء لهم فلقد خلقت لهم النار"[1].

تعدّ آلامانة الإلهية او العناية الإلهية هي الأئمة نفسهم وولايتهم التي تعني هنا القرب من الله كأولياء تدل على سلطتهم أيضا على الناس. ويستمر الله في تهديده لاؤلئك الذين يحاولون اثبات تفوقهم على الأئمة بينما يقدم آلامان لاؤلئك الذين يقبلون بنفوذ الأئمة عليهم.

"فذلك الذي يعطي لنفسه مكانتهم معي وقربهم لي فانني ساعذبه عذاباً اليماً لم يصب احد من قبل وسأنزله إلى اسفل لسافلين في حفرة جهنم مع المشركين. اما الين يقبلون بسلطتهم (الولاية) فساجعلهم يدخلون مع الأئمة إلى جنات النعيم وسأهبهم كل ما يريدون (الكرامة) وسادعهم يسكنون قريباً مني. وان ولايتهم للائمة هي آلامانة التي وضعتها لخلقي. وان الذي يدعيها لنفسه بدلاً من اؤلئك المختارين لها، سيتحمل كل اوزارها[2]. ومن ثم علق الإمام ان السماء والأرض رفضت ان تحمل الوزر الثقيل لهذه آلامانة او ان تدعي المكانة العالية مع الله، اما الإنسان فقد قبل بها والإنسان هنا يعني الناس الذين يدعون حق سلطة الأئمة بشكل غير مشروع[3].

ان قبول هذه آلامانة الحقيقية الأساسة يعني قبول الأئمة وسطاء بين الله والإنسان والاعتراف ان سلطتهم تامة من الناحيتين الدينية والدنيوية. لذا

---

(١) أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى ابن بابويه القمي، المعروف بالشيخ الصدوق، كتاب معاني الأخبار، (طهران: المكتبة الإسلامية، ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩ م)، ص ١٠٨ -١٠٩. القرآن ٧٢: ٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

فقد منحت آلامانة إلى كل الخليقة ما عدا الإنسان الذي قبل بها بتواضع واذعان. الا ان الإنسان لم يقبل بهذه آلامانة بعدّها تعود شرعياً إلى المدعي الحق بها ولكنه ادعى بها لنفسه.ولهذا السبب يقول القرآن عن الإنسان الآثم والغبي.

ان آلامانة الإلهية إلى الناس انتقلت من نبي إلى آخر وكل نبي كان ينقلها إلى اناسه المختارين، وهكذا ستستمر حتى مجيء المهدي الذي سيعطى الصلاحية لمحاكمة الناس وآلامم وذلك حسب كفاءتهم او جدارتهم في تحمل هذه آلامانة إذ ستتجدد الأرض وسيبقى الميثاق ما بين الله والإنسان إلى الابد. إذ ان هذا التقليد موضع الدراسة يدفع الرموز القرآنية إلى ابعد حدودها. فان السماء والأرض لاتمنحان آلامانة رمزياً بل حذرت من تبعات رفض هذه آلامانة او الادعاء بها لنفسها. فهي تخاطب من قبل الله وتماماً كالبشر في تخاطب بالتحذير او البشير. وفي الحقيقة فان كل الخليقة يجب ان تشارك في تاريخ الخلاص والقضاء من خلال الاختيار الأساس لقبول او رفض الميثاق الإلهي مع الخليقة الذي هو السلطة التامة لله[١] وسلطة ممثليه في الخليقة الا وهم الأئمة.

هناك بعض التفسير الاسطوري الحاسم لدور الأئمة في الخطة الإلهية للقضاء والخلاص كما يقدمها الإمام السادس. يتضمن تفسيره لآدم وحواء ووسيلة الغفران لهما فلقد قيل لنا ان الله عندما خلق آدم وحواء وضعهما في جنة عدن وامرهما ان لا يأكلا من شجيرة الحنطة النظير الإسلامي لشجرة التفاح في التقليد الغربي. فرأو الأئمة بالقرب من عرش الله كأشكال من نور تتوهج تمجد وتسبح لله. فتعجبوا من ذلك وسألوا الله عن هؤلاء الاشخاص وقيل لهما ان ينظرا إلى قدم العرش إذ شاهدا اسمائهم منقوشة

---

(١) انظر القرآن ١٧٢ : ٧.

بنور الله العظيم. استمرا مندهشين "كم هي كبيرة مكانة هؤلاء الاشخاص عندك وكم تحبهم وكم يبدون نبلاء في نظرك"[(١)] فشرح الله عندئذ الأئمة ومكانتهم في الخليقة لآدم وحواء قائلاً: "ان لم يكن من اجلهم فما كنت لاخلقكما لان هؤلاء هم كنز معرفتي والمؤتمنين على سري العظيم فاحذرا ان لا تنظرا اليهم بقدر اقل مما يستحقونه حتى لا تثيرا بذلك استهجاني وتدخلان في عصياني وتصبحان من بين الخاطئين"[(٢)]. وتستمر القصة على هذا النحو التفسيري ففي الوقت الذي سأل فيه آدم وحواء الله ان يريا النار التي اعدت لهؤلاء الخاطئين، وبعد ان حُذرا من لا ينظرا بعين الحسد إلى تلك المخلوقات المنيرة، فان الشيطان وسوس في قلبيهما كلمات الحسد والعصيان ومن ثم اغويا ووقعا في الخطيئة. الا ان الله مع هذا اراد ان يصفح عنهما فأرسل الملاك جبرائيل الذي لامهما لانهما اشتهيا مكانة أولئك الذين كانوا احسن منهما واشار عليهما بالصلاة من اجل الغفران باسم الرسول محمد وسلالته الأئمة. وانهى الإمام السادس سرده بهذه الكلمات "وغفر عنهما الله لانه غفور رحيم"[(٣)].

ان الاذى الذي تم من خلال خطيئة آدم وزوجه حواء لم يكن بآلامكان اصلاحه تماماً. فقبل خطيئة آدم لم يكن هناك وجود الا للاشياء الخيرة. وكانت الشجرة المحرمة تحمل حبات الحنطة الطيبة. وعندما اكل آدم وزوجه من هذه الشجرة نما الشعير في مكان الحنطة وبقي كل شيء آخر لم تلمسه يديهما على حاله، حنطةً. يعلق الإمام الثامن على هذا التقليد قائلاً "ان مصدر كل حنطة هو ما لم يقوما بأكله ومصدر الشعير هو النبات الذي نما

(١) ابن بابويه، المعاني، ص ١٠٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٠. وكذلك القرآن ٢:٣٧.

في كل مكان اكلا فيه"[1].

قد نتذكر ان عاقبة خطيئة آدم كما يقول سفر التكوين في التوراة "ملعونة هي الأرض بسببك . . .الشوك والاعشاب تعطيك منها . ."[2]. لقد تعطل التناغم الطبيعي وفسد الجوهر الطيب للخليقة وكان على الإنسان ان يجاهد مع الأرض لان المواد التي سيحصل عليها منها لن تمنح بسهولة من تلقاء نفسها. ان التعبير القرآني للإنسان الذي وقع من الجنة يعني حرفياً السقوط إلى الاسفل من مكانة اعلى إلى مكانة اوطأ[3]. ومثل الطبيعة فان الإنسان لم يعد باستطاعته العودة إلى نقائه الاصلي وطمأنينته بل فقط كان يتمنى استرجاع مكانته في الجنة وعلى مستوى آخر من الوجود في الحياة القادمة حياة ما بعد الموت. ان خطيئة آدم حسب هذا التقليد قد سببتها خطيئة أخرى وهي الحسد والطمع. فبعدما اشتهى آدم وحواء ان يصبحا مثل الأئمة تمكن الشيطان من اغوائهما. ان تقليداً قدمه الإمام الثامن (الرضا) يقترب من تقديم محور مواز أكثر في ان آدم نظر بعين الحسد الى الأئمة وكذلك حواء الى فاطمة فاعطى الله سلطة للشيطان عليهم فأكلوا من ثم من الشجرة المحرمة[4].

ان خطيئة آدم وحواء هي شكل معتدل لخطيئة الإنسانية اللاحقة. فالزوجين الأولين ارتكبا خطيئة الحسد بتمنيها ان يكونا مثل الأئمة الا ان

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(٢) سفر التكوين ١٨:٣.

(٣) كلمة (هبط) تستعمل في القرآن "لأدم وحواء بمعنى اهبطا منها" (٣٨:٢) ومقارنة مع التعبير الوارد في سفر التكوين في الترجمة العربية "سقطة" والتي تعطي المعنى نفسه في السقوط في الفخ أو الحفرة.

(٤) ابن بابويه، المعاني، ص ١٢٤.

البشر ارتكبوا حتى خطيئة اعظم من ذلك بمطالبتهم بسلطة الأئمة لنفسهم. لذا فان هدف الآيات القرانية في لوم الإنسان وبكونه الغبي والآثم لاظهاره العداء للائمة ولاتباعهم.

ان آلامانة الإلهية كما تنظر من الناحية المجردة هي معرفة الله، ووحيه وامامة الأئمة الاثني عشر الذين هم الحراس الحقيقيون للوحي الإلهي ومالكي معرفة معناها الحقيقي. وبشكل فعلي فان آلامانة هي الأئمة انفسهم حتى بعد ظهورهم كلحم ودم في هذا العالم. فلقد جسدوا في حياتهم الفعلية الطريقة الحقة (السُنة) لكل الأنبياء؛ فبعد انقطاع الوحي كانوا هم وحدهم ينقلون المعرفة الإلهية إلى الإنسان. وكما اوضح الإمام الثامن في حديثه عن الأئمة "ان الله جعل منهم أمناء على الجنة والأرض" ويستمر في قوله "عُبد الله بصورة حقيقة من خلال عبادتنا له ومن دوننا لم يكن ليعبد الله ابداً"[١].

وفي تقليد منسوب إلى الإمام السادس، قد نجد اوضح عرض يلخص معظم الافكار حول الأئمة التي نركز عليها حتى الآن. لذا فانها تستحق العرض بشكل كامل. إذ يفترض للامام انه كان يخاطب احد تلامذته بما يلي:

"يا خيثمة، نحن شجرة النبوة وبيت الرحمة، نحن مفاتيح الحكمة، جوهر المعرفة ومكان الرسالات، مكان الملائكة والامناء على أسرار الله نحن وديعة الله لخدمه، مكانه المقدس (الحرم) نحن عهد الله مع الإنسان ومن يحفظ عهدنا حفظ عهد الله"[٢].

---

(١) كافي، كليني، المجلد الأول، ص٢٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٠.

لقد رأينا من خلال هذه الدراسة ان الأئمة اعظم و أرفع من الأنبياء الذين جاءوا قبل محمد. إذ انهم ومحمد (ابيهم) قد خلقوا من نفس النور الإلهي لذا فهم متساوون معه. وهم معه يؤلفون صفوة البشرية افضل الكائنات الأرضية والسماويةعلى حد سواء. لذا فعندما يربط القرآن الطاعة إلى الله وحب الله إلى طاعة وحب رسوله[١]. ان التقليد الشيعي يعادل رفض الأئمة مع الخطيئة التي لا تغتفر الا وهي خطيئة الشرك[٢].

وعلى الرغم منان الأئمة كما كان الرسل من قبلهم متلقين للوحي فهم ورثة كل الإيحاءات السابقة وبمختلف ألسنتها[٣]. ان وحياً مثل القرآن والإنجيل اوحي بهما ليرسل إلى الناس. فهم يملكان معنىً خفياً وجلياً واضحا في الوقت نفسه. والأئمة وحدهم من بين الناس يستطيعون معرفة المعنى الخفي للوحي لذا ففيهم وحدهم تكمن المحافظة على الوحي ومن ثم إيصاله إلى الآخرين. ومع هذا فانه ليس صحيحاً ان الأئمة لم يستلموا أي وحي. فهم كالأنبياء من قبلهم قد أعطوا معرفة الاسم العظيم لله مما يشير إلى المعرفة السرية في ان الأنبياء اتصلوا بممثليهم (الأوصياء) وليس أي احد آخر[٤]. ان الله وحسب شهادة الإمام السادس يملك اسماً كبيراً يتألف من (٧٣) حرفاً. اثنان وسبعون منها قد أرسلت إلى الأنبياء القدماء، وبقي واحد خفي في معرفته ولم يكشف لأي احد. ان الأنبياء مثل موسى والمسيح استلموا كل بدوره القليل من هذه الأحرف والتي من خلالها استطاعوا تحقيق المعجزات واثبات حقيقة مهمتهم إلى الناس. اما محمد آخر الأنبياء،

(١) القرآن ٣٢:٣.

(٢) القرآن ٤٨:٤ و ١١٦.

(٣) انظر الكليني، الكافي، المجلد ١، ص ٣٢٤ -٣٢٨ و ٣٣٠ - ٣٣٢.

(٤) المصدر نفسه،ص ٣٣٤.

فلقد ورث كل الأحرف الاثنان والسبعون التي أرسلت إلى الأنبياء السابقين. وهذه الأحرف بدورها أرسلت إلى الأئمة من بعده.

وبطريقة مماثلة استلم الأئمة هذا الميراث من المعرفة السرية التي انتقلت من النبي محمد إلى علي وفاطمة ومنهم إلى بقية الأئمة. ان واحدة من لفافات الورق للوحي المكتوب هي اللوح (فاطمة). كان لوحاً من الزمرد أرسله الله كهدية لوالدها بمناسبة ولادة الحسين. كان يحوي هذا اللوح اسماء زوجها (علي) والأئمة الذين جاءوا بعده واصفاً حظهم العاثر في هذه الحياة. كان جابر بن عبد الله الانصاري الذي عاش حتى ايام الإمام الخامس واحداً من اشهر أصحاب الرسول والذي وضع نسخةً منه على لفافة من الجلد. وفي احد الأيام استدعاه الإمام الخامس وتلا عليه من الذاكرة الوثيقة باكملها. ومن ثم اكد له ان اللوح في حوزته وسينتقل من امام إلى آخر حتى يصل إلى المهدي[١].

هناك نص (من الوحي) آخر وهو مصحف فاطمة[٢]. فبعد وفاة النبي فجعت فاطمة من الحزن الشديد، فنزل ملاك (في بعض المصادر يقال انه جبرائيل) ليواسيها. واخبرها بكل ماسيحدث في هذا العالم من بعدها ودوّن علي كل ما سمعته من الملاك حتى اكمل نص اللفافة المقدسة. اما الإمام السادس الذي ينسب هذا التقليد له حسب شهادته قد وصف مصحف فاطمة كلفافة أكبر ثلاث مرات من القرآن. الا انه لا يطابقه مطلقاً. ولم تكن تحتوي هذه اللفافة على القوانين الشرعية (الحلال)

(١) للمزيد من هذه الاحاديث انظر، ابن بابويه، اكمال الدين وإتمام النعمة في إثبات الرجعة، طبعة محمد المهدي السيد الحسن الموسوي الخراساني، (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٨٩ هـ/ ١٩٧٠م)، ص ٣٠٠ - ٣٠٥.

(٢) الطبري، دلائل، ص ٢٧.

والمحرمات (الحرام). بل كانت تحتوي على كل ما سيحدث حتى يوم القيامة[1].

الجفر الأبيض[2]، وهو اللفافة التي تحتوي على ألواح ابراهيم وموسى ومزامير داود (زبور) وانجيل المسيح وهي أيضا ميراث من الوحي. الا انها لا تحتوي على القرآن. فهي ميراث من آدم تتضمن كل معرفة الأنبياء وممثليهم ومعرفة المتعلمين من اولاد اسرائيل الذين توفوا[3]. هناك أيضا الجفر الأحمر الذي يحوي درع رسل الله، عصا موسى وألواحه وقميص يوسف. ان هذا الجفر الأخير يعدّ رمزاً للسلطة المؤقتة كما تعدّ الأخرى رمزاً للهدايا النبوية.

وأخيرا، هناك (الجامعة) التي يقال انها لفافة طويلة قد تتضمن المعرفة الخفية التي كان يملكها النبي والتي لم توصل إلى بقية المجتمع. والتي كان من المفترض ان تملى عليه من علي. ان لفافة الجامعة كما يبدو من اسمها نص عام يحوي كل المعارف وحتى معرفة الحلال والحرام. وهذه اللفافة كما قيل لنا يبلغ طولها سبعون ذراعاً كما قيست بذراع رسول الله[4].

وعلى الرغم من المكانة العالية للائمة فان هناك الكثير من التقاليد التي

---

(١) الكليني، كافي، المجلد الأول، ص ٣٤٦ - ٣٥٧، في كتاب "دلائل الامامة" إن تقليد " مصحف فاطمة "، مرتبط بسلطة الامام الخامس، الذي يصف محتوى الورقتين الاوليتين ويصرح بانه يحتفظ به لحين ظهور صاحب العصر "المهدي" والذي سوف ينجز كل شيء، انظر للمصدر المذكور آنفا، ص ٣٥.

(٢) الكليني، الكافي، المجلد الأول، ص ٣٤٧، جفر يعني إناء الوحي.

(٣) راجع المصدر نفسه، ص ٣٤٧.

(٤) راجع المصدر نفسه، ص ٣٤٧ - ٣٥٠.

تهدف إلى تمييزهم عن بقية الأنبياء ولاسيما النبي موسى، المسيح ومحمد الذين أرسلوا برسائل ذات وحي محدد قصد به بقية البشر. ومن بين النصوص المذكورة أعلاه هناك نصاً واحداً وهو مصحف فاطمة الذي يقال انه وحي حقيقي. الا ان مصحف فاطمة لا يمكن ان يعد وحياً جديداً لانه لا يتضمن أي قانون جديد (شريعة) ولم يكن يقصد به المجتمع الإسلامي او أي ناس آخرين بل الأئمة نفسهم. ان الجفر الأحمر كما يقول التقليد الذي ينسب إلى جعفر الصادق سيفتح إلى رجل السيف (المهدي) من اجل السيف[1].

ان التقاليد التي نراجعها وكثير غيرها قادت بعض أعضاء المجتمع الشيعي بعيداً في تفانيهم للائمة إلى عدّهم آلهة في هيئات بشرية. ان الوعي المبكر لخطر هؤلاء المتطرفين يوضح في تقليد منسوب إلى النبي والذي يوجد في مجاميع الحديث الشيعي والسني على حد سواء. ففي احد الأيام خاطب الرسول امير المؤمنين قائلاً :

يا علي وقسماً بالله الذي يملك روحي ان أولئك الجماعات من الناس يقولون عنك كما يقول المسيحيون عن المسيح ابن مريم وانا كنت سأقول عنك أشياء كانت لتجعل جماعة من المسلمين لا تدعك تمر من دون أن تجمع التراب الذي تحت قدميك طلباً للبركة"[2].

أما الإمام السادس جعفر الصادق فقد ارتعب من فكر المتطرفين

---

(١) راجع المصدر نفسه في ص ٣٤٩، إن معظم الأئمة قد عانوا الاضطهاد والاستشهاد من غير تحقيق النصر ما عدا الإمام الثاني عشر، الذير سوف يحمل السيف لوحده وسوف يحقق النصر ويعود للثأر.

(٢) الخوارزمي، المجلد الاول، ص ٤٣.

(الغُلاة) و(المفوضة)[١] قائلاً: "ان الله ليلعن المتطرفين (الغُلاة) و(المفوضة) لاستخفافهم بطاعة الله. فلقد كفروا به وأشركوا الآخرين معه. فلقد ضلوا عن الطريق وقادوا الآخرين إلى طريق الضلال رغبة منهم في التخلص من واجبات الفروض وإعطاء الحقوق لله"[٢].

لقد كان ومازال الكثير من المسلمين الذين يرفضون الكثير من الحقوق التي نسبت ووضعت من اجل الأئمة ومنحتهم تمييزاً ضئيلاً. فمن الصعب بما فيه الكفاية ان يعدّ المذهب الشيعي الأئمة، مجرد اناس اتقياء واعضاء من عائلة الرسول. الا ان الشيعة يعدّون ان سيادة الأئمة على بقية الناس ومهمتهم كقادة ومعلمين للمجتمع مسألة جوهرية للإسلام الحق. لذا كان هناك من الناس الذي اشتط بعيداً في تبجيل الأئمة إلى حد مطابقة تأليههم مع الله وكان هناك أيضا من رفض كل أولئك الذين نادوا بالحقوق العالية للائمة واعتبروا من البدع غير الاسلامية. وبين كلاً من هذين الطرفين المتطرفين ناضل المعتدلون الشيعة من (العلماء) لقرون عديدة من اجل رؤية واضحة أكثر للائمة التي تبقي على سلطتهم (ولاية) في المجتمع بدون غض الطرف عن شخصياتهم الإنسانية وتحديداتها. ان الإمام السادس، كما قيل لنا، عندما سئل اذا كانت الأئمة تعلم الغيب، انكر ذلك بشدة قائلاً: "عندما تفتح المعرفة امامنا فنحن نعلم وعندما تُعزل فنحن لا نعلم ..لان الله وحده يعلم المستور وليس هناك احد يعلم أي شيء غير ذلك الذي

---

(١) انظر إلى أ. فيزي، المذهب الشيعي، (كلكوتا: مطبعة جامعة الاوكسفورد ١٩٤٢، ص ١٠٠).

(٢) ابن بابويه، علل، ص ٢٢٨، الجملة الأخيرة من الصعب ترجمتها إلى اللغة الانكليزية. لكنه يشير إلى ان هؤلاء المتطرفين قد انتهكوا حقوق الله من خلال الشرك، أو من خلال مطالبتهم بحقوق الأئمة بزعمهم لهم اكثر مما كان في الحقيقة.

وهبه اياه الله"[1].

٢-٣ شخصية الإمام وعلامات امامته

يعدّ تعليم الإمامة في المذهب الشيعي جزءاً لا يتجزأ من تعليم النبوة. وعلى الرغم من ان الأئمة لايستطيعون الوجود بدون انبياء (الذين هم نواب عنهم او ممثليهم (اوصياء))، فهم يلعبون دوراً أكثر حيويةً من الأنبياء في الخلق، الحياة وغيبيات الحياة. وكما الرسول فان الأئمة يملكون هبة المعجزات كدليل على ادعائهم وعلامة على حظوتهم الإلهية. وكما الأنبياء العظماء، فان الأئمة معصومون عن الخطأ. وفي تقليد جدلي طويل[2]، يصف الإمام الثامن (علي الرضا) الأئمة على هذا النحو: "... اذا اختير الخادم من قبل الله لادارة شؤون خدمه فسيفتح الله صدره واضعاً فيه كل ينابيع الحكمة ويلهمه بالمعرفة الكاملة. وبعدها سيصبح الإمام معصوماً عن اعطاء أي مشورة خاطئة او ان يشذ عن طريق الصواب. لانه معصوم عن الخطأ ومحصن من الاثام والاخطاء. وهذه هي هبة الله التي يهبها لمن يشاء وان الله كريم معطاء."[3].

وبهذا التقليد بنفسه يصف الرضا الصفات الجسمانية للامام كاشارة الى

---

(١) كليني، كافي، المجلد الأول، ص ٣٧٩، تجد. انظر ايضا مقالة توفيق فهد في كتاب "جعفر الصادق وعلم العادات والتقاليد العربية في الإمامة الشيعية"، طبعة توفيق فهد (باريس: مطبعة الجامعة الفرنسية١٩٧٠،)، ص ١٣١ - ١٤٣.

(٢) انظر ابن بابويه، الامالي، ص ٣٩٩، وكذلك الكليني، المجلد الأول، ص ٢٨٣ - ٢٩٣. وأيضا أبو منصور محمد بن علي بن أبو طالب الطبرسي، كتاب الاحتجاج (النجف: مطبعة النعمان، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، الجزء الثاني، ص ٢٢٦).

(٣) ابن بابويه، الامالي، ص ٣٩٩، وكذلك القرآن ٢١ : ٥٧، اربيري، الجزء الثاني، ص ٢٦١.

امامته. وان هذا المقطع ممتع جداً ومختصر لكي نقتبسه كله: "يملك الإمام علامات. ومن جميع الرجال يجب ان يكون من أكثر الرجال علماً، الأكثر شجاعةً، تقوى، كرماً وأكثرهم صلاةً. يجب ان يكون مختوناً منذ الولادة، نظيفاً وطاهراً. ويجب ان يكون قادراً على رؤية ما خلفه كقدرته على رؤية ما امامه. وعندما يخرج من رحم امه يجب ان يخرج واقعاً عل يديه (في موضع السجود) رافعاً صوته بالشهادتين[1]، مجاهراً بالإيمان. تنام عينيه فقط وليس قلبه. يجب ان يكون من أولئك الذين يتكلمون مع الملائكة (جبرائيل) (محدث)[2]. يجب ان يلائمه درع رُسل الله. ويجب ان يكون سيفه ذو الفقار ولا يجب ان يرى بوله او برازه لان الله امر الأرض ان تبتلع كل ما يخرج من جسمه. ويجب ان تكون رائحته اطيب من المسك. ويجب ان يكون اغلى على الرجال من انفسهم ويجب ان يحبهم ويعطف عليهم أكثر من ابائهم وامهاتهم. يجب ان يحكم بما امر به (الله) إذ يجب ان يكون شديداً في تجاهل الحرام. يجب ان تستجاب صلواته فلو انه صلى ان تشطر صخرة نصفين فيجب ان يتحقق ذلك. يجب ان يملك لفافة (صحيفة) تحوي اسماء اعدائه حتى يوم القيامة. يجب ان يملك "الجامعة" التي يبلغ طولها سبعون ذراعاً تحوي كل المعارف التي يحتاجها كل اولاد آدم. يجب ان يملك الجفر الابيض الاعظم، والأصغر الأحمر، والمصنوع من جلد الغنم والذي يحوي كل فروع المعرفة وحتى ثمن او تعويض (عرش) أي خدش صغير.

---

(١) وللإشارة كذلك قدمت شكوى للنبي من قبل عامة تقاة المسلمين حول صحة نبوته، ومثال على ذلك في أبي نعيم احمد بن عبد الله الأصفهاني، دلائل النبوة، المجلد الثاني، الطبعة الثانية، (حيدرأباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٦ هجرية/ ١٩٥٠ميلادة، ص ١١٠ - ١١١).

(٢) انظر الكليني، الكافي، التمايز بين النبي الذي يتكلم معه الملاك وبين الامام الذي فقط يسمع لصوت الملائكة.

والعقاب لأي اساءة بجلدة واحدة او نصف جلدة اوحتى ثلث جلدة. كما يجب ان يملك مصحف (فاطمة)»[١].

نرى وبشكل واضح من هذا التقليد، ان الأئمة لا يملكون فقط كل صفات الرجل الكامل او النبي بل يجمعون مع هذه كلها الامتياز الخاص للامام. وفي تقواه فان سموه الروحي وكراماته تجعل الإمام اقرب ما يكون إلى الرجل الكامل. وفي صفاته الجسمانية من الشجاعة، النظافة، الجود وتميزه العام فانه يشبه الإنسان الكامل في التقليد الإسلامي وغيرها من التقاليد التي تحتوي على هذا المفهوم[٢]. ان هذه العلامات او الامتيازات لسلطته المؤقتة فان الإمام وعلى الرغم من شبهه بالمسيح اليهودي، توضح في الحقيقة دوره الفريد في التاريخ الديني. فهو القائد الكامل الذي يملك السلطة الحقيقية، الحكمة وسلطة محمد النبي والقائد والرئيس المثالي للمجتمع. ان الإمام هو تعبير قوي عن الآمال، لطموحات والمثاليات الروحية ليس للمسلمين فقط بل للرجال الأتقياء عموما. يقف الإمام في استعراض تاريخ تطور الروحية الإنسانية، على قمة التطور الروحي مجسداً المثال الإنساني الذي تغذى من إيمان وثقافة الإنسان، ولكن لم يدرك ذلك حتى وصول الخليقة إلى لحظة الاستعداد للتحول الأخير.

لقد راينا في هذا الفصل الموقع المركزي الذي يحتله الأئمة في المذهب الشيعي، اللاهوت والافكار الدينية، الدور الذي يؤديه في تحديد التوجيه الصحيح حسب الشريعة واهميته من النظرة العالمية. لقد خصصت مساحة واهمية كبيرة للمفهوم العام للامام حتى نوضح شخصية، حياة وموت

(١) الطبرسي، الاحتجاج، ص ٢٣٠.

(٢) قارن بين درجة بوذا وشخصيته في الهند في عادات وتقاليد الشرق الأقصى وبين الرجل المثالي الإيراني وبين ابن الإنسان ما بعد الكتاب المقدس اليهودي.

الإمام الحسين محور اهتمام هذه الدراسة. يحتل الحسين، الإمام الثالث، مكانةً فريدة في المذهب الإسلامي الشيعي. فلقد تربى وتغذى بطريقة خاصة كما سنرى ذلك من قبل النبي الذي ورث عنه مباشرةً الميراث النبوي. فلقد اختير من الله ليكون ابو لائمة بدلاً من اخيه الاكبر الحسن. ان تميزه الكبير هو انه سيد الشهداء الذي قدم اكبر التضحيات في سبيل الله. ولو كان مفهوم او الفكرة المثالية للامام تجسد كل خصائص الكمال الروحية والجسدية لدى الشيعة فان الإمام الحسين قد يعدّ أنموذجاً للكمال الحي او تجسيداً لهذا الكمال. نوقشت الكثير من الافكار المثالية في هذا الفصل وستظهر مرة أخرى ولكن في حياة كاملة في الشخصية والمعنى عندما نتابع "سيد شهداء شباب الجنة" منذ الولادة وحتى الشهادة وإلى ابعد من ذلك حتى التبرئة الأخيرة.

الفصل الثالث

"سيد شباب أهل الجنة"[1]

(١) "سيدي شباب أهل الجنة" هو لقب اطلقه النبي على الأخوين "الحسن والحسين"، ويظهر في جميع المصادر التي تتناول حياتهم. انظر إلى الفصل الرابع.

يحتل الإمام الثالث "الحسين" من بين الأئمة الاثني عشر في المذهب الشيعي، وأبو الأئمة التسعة الباقين، مكانة خاصة ومهمة. فهناك تقليد قديم وطويل في اعتبار الأئمة والخلفاء كأفضلية على أساس العمر، الاقدمية وأولوية المنصب. لذا فحسب المنصب، فان أفضل الأئمة وأفضل الكائنات من بعد الرسول هو "علي" أمير المؤمنين. ومن ثم يأتي ابنه الأكبر ووريثه الحسن ومن ثم الحسين وهكذا نزولاً إلى الإمام الثاني عشر "المهدي"[1].

فحسب المنصب قد يكون الحسن أرقى من اخيه الأصغر الحسين على اساس العمر ومن ثم في المنصب، الا انه وفي قراءة سريعة للمصادر الشيعية فسنرى ان الحسين اقرب إلى قلوب المتقين من اخيه الحسن. وقد يدعم هذا العرض الكثير من الأحاديث الشيعية والسنية كذلك. لذا فان الخوارزمي (مفكر سني) يروي الكثير من الأحاديث النبوية التي تتعلق بعلي وولديه التي تصف الحسين "...حقاً ان الحسين واحد من بوابات الجنة. فمن يعارضه سوف يحرمه الله الجنة"[2].

وفي حقيقة الأمر ان الأخيرين يعدّان وحسب التقليد الشيعي "سيدي

(١) يمكن القول بان الامام الثاني عشر بوصفه انه يمثل كل الأئمة والأنبياء السابقين له، فانه يكمل أيضا رسالتهم في اعتلاء أعلى المراكز. انظر للفصل السادس.

(٢) الخوارزمي، المجلد الأول، ص ١٤٤.

شباب أهل الجنة" الذين رمز إليهما الرسول نفسه بذلك[1]. اما الإمام السادس جعفر فانه يفسر هذا التعبير بشكل اوسع بقوله " ان الحسن والحسين هما سيدي شباب الجنة. . .فكل سكان الجنة هم من الشباب لذا فان (الحسن والحسين) يمتلكان الإمامة في هذه الدنيا والسيادة على ما بعدها "[2].

يبدأ محمد باقر المجالسي، حديثه عن حياة الحسين بحديث منسوب إلى اخيه الاكبر الذي يقول : "بالنسبة للحسين، فلقد كان اماماً حتى قبل ولادته وقرأ الوحي المقدس قبل ان يتعلم الكلام"[3]. ومن ثم يعلق الكاتب على الحديث وانطباقه على كل الأئمة" . . . كان هذا منسوباً له عندما كان في مملكة الارواح والرحم . . . لان ارواح الأئمة المقدسة، قبل اتحادها مع اجسادهم، كانوا يملكون كل فروع المعرفة الدينية وكانوا معلمين للملائكة "[4].

سنبحث اولاً في هذا الفصل بعض التقاليد المنسوبة التي ترتبط بمفهوم ولادة الحسين ومن ثم سنتابعه منذ مدة شبابه الأول مع الرسول مروراً بمرحلة الرجولة إلى بدايات الاحداث التي قادت إلى استشهاده. لا يهدف هذا الفصل إلى تقديم سيرة حياة الإمام الحسين بل لبحث جوانب معينة من

(١) انظر على سبيل المثال، المفيد: ص ١٨٠، وابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ١٥٣.

(٢) ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ١٥٣.

(٣) المجلسي، المجلد ٤٤، ص ١٧٩، وعلي الفضل بن الحسن الطبرسي، كتاب أعلام الورى في اعلام الهدى، طهران: المكتبة العلمية الإسلامية، ١٣٣٨ هـ/ ١٩١٩م)، ص ٢١٥.

(٤) المجلسي، المجلد ٤٤، ص ١٧٩.

حياته لادراك الدور الفريد الذي احتله في المذهب الشيعي. وسيتم ذلك من خلال التحقيق في بعض سيّر القديسين التي تختص بالحسين شهيداً لذا فان هذا الفصل سيبحث في القليل من كثير من التقاليد التي كانت تتنبأ بنهايته المأساوية. كانت واقعة كربلاء تظهر في كل خطوة من خطوات الإمام منذ ولادته وما قبل ذلك وحتى مماته. في الحقيقة عندما ننظر إلى مختلف مراحل حياته كأننا نستعرض مقدمة حية للنهاية الدرامية لهذه المعاناة، الاستشهاد والأسر المذل لاعضاء عائلته الناجين نساءً وأطفالا.

٣-١ ولادة وطفولة الحسين

تُظهر القصص التي تتناول ولادة الحسين كل صفات الطفل الإلهي كبطل ديني ودنيوي. تنبأ بولادته وقدره في رسالة خاصة من الله إلى جبرائيل ملاك الوحي. فلقد قيل لنا عن ابن قولويه (٣٦٧/ ٩٧٧) ان جبرائيل جاء إلى النبي قائلاً "يا محمد الله يرسل إليك سلامه ويبلغك ان طفلاً سيرزق منك من ابنتك فاطمة وسيذبح من قبل أمتك من بعدك". فاجاب الرسول "يا جبرائيل السلام على سيدي ليس لي حاجة إلى طفل سيولد من فاطمة والذي ستذبحه امتي من بعدي" ذهب جبرائيل إلى السماء ومن ثم عاد إلى الرسول مكرراً نفس الرسالة نفسها ثلاث مرات على التوالي وفي المرة الثالثة أضاف "ان الله يبلغك انه سيحتفظ بالإمامة، الولاية والوصية في ذرية الحسين" وعلى هذا أجاب الرسول "انا اقبل" وعندما أرسل الرسول رسالةً إلى ابنته يبلغها بالقضاء الإلهي للطفل المنتظر أعطت في البداية الإجابة نفسها السلبية ولكن عندما قيل لها انه اختير لكي يكون ابو الأئمة عند ذاك أعطت موافقتها[1]. ومع هذا فلقد حزنت لأجله حتى قبل ان

(١) القرآن ١٥ : ٤٦، الآية تقرأ كالتالي: إن والدته قد تألمت كثيرا حتى ولدته، قد ربته وفطمته حتى بلغ الثلاثين شهرا، وعندما كبر ونضج وأصبح عمره أربعين

يولد. وهكذا يقول لنا الكاتب مستشهداً بكلمات القرآن "وحملت به امه في حزن وولدته في حزن" معلقاً على بقية الآية يقول الكاتب " . . .فلو كان (الحسين) قد قال "اجعل ذريتي صالحة" لكانت كل ذريته ائمة"[1].

ان مولد الحسين كما تصور من قبل الكتاب وحتى الكتاب الأوائل، تظهر بشكل واضح شخصيته الخارقة. والكثير يتفق انه مثل المسيح بقي في رحم امه ستة اشهر فقط. يحاول كاتب "اثبات الوصية"[2] ان يصور أعجوبة الحسين بقوله انه عندما ولد الحسن كانت امه نظيفة وطاهرة ولم تمسها نجاسات المرأة في حالة الولادة. ويذهب إلى التأكيد ان فاطمة حملت بالحسين في نفس ذلك اليوم. وهذه الحقيقة، تخالف إفادته الأخيرة في تحديد تاريخ ميلاد الأخوين إذ ان هناك فترة سنة كاملة تفصل بينهما. ومرة أخرى ورغبةً في التأكيد على استمرار الأئمة من سلالة الرسول فانه يلاحظ ان ولادة الحسين مثل رسول الله والإمامين علي والده وأخيه الحسن[3]. كما يوصف تشابه ولادة الإمام والرسول بصورة درامية في أعمال "البحراني" الآتية "مقتل العوالم. إذ تحمل شبهاً بقصص ولادة الرسول

عاما، قال: يا الهي أشكرك كثيرا لأنك رتبت إلي حياتي وباركت أمي وأبي، واني اعمل من أجلك، وكذلك اجعل الاستقامة لي ولذريتي. اربيري، المجلد الثاني، صفحات ٢١٦ - ٢١٧.

(١) ابن قولويه، ص ٥٦ - ٥٧. الكليني، الكافي، المجلد الأول، ص ٣٦٣.

(٢) أبو الحسن بن علي الحسن المسعودي الديهلي، إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب، الطبعة الرابعة (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٤م). انظر أيضا الكليني، الكافي المجلد الأول، ص ٣٦٣.

(٣) المسعودي، إثبات، ص ١٦٠.

التي بالتأكيد تم التنبؤ بها[١].

يعزو الكاتب قصته عن ولادة الحسين إلى فاطمة نفسها التي قالت عن حملها به إلى احد أصحاب الرسول. وقبل ان احمل به، قال النبي: "إنني أرى نوراً مشعاً من وجهك فانك ستلدين حجة الله على خليقته"[٢]. وبعد شهر واحد من ولادة (الحسن) اصيبت فاطمة بالحمى ومرضت فجاء رسول الله بوعاء ماء قرأ الرسول عليه بعض الكلمات التي لم تفهمها فاطمة. ثم بصق في الماء وأعطاه اياها لتشربه فشفيت في الحال. وبعد أربعين يوماً وحتى نهاية الشهر الثاني كانت تحس في ظهرها ما بين جلدها وملابسها شيءاً يزحف كالنمل ومن ثم أحست الطفل يتحرك في أحشائها. وسرعان ما أحست بالجوع والعطش ولكن كانت وكأنها تشبع حاجتها إلى ذلك بالحليب والعسل. وفي شهرها الثالث وجدت فاطمة خيراً كثيراً في بيتها. ومنذ ذلك الحين لم تترك غرفة الصلاة وأعطاها الله الراحة والطمأنينية في هذا الطفل وفي وحدتها هذه. وبعد الشهر السادس لم تعد تحتاج إلى مصباح في أحلك الليالي ظلمةً. وعندما كانت وحيدة كانت تسمع صوت الطفل يسبح باسم الله في رحمها مما زاد في فرحتها وقوتها الجسدية. وفي اليوم التاسع من الشهر السابع جاء ملاك إلى فاطمة وهي نائمة ولمسها على ظهرها باجنحته وعندما استفاقت مذعورة ومتعجبة قامت لتتوضأ وصلت ركعتين وعادت إلى النوم. فجاءها ملاك آخر ونفخ في وجهها وعنقها فاستفاقت مرتعبة أكثر من المرة الأولى فتوضأت ثانيةً وصلت أربع

(١) ان كتب البحراني على الرغم من انها تعدّ حديثة نوعا ما، الا انها اخذت مكانة التقليد الكلاسيكي عند العديد من الكتّاب الأكثر حداثة، افمنحه هؤلاء الكتاب الثقة لكونه الأقدم والشخص الجدير بالثقة بخصوص هذا الموضوع.

(٢) البحراني، ص ٣.

ركعات. وبعد نوم قصير جاء ملاك ثالث وايقضها قارئاً تمائم خاصة لتحفظها من الشيطان وقرأ عليها سورتين من الملاذ[١].

وفي اليوم التالي ذهبت فاطمة إلى والدها في بيت ام سلمة زوجة الرسول المفضلة، وقصت عليه أحداث الليلة السابقة. فظهرت على محياه علامات الفرح والسرور وعرفها على الشخصيات الغامضة التي زارتها ليلاً. وأول ما قاله ان "عزرائيل" ملاك الموت الذي يعهد اليه أيضا بارحام النساء، وان الثاني كان "ميخائيل" وهو المسؤول عن مراقبة ارحام النساء في العائلة المقدسة "أهل البيت". ومن ثم سأل الرسول "هل نفخ في وجهك؟" فأجابت "نعم" فحضنها وبكى واخبرها ان الملاك الثالث كان جبرائيل الذي سيخدم الطفل الوليد[٢].

تضم هذه الأسطورة عناصر شائعة لقصص ولادة الكثير من الشخصيات الدينية بدءاً من بوذا إلى صاموئيل، المسيح و محمد. ان التشابه بين هذه القصة وقصة ولادة المسيح في الانجيل، ملفتة للنظر بشكل خاص. فلقد زارت الملائكة كلا من العذراء مريم وفاطمة لطمأنتهما. وفي صدى النص القرآني لولادة المسيح فان هذه القصة أيضا (أي قصة فاطمة) ان فاطمة انعزلت عن بقية البشر خلال فترة حمله ومثل العذراء زودت بطعام من السماء. ودخلت حمامة بيضاء في ثياب فاطمة عندما كانت في دار ام

(١) إن كلمة "الرُقيه" تعني تعويذة أو حماية الشخص من الأرواح الشريرة التي تهجم على الإنسان. وهذا يحدث مع الرجل أو المرأة التقية، وعادة ما يحدث عند الطفل حينما يكون خائفا من شيء مشكوك فيه أو يصاب بالعين من قبل الشيطان. هناك سورتين في القرآن (السورتين الاخيرتين في القرآن) تستخدم عادة للحماية من الرُقيه. وعادة ما يررب الرجل المصاب او المراة المصابة عند التعزيم من الرقيه.

(٢) البحراني، ص ٣ - ٤.

سلمة قبل لقاءها مع الرسول والذي يحاكي حادثة في حياة المسيح عند ظهور الحمامة (الروح القدس) في عماذه[١].

ان الحقيقة المقبولة هي ان علي قد نشأ مع الرسول وعندما كان لا يزال شاباً اعتنق الإسلام ووقف إلى جانب الرسول خلال الأيام العصيبة في مكة قبل هجرته إلى المدينة. وفي تقليد مؤثر يذكر كتفسير للآية القرآنية[٢] يأمر الرسول ان يحذر أصحابه واقربائه فجمع جماعته من اقربائه المقربين والقليل من المسلمين في مكة "لتشكيل أخوة فيما بينهم" اما علي الذي كان حاضراً فلقد ترك خارج هذه العصبة فسأل "وانا يا رسول الله؟"، فاجاب الرسول "الست قانعاً ان تكون لي كما كان هارون إلى موسى ماعدا انه لن يكون هناك أي نبي بعدي؟"[٣] وهكذا وكما كان هارون وصياً او خليفة واخاً لموسى كذلك كان علي إلى محمد.

ان المصادر الشيعية الموثوقة تربط هذا التقليد إلى تسمية ولدي علي[٤]. فعندما ولد الحسن جاء الرسول وسأل علي "ماذا أسميت ابنك؟" فاجاب علي "يا رسول الله ان أسبقك في هذا الأمر فيا رسول الله كنت اود ان اسميه حرباً" ثم اخبر الرسول ان الملاك جبرائيل قد جاءه معلناً له ولادة الطفل وأوصل اليه الرسالة السماوية بما ان علي بالنسبة اليه كان مثل هارون بالنسبة إلى موسى فيجب ان يسميه على اسم ابن هارون، فسأل

---

(١) راجع المصدر نفسه، ص ٤.

(٢) القرآن ٢١٤:٢٧.

(٣) هذ الحديث مع احاديث اخرى مختلفة قليلا، نجدها في معظم الأحاديث الشيعية التي تبرهن الاطروحات اللاهوتية على آلامامية "لعلي ونسله". انظر إلى النسخة المطولة لاحاديث الخوارزمي، المجلد الأول، ص ٥٠، والطوسي، تجريد، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٤) المفيد، ص ١٧٩ - ١٩٠.

الرسول "وماذا كان اسم ابن هارون؟" فأجاب الملاك "شابر" فاعترض الرسول على ذلك قائلاً ان لسانه كان عربياً فما كان من الملاك الا ان يترجم شابر من العبرية إلى العربية "الحسن" وطلب منه ان يعطي ذلك الطفل هذا الاسم. والشيء نفسه عندما ولد الحسين إذ جاء الملاك بالأمر الإلهي ان يسمي الطفل "شبير" مصغر شابر. وثانيةً اعترض الرسول ان لسانه كان عربياً عند ذاك أعطي الاسم المترجم عن العبرية (الحسين) وهو مصغر الحسن. تظهر هذه القصة المفهوم الشيعي للنبوة والإمامة(١).

كان الله يعين وصياً وخليفةً لكل نبي وإحدى عشر شخصاً آخر يعقبون الإمام الأول او الوصي(٢). كان الوصي الأول لآدم هو شيت ولابراهيم اسماعيل ولموسى هارون وللمسيح شمعون الصفا. كان موسى (واهب القوانين) مثل محمد الرئيس السياسي للمجتمع وكان اخوه هارون هو الوصي الأول له. اما علي ابن عم الرسول وزوج ابنته وكان لمحمد بمثابة اخيه لان ابا طالب ابا علي هو الذي ربى محمداً عندما كان طفلاً يتيماً. ويناقش "شهرآشوب" كاتب "المناقب" ان الله ابقى الإمامة في نسل الحسين كما ابقى النبوة في نسل هارون(٣). كما ان الحسين ابن علي هو أكثر الناس مطالبةً بدم ابيه والوحيد الذي يستحق المطالبة بالثأر له(٤).

---

(١) ان التقليد الشيعي يؤكد بان الوصي لموسى كان أخوه هارون، وبان الله قد تابع خط النبوءة في ذرية الاخير. ولذلك فان آلامام علي الذي أودع الامامة، استمر ايضا في دورة النبوءة في الامامة، انظر الهامش رقم ٢١ ادناه.

(٢) انظر هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، (باريس: غليمارد، ١٩٤٤)، الفصل الثاني. وسيد حيدر املي، جامع الأسرار، (طهران: المعهد الإيراني- الفرنسي للبحوث١٣٤٧، هـ/١٩٦٩م)، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

(٣) القرآن ٣٣:١١، اربيري، الجزء الأول، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

(٤) ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ٢٠٦.

ولد الحسين في الخامس من شعبان في السنة الرابعة للهجرة وهي سنة الخندق[١]. وحسب الشيخ المفيد كاتب "الإرشاد" احد اقدم الأعمال الموثوقة عن حياة الأئمة، انه عندما ولد الحسين جاء النبي وحمله بين ذراعيه بفرح كبير وكما لاحظنا سبقاً اعطاه اسم الحسين. ثم حلق رأس الطفل واخذ وزنه فضةً كصدقة وقدم الضحية (العقيقة) كما كانت العادة حين ذاك[٢]. ويربط المفيد القليل من التقاليد الكثيرة المرتبطة بولادة الحسين بدون ان ينكر الوجود الخارق للطفل او الأحداث التي قادت إلى وفاته. اما "الشيخ" فلقد كان أكثر تشويقاً في تأكيده على إمامة ولدي علي ومن ثم سلالة الحسين لذا فان أي أعجوبة او شيء خارق للطبيعة يذكره فإنما يفعل ذلك لغرض محدد وهو يفعل ذلك دليل او حجة على أهمية المذهب الشيعي.

فلقد قيل لنا انه وقبل ولادة الحسين حلمت أم الفضل[٣] ان قطعة من لحم النبي او احد أصحابه قد قطعت ورميت في حضنها. ومن شدة خوفها من الحلم قصت الحلم على النبي الذي فسره لها بسعادة عندما أعلن ولادة فاطمة لطفل سيوضع في حضن ام الفضل لترضعه. ان مثل هذه البشائر لولادة بطل، نبي او قديس معروفة في التاريخ الديني الا ان هذه القصة لها أهمية خاصة فهي تهدف إلى عرض العلاقة الوثيقة بين الأئمة والنبي

---

(١) المفيد، ص ١٨٠، كذلك الشيخ أبو جعفر بن محمد بن الحسن الطوسي، كتاب الامالي، طبعة محمد صادق بحر العلوم (بغداد: المكتبة الأهلية، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م،المجلد الأول)، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ والعديد من المصادر الأخرى، انظر ابن بابويه، امالي، ص ٨١.

(٢) الموسوعة الإسلامية، الطبعة الجديدة، المجلد الأول، "عقيقة".

(٣) انظر النيسابوري، ص ١٦٤. ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ٢٢٦. وأيضا رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس البغدادي، اللهوف على قتلى الطفوف، الطبعة الثانية، (صيدا: مطبعة العرفان١٣٤٧، هـ/ ١٩٢٩ م)، ص ١٠.

وبالتأكيد سنعود إليها لاحقاً.

في مصادر تالية أخرى وشعبية[١] قيل لنا بانه عند ولادة الحسين أمر الله "الرضوان" حارس حدائق الجنة" بتزيين الجنة و "مالك" حارس جهنم ان يطفئ لهبها/ لان صبياً قد ولد لمحمد. وامر الله الحوريات ان يزين انفسهن باجمل الثياب والاحجار الكريمة وان يفرحن لولادة الطفل. وامرت شجرة (الطوبى)[٢] ان تنثر ثمارها من الاحجار الكريمة واوراقها التي تشفي وتمنح الحياة في كل مكان كالمطر.وسمح للملائكة والحور وشباب الجنة ان يحتفلوا بكل الثروة بهذه المناسبة العظيمة. وأرسل الله لرؤية أجمل الحوريات في الجنة حتى تكون القابلة التي تولّد فاطمة. وغسلت لؤيا الطفل بمياه الجنة وغسلت لثته بلعابها كما فعل الملاك جبرائيل. والحسين مثل بقية الأئمة ولد نظيفاً فقد تؤكد ذلك المصادر الأولى. إذ قيل لنا ان صفية ابنة عبد المطلب كانت القابلة التي ولدت فاطمة إذ كان الرسول ينتظر بفارغ الصبر في الخارج. وحالما ولد الصبي صاح النبي قائلاً "يا عمة ناوليني ابني" الا انها اعترضت قائلةً "يا رسول الله اننا لم ننظفه بعد" فرد عليه النبي "انت تنظفيه كلا فان الله قد نظفه ونقاه بنفسه"[٣]. من الممكن ان هذا الجواب الأخير قد كان ذا معنى مجازي الا ان مثل هذه التقاليد وبشكل ممكن قد وفرت الاساس للكثير من قصص سير القديسين. فبعض الكتاب المتحمسين ذهبوا بعيداً إلى حد القول ان الرسول نفسه قد قام بدور

---

(١) الدربندي، ص ٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٥. يفترض ان تكون شجرة الجنة، شجرة السعادة (شجرة الطوبى)، التي ذكرت في العديد من المصادر الشعبية والمتعلقة بزواج علي من فاطمة وولادة أطفالهما.

(٣) النيسابوري، ص ١٥٤.

القابلة وذلك حسب شهادة احد أصحابه الذي وصف كيف تلطخت يديه بدم الولادة[1].

لقد راينا سابقاً كيف ان استشهاد الحسين اعطى الحق لاولاده بالمطالبة بدمه وكذلك المطالبة بمقامه الرفيع. فشهرشوب يؤكد على ان الرسول ارضع الطفل بنفسه وذلك بوضع اصبعه او لسانه في فم الطفل، وكان هذا مصدر غذاء للطفل. هذا ما قام به الرسول مباشرةً بعد ولادة الطفل مانعاً امه من ارضاعه بنفسها وهكذا استمر بارضاع الطفل حتى اتم اربعين يوماً. ولقد قيل لنا أيضا انه وقبل ولادة الحسن جاء الرسول إلى ابنته فاطمة قائلاً لها "ستلدين طفلاً ذكراً هنأني عليه الملاك جبرائيل فلا ترضعيه حتى عودتي" وهكذا ذهب في رحلة قصيرة وعندما عاد أنبها قائلاً "ماذا فعلت؟" فاجابت ان غريزتها آلامومية منعتها من رؤية الطفل يصرخ ويبكي من الجوع. وبيأس قال لها "ان الله يفعل ما يشاء"[2].

وقبل ولادة الحسين جاء الرسول ثانيةً إلى فاطمة وامرها ان لا ترضع الطفل مهما طالت المدة التي ستقضيها في انتظاره. وعند عودته من رحلة دامت ٣ ايام وجد ان الطفل لم يرضع وان الأم كانت تنتظر عودته بفارغ الصبر. فوضع الرسول لسانه في فم الطفل الذي بدأ يرضع بجوع وكرر مرتين "يا حسين وهكذا فان الله لم يكن ليسمح بذلك حتى يشاء. ستصبح الإمامة في سلالتك حتى يوم القيامة"[3]. يقص ابن شهرشوب هذا التقليد كدليل على امامة الحسين في المدة التي تتناول اعاجيب الحسين والمعجزة هنا هي ان الحسين قد تغذى من خلال العناية الإلهية ودم ولحم الرسول.

---

(١) ابن عساكر، التاريخ الكبير، ص ٣١٤.

(٢) ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ٢٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٠٧.

يوضح الكاتب ". . . . . . وهكذا فان لحمه (الحسين) ودمه قد نما وكبر من لحم ودم الرسول"[1]. فلقد رأينا في الفصل السابق ان الرسول والأئمة قد خلقوا من نور إلهي قبل كل الخليقة. وهنا نجد التركيز على التركيبة الخاصة للحسين فمادته الجسدية قريبة لتلك التي للرسول لذا فان المطالبة له أكثر قداسة وشرفاً.

وكما سنرى لاحقاً فان الكثير من القصص تروي مجيء الملائكة إلى الرسول لتهنئته بولادة الحسين الا انها تضطر إلى اخباره عما سيحدث للطفل على ايدي رجال اشرار بعد وفاة الرسول. وهناك تقليد شيق قصه ابن قولويه عن الإمام السادس جعفر، ان الله نفسه كان اول الذين منحوا البركات، التهاني والتعازي في الوقت نفسه إلى محمد. وبينما كان الرسول جالساً في بيت ابنته فاطمة وقع على وجهه من شدة البكاء وبعد ان جلس ثانيةً اخذ الطفل بين ذراعيه قريباً إلى قلبه إذ قال:

"يا فاطمة يا ابنة محمد حقاً ظهر لي الله في بيتك في هذه اللحظة بافضل ظهور واجمل هيأة وقال لي "يا محمد هل تحب الحسين؟" اجبه"نعم". انه قرة عيني[2]، الفاكهة المحبوبة إلى فؤادي واللحم الذي بين عيني" ثم قال الله بينما كان يضع يديه على رأس الحسين "يا محمد كم مبارك هذا الطفل لانني احللت عليه بركتي، رحمتي، صلواتي ورضواتي. ستحل نقمتي ولعنتي على من يحارب ضده او حتى يعارضه لانه وبالتأكيد سيد كل الشهداء الذين رحلوا قبلاً والذين سيرحلون في هذه الحياة والحياة القادمة"[3].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(٢) هذا التعبير الاصطلاحي الشعبي، تعني عزيز او فريد كأنه الجلد الغالي بين العينين.

(٣) ابن قولويه، ص ٦٧.

قيل لنا انه عندما ولد الحسين أرسل الله جبرائيل بألف فيلق من الملائكة لتشارك الرسول الفرحة لولادة حفيده ولتقديم التعازي على المأساة المحتمة. أوقف جماعة الملائكة هذه وهي في طريقها إلى الرسول ملاك يدعى فوتروس[1] وكان قد سجن في جزيرة نائية بسبب اثم ارتكبه. إذ أرسل في مهمة تلكأ في تنفيذها فعاقبه الله بكسر اجنحته ورميه في تلك الجزيرة منذ الف عام قبل ولادة الحسين[2]. توسل فوتروس للملائكة ان تحمله معها ليسأل الرسول ان يتشفع له عند الله. ففعل الرسول ذلك آمراً الملائكة ان تفرك جناحيه المكسورين بقماط الطفل. وهكذا استعاد جناحيه بهذه الطريقة ومع ذلك لم يعد الله الملاك إلى الجنة إذ كان احد حاملي العرش[3]، ولكنه امر الملاك ان يحرس قبر الحسين. اما فوتروس فقد كان يفتخر في الجنة "من مثلي أنا فان العبد المعتوق للحسين ابن علي؟"[4].

جاءت ملائكة أخرى وفي اوقات أخرى لزيارة الرسول وتقديم التعازي للموت الماساوي المقدر لطفله الحبيب. واحد من هؤلاء الملائكة ملاكاً عظيماً كان رأسه يلمس السماء وقف في البحر رافعاً نواحه او مرثاته لتسمعه كل المخلوقات، آمراً اياهم ان يتشحوا بثياب الحزن على ابن

---

(١) إن اسم الملاك كأنما هو مشتق من الاسم العربي "بطرس". لا توجد علاقة بين الملاك والرسول بطرس.

(٢) هذه القصة رويت مع العديد من الاختلافات بخصوص اسم الملاك وسبب العقاب. للمصادر المبكرة، انظر ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ٢٩٩، وابن النيسابوري ص ١٥٥. القصة تخبرنا عن العديد من المصادر التي تعلق بحياة الامام، إما في المصادر المتأخرة فقد أعطيت من قبل ثلاثة ملائكة. انظر إلى البحراني ص ٥ -٦، والدربندي ص ٩٤.

(٣) البحراني، ص ٢٥.

(٤) ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص٢٩٩.

حبيب الله محمد. ويقال ان الملاك عندئذ نزل إلى الرسول ليعلمه بالخبر الحزين وفي طريق العودة، اخذ معه قليلاً من تراب كربلاءعلى رأس جناحيه لكل اهل الجنة ليشموه ويتسلموا بركاته[1]. كما جاء جبرائيل بالخبر الحزين كما جاءت ملاك المطر من قبل؛ وفي كل مرة كان الملاك يظهر للرسول المكان الذي سيقتل فيه الحسين ويعطيه حفنة من تراب تلك الأرض. كل هذه الزيارات الملائكية كانت تتم عندما كان الرسول في بيت ام سلمة التي كان يعطيها حفنة التراب تلك، طالباً منها ان تحتفظ به كعلامة على موت الحسين. وكانت تعلم ان الحسين سيموت عندما يتحول هذا التراب إلى دم متخثر.

هناك حدث درامي أخير جدير بالذكر لقصة ولادة الحسين وطفولته. عندما بلغ الطفل السنة الأولى من عمره نزل اثنا عشر ملاكاً مختلفي الأشكال إلى الرسول. كان احدهم له هيأة الأسد، والآخر تنين والثالث كالثور والرابع كان له هيأة رجل. اما الثمانية الآخرين فكانت لهم هيئآت حيوانية[2]. جاءت الملائكة بوجوه حزينة وعيون حمراء (علامة على الغضب) ناشرةً اجنحتها قائلةً للرسول "يا محمد سيحل بطفلك الحسين مثلما حل بهابيل على يد قابيل وسيكافأ على ذلك مثلما كوفئ هابيل وسيحمل قاتله حملاً ثقيلاً لخطيئته وسيعاقب كما عوقب قائين"[3].

---

(١) انظر إلى الطريحي، ص ٦١، وأيضا الدربندي، ص ٩٨.

(٢) إن الحاملون للعرش هم عبارة عن حيوانات مختلفة ويتوسطهم الله، انظر ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ٢٣٠. الخوارزمي، المجلد الأول، ص ١٥٨، انظر أيضا إلى ابن طاووس، اللهوف، ص ٩ - ١٠.

(٣) الخوارزمي، المجلد الأول، ص ١٥٨، انظر أيضا إلى ابن طاووس، اللهوف، ص ٩ - ١٠.

ان هذه القصص التي تعرض حزن الرسول هنا على الأرض الذي يشاركه به كل المخلوقات وحتى الملائكة تعني مثل كل قصص سير القديسين والأولياء الصالحين لتأجيج مشاعر المستمعين في التعزية وزيادة مشاركتهم في الحدث. يقول لنا الخوارزمي وبهذا المحتوى القصصي نفسه انه عندما اراد الملاك اذناً من الله لزيارة الرسول. فأمره الله ان يبلغ الرسول بالخبر الحزين الا ان للملاك اعترض على ذلك بقوله انه فرح بفرصة تهنئة محمد بالطفل الجديد الا ان فرحته الآن قد تعكرت لان عليه ان يكون نذيراً بالنحس. ومع هذا فقد اطاع الأمر الإلهي وسكب كلا من الملاك والرسول دموع المرارة[1]. يذكر الملاك في هذه القصة قاتل الحسين بالاسم "يزيد" الذي سيقتل ابن فاطمة النقي والتي هي كمريم العذراء، ابنةً عمران[2].

انه من الصعب تحديد ما اذا كان الكاتب قد عنى التحدث عن عدة تقاليد مختلفة لهذه الزيارات الملائكية. فان الملاك جبرائيل على سبيل المثال يذكر دائماً من قبل الكاتب بنزوله في عدة مناسبات ليعلن لمحمد مقتل حفيده. ولا يستطيع الواحد ان يتساءل لماذا كان يجب تذكير محمد دائماً بما يعرفه هو وحتى قبل ولادة الطفل بزمن طويل. وثانيا فان الهدف هو ليس لكتابة نص تاريخي بل لتوضيح الحس المأساوي وحتى في السماء وفي ليلة معراج الرسول رأى علامات ودلائل على النهاية الماساوية لكلا حفيديه، إذ كان هناك قصرين جميلين مصنوعين من لؤلؤة واحدة واحدة حمراء وأخرى خضراء. وعندما سأل لمن يعود هذان القصران قيل له ان الاحمر للحسين والاخضر للحسن، لوني الدم والسم على التوالي[3].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

تؤكد التقاليد الشيعية والسنية كذلك ان الرسول احب حفيديه حباً لا حدود له. فلقد لاحظنا سابقاً[1] الالفة الحميمة والعميقة الموجودة بين الرسول واهل بيته. وكل المصادر الشيعية تؤكد على ان هذا الحب هو دليل لاجدال فيه على امامة الحسن والحسين. ان الأئمة هم اختيار الله الذين احبهم الرسول كما احبهم الله. وبالنتيجة فان اولئك الذين احبهم الله ورسوله، احبتم المخلوقات، خاصة البشر، اجمع. ويقال ان النبي في احد الأيام صلى بينما كان الطفلان بين ذراعيه "يا الهي انني احبهما فهل تحبهما انت أيضا وتحب أولئك الذين يظهرون الحب لهما"[2] ان هذه القصة مروية بشهادة سلمان الفارسي ولكن مع تقليد آخر يعبر بوضوح عن التضمينات الالوهية لهذا الحب. إذ يقول الرسول "ان الله يحب الحسن والحسين والذي يحبه الله أحبه انا والذي احبه انا يحبه الله والذي يحبه الله يدخله الله جناته ولكن ذلك الذي يكرهه الله يدخله الله جهنم"[3].

ان هذه القصص تشير إلى الحقيقة وهب ان الحب لهذين الإمامين يرتبط مباشرةً مع المجتمع الشيعي بحب الله والنبي. وفي تفسير للاية القرآنية الشهيرة (المباهلة) أي صلاة التضرع[4]. ان نظرية اللاهوت الشيعية عن الأئمة تذهب خطوة ابعد وتعرف العائلة المقدسة مع الرسول وبطريقة مباشرة جداً. ان الكلمات "انفسنا" يقال انها تشير إلى علي والرسول "نساءنا" إلى

---

(١) المفيد، ص ١٨٠.

(٢) المصدر نفسه، صفحة ١٨٠.

(٣) المصدر نفسه، صفحة ١٨١.

(٤) القرآن ٦١:٣، الآية تقرأ: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾. اربيرين المجلد الاول، ص ٨٢.

فاطمة و"واولادنا" إلى الحسن والحسين[1]. ان الكتاب الشيعة يربطون قصة صراع الرسول مع مسيحيي نجران في تأكيد دور العائلة المقدسة في هذه القصة. وافق المسيحيون في البداية على التزام المباهلة في اليوم المحدد الا ان اسقفهم اوصاهم قائلاً "لو جاءنا محمد مع أصحابه فلن نخاف أي أذى، اما اذا جلب عائلته معه فعندها لن نلتزم بالمباهلة."[2] وعندما رأوا الرسول راكعاً مع علي وفاطمة وولديهما الاثنين يحيطان به قال الاسقف "بحق الله انظروا إلى محمد راكعاً على ركبتيه كما فعل الرسل من قبله"[3]. وبخوف ورهبة طلبوا ان يعتذروا عن المباهلة وقبلوا ان يدفعوا عنها جزية كبيرة وحتى ان بعضهم اعتنق الإسلام.

هناك الكثير من القصص التي تروي تلهف الرسول على الطفلين خشية حدوث أي عارض لهما وكيف انه كان مشغولاً بتأمين الحماية والسعادة لهما. هناك نوع من قصص سير الأنبياء التي توضح قلق الرسول هذا على الحسن والحسين بطريقة مؤثرة وشاعرية في قصص تروي ضياع احدهما او كلاهما معاً. ومما لا شك فيه فان امهما تفتقدهما وتهرع إلى ابيها طلباً للمساعدة إذ كان النبي وأصحابه يقومون بالبحث عنهما فيجدونهما نائمين، احدهما في حضن الآخر، في بستان يهودي في المدينة. إذ يقف حيوان، غالباً ما يكون ثعباناً، لحراستهما والذي يسلم له وديعته الغالية متفوهاً بتسابيح ربانية شاهداً على نبوة محمد وعلى المكافأة المباشرة التي

(١) لتحليل كلمة (مباهلة)، انظر إلى ماسينون،اوبيرا مينورا، المجلد الأول، ص ٥٥٠، وكذلك العديد من المصادر الشيعية مثل ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ١٥١، والمفيد، ص ١٨١، وأخيرا النيسابوري، ص ١٥٦.

(٢) ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٣ - ١٤٧.

استلمها من الله على عمله الطيب هذا[1].

وفي إحدى القصص التي تروى بذمة الإمام السادس، تجمع بين عدة عناصر من الفولكلور وحتى بعض التلميحات عن إهمال عائشة للأطفال. وعلى الرغم من انه من المألوف في التقاليد الشيعية ان أي قصة تخص الرسول وعائلته تحدث عادةً في بيت ام سلمة. وفي هذا التقليد يشير إلى ان الرسول كان مريضاً في بيت عائشة فجاءت ابنته وولديها لرؤيته الا انه كان نائماً. وأخيرا رحلت الام تاركةً الصبيين نائمين على كل من ذراعي الرسول. وعندما استيقظا قبله انطلقا إلى البيت الا ان الليلة كانت مظلمة وممطرة فضل الولدين الطريق. ودخلا إلى بستان تعود إلى قبيلة بني النجار اليهودية. اما الرسول فلقد استيقظ جزعاً لأنه لم يجد الولدين بجانبه فذهب ليبحث عنهما وظهر هناك نور يدله على مكان تواجدهما إذ قررا ان يناما حتى يطلع النهار. أمطرت السماء حولهما ماعدا البقعة التي كانا نائمين فيها وكان هناك ثعبان ضخم ومخيف بشعر كثيف يشبه الخيزران وكان يغطي الطفلين بجناحيه الضخمين. وخاف الرسول ان يؤذي الثعبان الطفلين فتقدم الرسول بسرعة مسلكاً حنجرته حتى يخيف الثعبان ويذهب بعيداً. ولكن عندما انتبه الثعبان إلى وجود الرسول زحف الثعبان بعيداً عن الطفلين قائلاً "يا الهي انني اناديك وانادي ملائكتك لتشهدوا ان هذين الاسدين الصغيرين لرسولك ولقد حرستهما باخلاص وانني الآن اعيدهما اليه بامان وسلام"[2].

ثم اخبر الثعبان محمد انه كان احد الجن (جن نصيبين) إذ نسى الناس إحدى آيات القرآن. ولقد أرسل ليتعلمها ثانية من الرسول ولكن عند

---

(١) لمثال جيد على مثل هذه الأساطير، انظر الخوارزمي، المجلد الأول، ص ١٤٤.

(٢) النيسابوري، ص ١٥٨.

وصوله إلى تلك البقعة سمع صوتاً يقول "ايها الثعبان ان هذين الاسدين الصغيرين يعودان للرسول فاحرسهما من كل خطر ومن كل شرور النهار والليل"[١] وهكذا ذكر الرسول الثعبان الجن بالآيات ومن ثم حمل الطفلين إلى البيت على كتفيه بقلب مسرور.

يصور حب الرسول للطفلين بعدة طرق من قبل المؤرخون وكذلك كتاب سير القديسين من الشيعة والسنة. فهم يحكون كيف ان الرسول جمد نفسه في صلاة بعد أن قفز الطفلان على ظهره وظل يصلي حتى نزلا عن ظهره من تلقاء نفسيهما، وكيف انه كان معتاداً على اللعب معهما كأنه والدهما. وكيف انه في المسجد عندما يلقي عظةً مهمة إذ يأتي الطفلان مسرعان، يقطع موعظته تاركاً منبره لجلب الطفلين اليه[٢].

كما يظهر حب الملائكة للطفلين واضحاً وفي عدة قصص تحكي كيف ان الحسين بكى في مهده وكانت امه متعبة ولم تستيقظ لصراخه فكان احد الملائكة ينزل ليهدئه ويلعب معه. وفي الحقيقة فانه دائماً ما يقال ان الملائكة كانت تبكي لبكاء الحسين وكلما سمعه الرسول يبكي كان يأمر المربية ان تهدئه موبخاً اياها قائلاً "الم اخبرك ان بكاءه يؤلمني"[٣].

وفي تقليد أخير الذي يحكى من عدة كتاب وبعدة تنوعات غنية تستحق الذكر هنا للربط الذي تشير اليه بين حب الرسول للطفلين واستشهاد الحسين. كان الطفلان يتصارعان معاً يوماً ما وكان الرسول يشجع الحسن

(١) المصدر نفسه، صفحة ١٥٩.

(٢) انظر على سبيل المثال قسمين في كتاب ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ١٥٣ عن حب النبي للحسن والحسين والعديد من مزاياهم الأخرى.

(٣) انظر إلى الطريحي، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

اما فاطمة فلقد اعترضت على ذلك على ان الرسول كان يتحيز لجانب الاكبر على حساب الاصغر. فاجابها، ان جبرائيل نفسه كان يشجع الحسين. وعندما لم يستطع الطفلان ان ينتصر احدهما على الآخر سألا الرسول ان يحكم منهما كان الاقوى. الا انه، إذ لم يكن راغباً في جرح مشاعر أي منهما، اقترح ان يكتبا شيءاً وان الذي يكتب بخط جميل سيكون هو الاقوى. ومرة أخرى لم يكن راغباً في اتخاذ أي قرار لان الرسول اخبرهم انه كان رسولاً أمياً وانه من الافضل لهما ان يلجآ إلى والدهما. الا ان الاب لم يكن أيضا راغباً في ان يقرر لصالح اي منهما فأرسلهما إلى امهما. إذ قررت انها ستقوم بنثر عقد من اللؤلؤ كان على رقبتها ومن يستطيع ان يجمع اكبر عدد من اللالئ سيكون هو الاقوى. جمع الطفلان العدد نفسه من اللالئ وبقيت هناك لؤلؤة واحدة باقية إذ بدأ العراك حولها مجدداً. اما جبرائيل، مثل والديهما وجدهما، لم يكن راغباً في ان يكسر فؤاد احدهما فضرب اللؤلؤة الباقية بجنحه شاطراً اياها إلى نصفين إذ حصل كل طفل على نصف منها وبهذا تم اصدار الحكم على تعادلهما وحُلت المشكلة.

هذه القصة ترد في الكثير من مصادرنا[١]. ففي المصادر اللاحقة ستتم الاستعانة بهذه القصة للمقارنة بين حب الرسول للائمة مع معاناة الاستشهاد الذي تحملوه تحت حكم أمية. إذ تشير هذه القصة إلى يزيد في ان شخص مسيحي كان قد شهد الحادثة ولام الحاكم القاسي على قسوته نحو الحسين. كان راس الحسين آنذاك موضوعاً امام يزيد وقد جيء به من كربلاء. إذ اعلن المسيحي اسلامه وحضن رأس الحسين واستشهد أيضا

(١) انظر المجلسي ٤٥.

على يد يزيد[1].

تسند رواية ان الأئمة هم الورثة الوحيدون للرسول من قبل المصادر الشيعية الموثوقة، بحجة ان الحسين قد افتدي بحياة ابراهيم، الولد الوحيد الذكر للرسول. من أكثر التفسيرات تشويقاً لهذه الحادثة وبطريقة افتدائية هي تلك التي قدمت من قبل كاتب "اثبات الوصية". إذ يخبرنا كيف انه عندما مرض ابراهيم حزن الرسول كثيراً لمرضه وفي مصادر أخرى يقال ان الرسول كان قد وضع ابنه والحسين على حضنه عندما نزل الملاك جبرائيل سائلاً اياه ان يختار بينهما لان الله لم يكن يريده ان يحتفظ بكليهما فاختار حياة الحسين على ولده الذي مرض في الحال وتوفي بعد ثلاثة أيام فقط[2].

وتبعاً "لإثبات الوصية" نزل الملاك جبرائيل إلى الرسول حاملاً الرسالة السماوية، قائلاً:

"ان الله يرسل اليك سلامه وتحياته ويقول (ان تختار اما حياة ابنك إبراهيم الذي سيوهب الحياة وميراث النبوة من بعدك. إذ سيقوم كل مجتمعك بالاشتراك بقتله وسأرسلهم جميعاً آنذاك إلى النار. او ان تختار الحسين حفيدك (سبط) وسيعيش وسأجعل منه اماماً من بعدك. وسيقوم نصف رعيتك بقتله (بعضهم سيقومون بقتله وبعضهم سيساعد الآخرين ضده، والبعض الآخر سيتركونه) وسأرسل أولئك الناس فقط إلى النار".

(١) راجع المصدر نفسه، ص ١٥٠، وللمزيد، انظر الطريحي، ص ٦٤، والدربندي، ص ٢٥٦.

(٢) انظر ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ٢٣٤٥، والطريحي، ص٥١. أن الطريحي هنا يحذف من قصته "ماريا " والدة إبراهيم ويؤكد على حب النبي للحسن والحسين.

فأجاب الرسول "انني أفضل ان تذهب كل رعيتي إلى النار وان يعيش الحسين على ان تحزن فاطمة على فقدان ابنها"[1] وهكذا فان الرسول كان معتاداً على ان يحتضن الحسين "فلأكن فداءً له ذاك الذي افتديته بابني إبراهيم"[2]. ان التضمين الخلاصي لهذه القصة ذو وجهين. ان الحسين نفسه قد افتدي من قبل شخص كان سيكون نبياً لو كتبت له الحياة، وان الحسين بدوره يحرر على الأقل نصف الرعية بحياته وموته معاً.

هذا التقليد يقودنا قريباً من التقليد التعليمي الا انه في النهاية يفشل في تحقيق ذلك. فان الكاتب يهدف إلى إظهار كلاً من الله والرسول يختارا الإمامة في خلافة النبوة. فلو عاش إبراهيم لكان نبياً. الا أن الكاتب في النهاية يختار تكرار الفكرة الشعبية العامة لكل الكتاب ان هذه الحادثة تبرهن على حب الرسول للحسين وحتى على حساب ابنه. في الحقيقة كما رويت من قبل معظم الكتاب اقل من ان تكون منزهة. فالنبي يوضع ليفكر بعقلانية اختياره على أساس انه لو توفي ابنه فان أمه "ماريا القبطية" ستحزن لموته ولكن ذلك لن يكون هاماً لأنها كانت مجرد خادمة. أما هو نفسه فلقد كان من الصعب عليه تحمل هذه الخسارة، ومن الناحية الأخرى فان موت الحسين كان سيحزن فاطمة، علي وحسن ولم يكن راغباً في إحزانهم جميعاً. انه من الشيق ان نرى انه لا احد من هؤلاء الكتاب قد ناقش وببساطة حب الرسول النقي للحسين الا ان الجميع فضلوا البحث عن دافع خارجي نوعاً ما عن العلاقة بين الرسول والإمام.

لقد أثارت مسألة استمرار الإمامة في سلالة الحسين، الخلاف في المجتمع الإسلامي الأول. فلقد استمرت المسألة على نحو جيد حتى القرن

(١) المسعودي، إثبات، ص ١٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦١.

السادس للهجرة إذ لم يكن احد يستطيع الكلام بشكل صريح او مطلق عن واحد او اثنين من الادعاءات للائمة بدون أن يكون لواحد أو اثنين من سلالة علي. ان الحديث الآتي المأخوذ من مصدر سني معروف (الخوارزمي) حقيقة واضحة في تأييد إمامة الحسين ونسله.نقل هذه الحديث بذمة سلمان الفارسي الذي يعد بحد ذاته حقيقة شيقة كون اعتبار سلمان ابو الفكر والتقليد الشيعي. ففي احد الأيام حمل الرسول الحسين في حضنه مقبلاً إياه قائلاً "أنت السيد ابن إمام وأبو الأئمة أنت الحجة (الدليل الإلهي على كل الخليقة) ابن حجة وأبو الحجج، تسعة من الأئمة سيكونون من صلبك والتاسع سيكون القائم (المهدي)"[1].

كان التقليد الشيعي يصر على الدوام ان الإمامة لم يكن لها ان تقوم على الاختيار البشري او أي اختيار اعتباطي[2]. بل هي أي الإمامة ميراث الهي سماوي من الرسول إلى علي ومنه إلى ابنه الأول الحسن ومن ثم الحسين. الا انه وبعد الإمام الثالث برزت الاختلافات بين المجتمع الشيعي الحديث على اساس أي من اولاد علي كان يجب ان تستمر الإمامة على يديه. او ان تبقى في نسل الحسين ولا نحتاج هنا إلى ان ندخل في تعقيدات هذا النزاع فان المادة التي نوقشت لحد الآن توفر دليلاً واضحاً من وجهة نظر الشيعة الاثني عشر على الموقف الأخير. ومن المهم ان نناقش وبشكل مختصر وصية الحسن لاخيه ابن الحنفية المنافس الآخر على مكانته. ان هذه الوثيقة او بمعنى اصح المحاورة بين الأخوين توضح موقف الاثنى عشربة نحو الأعضاء الآخرين في عائلة او أسرة علي. فهي تأخذ عن فمه تقديراً كبيراً لأخيه الشهيد واعترافاً واضحاً على سلطته كأمام بعد موت الحسن.

---

(١) الخوارزمي، المجلد الأول، ص ١٤٦.

(٢) انظر للفصل الثاني.

فعلى فراش موته استدعى الحسن اخيه ابن الحنفية لكي يقدم له كلماته الأخيرة المحذرة لاي شعور بالحسد او الغيرة تجاه الحسين (ابن الحنفية تجاه الحسين). فلقد حذر أخاه من ان يدعي لنفسه حق الحسين في الإمامة بعد موت الحسن. إذ قال الحسن "يا محمد (ابن الحنفية) الا تعلم ان الحسين بن علي هو الإمام بعد موتي..؟ لان هذا هو حكم الله في القرآن كميراث من الرسول أجازه الله فيه كهدية منه (أي الرسول) إلى أبيه وأمه. من غير ريب ان الله يعلم انك (العائلة المقدسة) هي اختياره من بين كل الأنام. لذا فقد اختار محمد من بينكم الذي اختار علي وعلي اختارني للإمامة وانا اخترت الحسين"[1]. اتفق ابن الحنفية مع كلمات اخيه. وبعد ان امتحه قال "حقاً ان الحسين من أكثر أقارب الرسول علماً وحكمةً" واعاد كلمات الحسن فيما يخص اختيار الله للعائلة المقدسة واختتم حديثه قائلاً "نحن نسلم اذاً ونقبله (أي الحسين) الذي اظهر الله فيه مشيءته ومن خلاله سننجو من كل المشكلات"[2].

٣-٢ فضائل الحسين وسنواته الأخيرة

ان التقليد الإسلامي وبشكل عام يؤكد وبوضوح امتلاك الحسين لعلم كبير، حكمة، حلم، شجاعة وتقوى أنموذجية. فبالعلم نعني العلم الديني والنبوي وهذا العلم النبوي هو علم الكتاب الذي يؤهل الرسل والأئمة لانجاز المعجزات، والعلم نفسه يعد معجزة بحد ذاته.

---

(١) الطبرسي، اعلام، ص ٢١٥، وأيضا كليني، كافي المجلد الأول، ص ٦٩ - ٧٢٥.

(٢) في نهاية الجملة هناك إشارة إلى وظيفة الامام، والمتمثلة بالوظيفتين المنقذ والمعلم. وكلمة مشكلات هنا تعني المشقة، ومنبع الصعوبات المنيعة، انظر الطبرسي، اعلام، ص ١٥٩، والهامش رقم (٧) أعلاه.

قيل ان الاصبغ بن نباتة احد الأصحاب الدائمين لعلي الإمام الأول، وابنيه قد سأل الحسين ان يكشف له عن احد أسرار الله. وهو يعني إظهار معجزة ما. اما الإمام وكان يعلم ما بقلبه او ما يعنيه، سأله اذا كان يحب ان يراه يتحاور مع رسول الله في احد مساجد الكوفة. وفي الحال وجد الاثنين نفسيهما في الكوفة منتقلين من المدينة.إذ ظهر الرسول وعلي وتحدثا مع الحسين لمدة ومن ثم نقلاه معهما إلى الجنة. وعندما عاد الحسين إلى الأرض وابتسم وقال "يا اصبغ ان سليمان قد أعطي الأجنحة لينتقل من وإلى مسافة تستغرق شهراً لقطعها، الا انني انا قد وهبت أشياء أعظم من تلك التي منحت لسليمان"[(١)]. وبعد محاورة طويلة عن فضائل العائلة المقدسة استمر الحسين في قوله "إننا نحن الذين نملك علم الكتاب وشرحاً لما يحويه"[(٢)].

وكطفل كان الحسين قد تنبأ باستشهاده وان ابن سعد سيقود جيوش أموية ضده. وعندما سئل الرسول يوماً ما إذا كان قد اخبر الحسين بذلك أجاب "كلا، ان علمه من علمي وان علمي علمه لأننا نعلم مجريات الأحداث حتى قبل أن تقع"[(٣)].

لقد أعطي الأئمة قوة تحقيق المعجزات كالأنبياء دليلا على إمامتهم. الا ان المعجزات المنسوبة إلى الإمام الحسين على الأغلب لا تعني بها قدراته الخارقة وحظوته لدى الله بل معرفته الكبيرة وحكمته أيضا. وسنتناول القليل من الأمثلة التي تظهر هذه الصفات الخاصة لقدراته الخارقة.

---

(١) الإشارة هنا إلى ملكة سباء بلقيس، القرآن ٢٣: ٤٤ - ٤٤.

(٢) المجلسي ٤٤، ص ١٨٠ - ١٨١، وانظر ايضا ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ٢١١.

(٣) ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ٢١١.

جاء يوماً إلى الحسين رجلان مع امرأة وطفلها وكل رجل كان يدعي ان الطفل له. اما المرأة فقد أثبتت حق احد الرجلين على الآخر إلا ان المسألة ظلت غير قابلة للتسوية. فواجه الحسين القبلة وتمتم بعض الكلمات غير المفهومة ثم استدار مخاطباً الطفل الرضيع ويأمره "تكلم بأذن الله وقل الحقيقة"، فتكلم الطفل قائلاً انه ليس ابن احد منهما بل هو ابن احد الرعاة وأعطى عنوانه واسمه وصمت ثانية[1].

وفي مرة أخرى جاء الحسين رجل شاب دامع قائلاً ان أمه كانت امرأة ثرية الا انها ماتت دون ان تترك وصية. فخاطب الحسين أصحابه قائلاً لهم "لنذهب ونرى هذه المرأة الحرة (الشريفة)". فذهب وجلس عند رأسها في القبر وصلى حتى تعود إلى الحياة لكي تلفظ وصيتها. وحالما انهى صلاته عطست المرأة وجلست وقالت الشهادتين وحيّت الإمام بما يليق بمقامه وقالت أمنيتها فيما يخص وصيتها وأمور أخرى ومن ثم عادت واستلقت وعادت إلى الموت[2].

وهناك قصص أخرى تحكي كيف ان الإمام شفى احد الرجال من مرضه فقد كان يعاني من الحمى بأمرها ان تترك جسده إذ أطاعته الحمى وتركت جسد الرجل ناطقةً بكلمة الاستجابة لأوامره. وهذه القصة الأخيرة تروى في العديد من مصادرنا الا أنها تبدو تراجيدية أكثر من القدرة الطاهرة على تحقيق المعجزات. فالحمى الناطقة تعترف بإمامة كل الأئمة وتعرف عن نفسها بأنها واحدة من أتباعهم وهذا من المدهش حقاً

(١) المصدر نفسه، ص ٢١٠.

(٢) للمزيد عن هذه المعجزة والمعجزات الاخرى المنسوبة للإمام الحسين، انظر ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ٢٠٩ - ٢١١، والمجلسي ٤٤، ص ١٨٠.

بالنسبة إلى معجزة[1]. وهناك قصة أخرى تروي انه وفي زمن خلافة علي جاءه جماعة من أهل الكوفة يشكون من قلة المطر الذي هدد حياتهم وحياة حيواناتهم بالهلاك. فأمر علي الحسين ان ينهض ويصلي من اجل المطر[2]. فنهض الحسين وصلى فترة طويلة وقبل أن ينهي صلاته بدأ المطر بالانهمار حتى ان الأودية القريبة غمرت بالمياه[3].

تهدف المعجزات التي يحققها الأنبياء والأئمة وأولياء الله إلى إثبات العلاقة الوثيقة بين الله وأوليائه وكذلك المكانة الخاصة (الكرامة) التي يتمتعون بها. ان هذا الجانب الأخير من مفهوم المعجزات دائماً ما يربط مع قديسي الصوفية خاصةً. ان نفكر ان الكرامة هي هدية القديس الصوفي هو ان نتجاهل العديد من التقاليد الورعة او التقية التي تؤكد ان النبي هو "ولي" أيضا. والشيء نفسه ينطبق على الأئمة مباشرةً في العديد من التقاليد. فالمعجزات التي يوفر فيها الله الطعام للأنبياء والأئمة والقديسين ولاسيما الفواكه التي تنمو في غير موعدها هي من المعجزات الشائعة جداً. ولقد ذكرنا البعض منها في الفصل الأول من هذه الدراسة. وهناك مثل نموذجي آخر وهو ما يذكر في كتاب "دلائل الإمامة" للطبري، ان "علي الأكبر ابن الحسين الأكبر عبر عن رغبته في أكل العنب في وقت لا ينمو العنب فيه، اما والده الذي لم يكن يريد ان يخيب أمله فلقد وصل إلى احد أعمدة الجامع واخذ عنباً وموزاً وأعطى هذه الفاكهة إلى ابنه قائلاً له "ان ما

---

(١) ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ٢٠٩.

(٢) إن الصلاة المعروفة "بصلاة الاستسقاء" في الإسلام هو تقليد معروف يعود إلى النبي.

(٣) المجلسي ٤٤، ص ١٨٨.

يحتفظ به الله لأصحابه (الأولياء) أعظم من هذا بكثير"[1].

يصور الحسين في التقاليد الشيعية والسنية كرجل شديد التقوى، والتواضع والحكمة. وهناك الكثير من القصص المؤثرة التي تحكي عن أعماله لعظيمة والكريمة التي قام بها بتواضع أمام الله وبمحبة تجاه الإنسان. فعلى سبيل المثال رأى مرةً مجموعة من الشباب الفقراء يأكلون خبزاً يابساً على جانب الطريق فدعوه ان يشاركهم وجبتهم البسيطة وهذا ما فعله بالضبط. ثم أخذهم جميعاً إلى بيته وأطعمهم وألبسهم وبتواضع ملحوظ قال: "إنهم أكثر كرماً مني لأنهم أعطوا كل ما يملكون في حين أعطيت إنا القليل مما املك" ثم قال "حقاً إن الله لا يحب المتكبرين"[2].

وفي مناسبة أخرى حيت الإمام خادمة بريحانة كانت تحملها فأجابها "اذهبي فأنت حرة لوجه الله" إذ اعترض احد أصحاب الرسول الذي كان حاضراً على ذلك بحجة انها حيت سيدها بما يليق بخادمة الا ان الحسين قال "الم تقرأ كلمات الله" (اذا حييت بتحية فردها بأحسن منها) وان أحسن تحية كان يمكن ان أقدمها بالمقابل هو ان اعتقها"[3].

اما رأفة الحسين فيمكن ان نلاحظها من القصة الآتية، ففي احد الأيام جاء الحسين احد خدمه الذي أثار غضبه بسبب إساءة قام بها الخادم. وكان الحسين على وشك ان يعاقبه عندما ذكر الخادم كلمات من

---

(١) الطبري، دلائل، ،ص ٧٣. إن أعظم معجزة منسوبة إلى الامام تتعلق باستشهاده أكثر من أي شيء أخر.

(٢) الخوارزمي، المجلد الأول، ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٣) نور الدين علي بن محمد بن احمد المالكي المكي (المعروف بالصباغ)، الفصول المهمة في معرفة الأئمة، (طهران: ١٣٣٣ هـ)، ص ١٨٣ وكذلك انظر القرآن ٨٦:٤.

القرآن" قائلاً "يا سيدي . . .(ان أولئك الذين يكظمون غيظهم). . . ."، فأجاب الحسين "دعوه يمضي وانا كظمت غضبي" واستمر الخادم ". . .غفوراً نحو الناس.." فأجاب سيده "وقد غفرت عنه" وأضاف الخادم "ان الله يحب المحسنين"[1] فأجاب الإمام "انك حر لوجه الله" ثم أعطى الخادم هديةً كبيرة[2]. هكذا فان غضب الإمام تحول إلى رأفة كريمة عندما وجه بالنصيحة الإلهية بالمغفرة والعفو.

اما عطف الحسين واهتمامه بالفقراء والمحتاجين فيشهد لها بمقولة من معاوية. فهذا الحاكم آلاموي العدو القديم لعلي ولعائلته شبه موقف الحسين من الثروة مع تلك التي لدى اخيه. فلقد أرسل معاوية هدية قيمة من الملابس، العطور وغيرها من الهدايا الثمينة قائلاً ان الحسن بالتأكيد سيعطي جزء من هذه الهدايا إلى زوجاته ونساء أخريات. الا ان الحسين سيوزعها كلها على الأرامل والأيتام الذين قتلت آبائهم في الحروب[3].

ويقال انه وفيما بعد عندما كان الحسين ملقى عارياً مقطوع الرأس على ارض كربلاء سأل الناس عن سبب الندوب السوداء على ظهره فوضح ابنه علي زين العابدين انها كانت نتيجة حمل الحسين الكثير من أكياس المؤونة الثقيلة إلى بيوت الأرامل والأيتام في المدينة وهذا ما كان معتاداً على فعله في

---

(١) جميع الاقتباسات عن الشجرة هي من القرآن ١٣٤:٣، اربيري، المجلد الأول، ص ٩٠.

(٢) انظر ابن الصباغ، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٣) عبد الله العلائلي، الامام الحسين، (بيروت: دار مكتبة التربية، ١٩٧٢، ص ٣٢٧).

الليل حتى يخفي أفعاله الجيدة عن بقية الناس[1].

كما نرى بوضوح قيام الحسين بالتزاماته الدينية كافة في حياته اليومية من خلال جوابه لرجل سأل عن السبب الذي أقام فيه الله الصوم في رمضان إذ أجاب "ان الله جعل الصوم فرضاً حتى يشعر الغني بألم الجوع الذي يعاني منه الفقير ومن ثم يشترك بثروته مع الفقير"[2]. وفي إحدى عظاته قال الحسين عن معنى وروح العطاء "ان الاحتياجات التي يطلبها الناس منك هي من تعابير حظوة وتفضيل الله لك لذا لا ترفضها او تنكرها على المحتاجين حتى لا تتغير هذه الحظوة إلى لعنات تحل عليك"[3]. انه من الواضح من خلال هذه المقتطفات القصيرة والكثير من الأقوال المنسوبة إلى الحسين إذ تدل انه كان من الأسهل عليه ان يعطي بدلاً من ان يسأل. فلقد قيل عنه "ان الرجل الذي لا يبقي على ماء وجهه من عار سؤالك يستحق منك ان تبقي ماء وجهك من عار رده عن تلبية طلبه"[4].

ان صفة المروءة العربية القديمة من الصفات العربية القديمة الراسخة في المجتمع العربي قبل وبعد الإسلام. وحاولت المثالية الإسلامية ان لا تستبدل

---

(١) ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ٢٠٩، المجلسي ٤٤، ص ١٩٠، يوسف بن الفرغلي بن عبد الله البغدادي سبط أبي الفرج عبد الرحمن بن الجَوزي الحنفي، تذكرة الخواص، والمعروف أيضا بتذكرة خواص الامة في خصائص الأئمة، طبعة السيد محمد صادق بحر العلوم (النجف: المطبعة الحيدرية١٣٨٣، هـ/ ١٩٦٤ م، ص ٢٥٤).

(٢) ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ٢٢٣.

(٣) ابن الصباغ، ص ١٨٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨٥، وأيضا الملحق الثاني عن النصوص الكاملة لأقوال الحسين.

الدين بهذه الصفة كما ناقش ذلك جولدزيهر[1] بل حاول تطبيعها مع الإيمان او الدين. تعبر هذه الفضيلة العظيمة عن نفسها بالكرم وهو التعبير عن العطاء والضيافة للغرباء والصفة العامة لنبل الشخصية. فلقد رأينا التعبير عن هذه الفضيلة في أقوال الحسين إذ يتم التأكيد عليها في قصص عن تعامله اليومي مع الناس ولاسيما أولئك الذين كانوا غرباء بالنسبة له.

وقف مستجدي بدوي على باب الحسين بينما كان واقفاً يصلي قائلاً الآيات الآتية:

"لا ترد عن بابك الذي يأتي إليك خالي اليدين لأنك رجل كريم ومن معدن نبيل الم يكن والدك يقتل المفسدين".

قطع الحسين صلاته وذهب إلى الباب إذ رأى الرجل الذي يعبر مظهره عن الفقر والحرمان. فصاح الحسين خادمه وسأل عما بقي له من مال فقيل له ٢٠٠ درهم التي وجه الحسين بتفريقها على أعضاء عائلته الا ان الحسين قال "اجلب لي المال لان هناك شخص يستحقها أكثر منهم". ومن ثم أعطى المال للرجل قائلاً له:

"خذ هذا الكيس من المال واعلم انني اعتذر منك بكل إخلاص. فلو كانت أحوالنا أحسن لأمطرت السماء عليك (أي بمعنى لأعطينا مثلما كانت السماء ستعطيك مطراً) الا ان خشية الموت (القضاء بعد الموت) شيء صعب الاحتمال ومع هذا فان أيدينا تملك أكثر لتعطي".

وبشكر اخذ الرجل الهدية وذهب بعيداً قائلاً:

---

(١) اغنز غولدزير، الدراسات الإسلامية، طبعة وترجمة س.م. ستيرن، (لندن: جورج الن، ١٩٦٧)، الجزء الأول، ص ١١.

"ان ثيابهم نقية وصافية (ويعني هنا الأشخاص) والصلوات تمطر عليهم أينما ذكروا، إذ تكمن فيكم (أهل البيت) المعرفة وكل ما تعلمه السور. فهل يمكن ان يكون هناك نبلاً أكثر من ذلك بين الناس"[1].

كما يحكى عن شهامة وكياسة الحسين في الكثير من القصص في بداية الإسلام والمؤرخين[2]. ولقد قيل ما فيه الكفاية في هذا الفصل عن خصائص الإمام. والاهم بالنسبة لنا هو الخصائص الخارقة المنسوبة له تلك الخصائص التي تتعدى حدود الاستيعاب البشري. يوضح الإمام السادس جعفر عمق علم او معرفة الأئمة (او حديثهم السري) الذي يصعب حتى على ملاك قرب العرش الإلهي او نبي أرسل من قبل الله[3]. ان هذه الجملة قد تحمل معنيين الأول هو ان الأئمة عجائبيين في وجودهم الجوهري بحيث ان المعلومات التي تخصهم أي (حديثهم) ذو طبيعة راقية ورفيعة جداً بحيث يصعب حتى على الملاك او النبي الاحتفاظ بها لنفسه بل ليعلنها لملاك او نبي آخر. ثانياً، ان غموض الأئمة بالغ جداً على الناس العاديين لذا لا يجب التصريح بكل رهبتها الا للمختارين فقط.

يجسد المعنى الثاني في القصة الآتي.جاء يوماً مجموعة من الرجال إلى الحسين ليحكي لهم عن حظوة الأئمة (فضائل) التي يتمتعون بها عند الله. الا ان الحسين حذرهم انهم لن يتحملوا مثل هذه المعرفة اذا كشف لهم

---

(١) ابن عساكر،المجلد الرابع، ص ٣٢٣.

(٢) للمزيد عن الحادثة المثيرة بين الحسين و معاوية ورسائل ابنه يزيد والتي تتعلق بالمرأة الجميلة اورينب، إذ تعطي تصويرا ابعد عن كياسة الحسين وكرمه. انظر إلى أبي عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧ هـ/ ١٩٥٧ م)، المجلد الأول، ص ١٩٠ - ٢٠٢.

(٣) الكليني، الكافي، المجلد الأول، ص ٢٥٥، وابن بابويه، المعاني، ص ١٨٨.

عنها. وعندما أصروا على ذلك وافق الحسين مضطراً إلى ان يتحدث إلى كل واحد منهم على حدة. فيأخذ الواحد جانباً ويتحدث معه لدقائق وفي الحال يفقد الرجل صوابه ولا يستطيع النطق. اما الباقون فلقد تركوا الحسين بدهشة ورعب. ومما لا شك فيه فإننا لا نعرف ما قاله الحسين للرجل لان الرجل نفسه جن الا ان بعض المصادر تذكر ان الرجل قد جُعل ينسى ما قيل له[١].

في هذه الدراسة أوضحنا بان شخصية الأئمة الخارقة تعود لحقيقة كونهم ورثة العلم الخاص ومن ثم فان لهم سلطة الأنبياء. وفي نقاشنا عن الأئمة في الفصل السابق رأينا ان معرفتهم كانت هبة خاصة من الله الذي يعلم كل شيء. وعلى الرغم من ان الأئمة لا يمتلكوا المعرفة الإلهية المطلقة الا ان الله وهب لهم المعرفة الخاصة بوقت وطريقة موتهم[٢]. والحسين كالأئمة من قبله ومن بعده فانه كان على علم بزمان و طريقة موته المأساوية بكل تفاصيلها المرعبة. يصر اللاهوتيون الشيعة والمختصون بالحديث الشريف على هذه الحقيقة ويقدمون الكثير من الأدلة لتأييد هذه الحقيقة[٣]. فعندما قرر الحسين السفر إلى العراق، أرسلت له أم سلمة طلباً في تغيير رأيه عن هذه الرحلة مذكرةً اياه بكل ما قاله الرسول له. فلو ذهب إلى العراق كما حذرته

---

(١) ابن شهرآشوب، المجلد الثالث، ص ٢١٠، المجلسي ٤٤، ص ٨٣ - ٨٤.

(٢) الكليني، الكافي، المجلد الأول، ص ٣٧٦، ٣٧٩، ٣٨٣.

(٣) باستثناء الحجة المقدمة من قبل السيد مرتضى في كتابه تنزيه الأنبياء (النجف: المطبعة الحيدرية، الطبعة الثانية، ١٣٨٨ هجرة/١٩٦٨ ميلادية، ص ٢٢١). بأن الحسين قد أصر على الذهاب إلى العراق بحسب الوعد المساندة، ولكنه لم يعلم ما ينتظره هناك، فهنالك الكثير من الانتقادات من قبل كتّاب ومؤلفين اخرين، انظر إلى آلامثلة الحديثة: سيد محسن الأمين العاملي كتابه، لوائج الأشجان في مقتل الامام أبي عبد الله الحسين" (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٨١ هجرية/ ١٩٦٢ ميلادية، ص ٢٢١).

فانه بالتأكيد سيقتل، ومع هذا أجاب الحسين :

"بالله يا ام سلمة فإنني سأقتل بكل تأكيد. فلا مفر من القدر المكتوب من الله ولا مفر لي من الموت فإنني حقاً اعلم اليوم والساعة والمكان الذي سأقتل فيه. واعلم المكان الذي سأسقط فيه كما أعرفك فاذا أردت ان اريك مكان موتي ومن بين الرجال سيستشهد معي فسأفعل"[1].

ثم صلى الحسين مكبراً اسم الله حتى بدأت الأرض تنهار إلى الأسفل حتى أراها مكان دفنه وأصحابه. ثم أعطاها قليلاً من تراب كربلاء الذي مزجته مع التربة التي أعطاها إياها الرسول عندما كان الحسين طفلاً بعد طالباً إياها ان تنتظر العاشر من محرم يوم (عاشوراء) حين سيقتل بعد صلاة الظهر[2].

وكالعديد من الشهداء من قبله ومن بعده، فان الحسين يعد تضحية مقدسة على مذبح الحقيقة. تلك الحقيقة التي ستستمر في قيادة تاريخ الإنسانية إلى انجازها الأخير انسجاماً مع خطة وارادة الله. والحسين مثل الكثيرين من الشهداء في سبيل الله واجه صراعه مع الموت بشجاعة، إيمان وثقة. الا ان هذا التوكيد كانت تعتمه احياناً احزان ودموع الإنسان العادي الذي يحب الحياة ويخشى الموت. وفي كلام الحسين الأخير وكلمات الوداع الأخيرة لاهل المدينة، نرى بعضا من أعماق تلك المشاعر الإنسانية

(١) المسعودي، اثبات، ص ١٦٢.

(٢) ابن عساكر في تأريخه، يروي بعض الاحاديث المتعلقة بالمعرفة المسبقة لأم سلامة عن مقتل الحسين ومسالة ظهور الدم بالتربة التي كانت قد احتفضت بها في يوم مماته نفسه. ولكن الؤلف يتساءل عن صدق هذه القصص والاقاويل، نظرا لما يؤكده الواقدي بأن ام سلامة قد ماتت قبل موت الحسين بثلاثة أعوام، انظر للجزء الرابع، ص ٣١٤.

التي يعبر عنها في إطار الاستسلام إلى الإرادة الإلهية وقبول الحكم الإلهي وطلب من أصحابه ان يشتركوا معه في هذه المحنة المؤلمة والحزينة:

"لقد كتب الموت على أولاد آدم كما توضع القلادة على رقبة الفتاة الشابة. كم عظيم هو شوقي لرؤية أجدادي مثل شوق يعقوب لرؤية يوسف. لقد كتبت الشهادة علي و قريباً سألقاها. إنني أرى أحشائي تمزقها وتفترسها الوحوش على ارض كربلاء وسيملؤون مني معدهم الخاوية... ولا مفر هناك من يوم قضاه وكتبه القلم"[1].

وبعد هذه الكلمات والاستسلام المليء بخيبة الأمل ذهب الحسين ليؤكد قبوله وامتنانه بالإرادة الإلهية محدداً حظوة العائلة المقدسة لدى الله.

"ان سعادة الله هي سعادتنا ونحن آل البيت نتحمل نوائبه بصبر وهو يكافئنا على ذلك بما يتناسب مع الصابرين. يقيناً، ان جسد رسول الله (أي العائلة المقدسة) لن تفترق ابداً عنه. بل انها ستجتمع من اجله في حضيرة القدس، وهناك في جنان الجنة ستقر بهم عيني الله وسيفي بوعوده لهم"[2].

بكلمات التأكيد هذه دعا الإمام سامعيه للالتحاق به متحدياً إياهم ان يضحوا بأنفسهم وبعوائلهم حتى يلاقوا الله معه. وأنهى الحسين خطبته بإعلان عزمه الرحيل إلى العراق في صباح اليوم التالي. لقد اعتبر الحسين استشهاده نصراً كما نقرأ عن ذلك في رسالة قصيرة يقال انه أرسلها إلى أعضاء عائلته، أبناء هاشم: "ان من يلحق بي من بينكم سيستشهد اما

---

(١) علي بن عيسى الاربيلي في "كاشف الغمة في معرفة الأئمة (إيران: لا يوجد مكان، ٦٨٧ هجرية/ ١٢٨٨ ميلادية، ص ٢٠٤).

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٤، وأيضا ابن طاووس، اللهوف، ص ٣٣ - ٣٤.

الذي سيتخلف فلن يحقق الفتح"[1].

في الفصل التالي سنتابع الإمام من المدينة إلى مكة مع أصحابه القلائل ولكن الشجعان إلى كربلاء. وأخيرا ومن هناك سنتابع الأسرى الذين سيرافقون رأس حفيد الرسول إلى دمشق ومن ثم إلى المدينة. ويجب التأكيد مرة أخرى على ان اهتمامنا في هذه الدراسة ليس في البحث عن تاريخ الحسين بل في تاريخ قصص سير القديسين الشيعة المتعلقة بالحسين. مع هذا فان مهمتنا هي دراسة حسين التقوى الشخصية العظيمة للتقوى الشيعية والذي يعد موته حادثة كونية والمركز الرئيس للتاريخ الإنساني.

(١) ابن طاووس، اللهوف، ص ٣٤، وكذلك عبد الرزاق الموسوي، مقتل الحسين وحديث كربلاء" (النجف: مطبعة النجف، ١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ م، ص ٥٦).

الفصل الرابع

الشهيد المظلوم[1]

(١) إن الصفتين "الشهيد" و"المظلوم" ترد كلا على حدها أو معا بالمعنى بنفس، انظر ابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص ٢٣٢. وغيرها من الأسماء والصفات.

لا يمكن فهم شهادة الإمام الحسين بوصفها حدث معزول في التاريخ الإسلامي القديم، و لا كميلودراما تسبب بها عناد رجل ساذج او جاهل سياسياً[١]. بل يجب ان تؤخذ في محتوى التاريخ الإسلامي منذ بداية حياة الرسول في المدينة وحتى وقتنا الحاضر. ولقد تم تكرار الجدال في هذه الدراسة على ان موت الحسين يعدّ، على الأقل بالنسبة للشيعة، نقطة تحول بالنسبة للاحداث السابقة واللاحقة لها من التاريخ. ولا زلنا حتى هذه اللحظة نسمع من المنابر الشيعية في الجوامع ان الحسين قد قتل في يوم السقيفة[٢].

ولقد رأينا في الفصول السابقة أن الحسين قد عدّ من قبل الشيعة والسنة رجل دين وتقوى، مثالي، ونبيل وزاهد عن أمور هذه الدنيا. فكرجل مثالي لم يكن الحسين يتفق مع قرار اخيه في التخلي عن مطالبه بالخلافة لصالح بني أمية. ان أي قراءة دقيقة لأي مصدر شيعي او سني قادر على ان يقنع

(١) عن مقتل الحسين راجع جيب.ه.أ.ر. و كراميرس ج. ه.، الموسوعة الإسلامية القصيرة، الحسين، ص١٤٢.

(٢) "السقيفة " هي ملجأ أو مساحة مسقوفة من فوق وعلى ما يبدو كانت مهمة عند التقاء القبائل في الازمنة القديمة للعرب. سقيفة "بني سعيدة" هنا تشير الى حدث اختيار أبا بكر الصديق مكان علي بن أبي طالب ليصبح خليفة، انظر أيضا الطريحي، ص٤.

الجميع في أن الدافع الرئيس للحسين لم يكن حب السلطة، الثروة، او أي مادة او أي طموح سياسي[1] الا انه كان يدعم وبشكل لا يقبل الشك وجود مجتمع إسلامي نموذجي مثالي وحياة سياسية، انتهكها معاوية والأكثر من هذا الاستيلاء عليها بطريقة غير شرعية على يد يزيد ابن معاوية. عارض الحسين بشدة قرار أخيه بالتسوية على الرغم من الإذعان لها في نهاية الأمر ولكن على مضض. إذ يقتطف احد الكتاب السنة مقولة للحسين يعبر فيها عن رفضه الشديد "حتى لو قُطع انفي بموس فان هذا لكان اكثر قبولاً لدي مما فعله اخي"[2].

ان موقف الحسين هذا، وكما سنرى في هذا الفصل، قد كلفه من ثم حياته. وفي هذا الفصل سنقدم خلفية تاريخية قصيرة عن احداث كربلاء. وثانياً، سنتعامل مع القصص القديمة الأولى عن شهادة الحسين والاحداث التي أدت لها. واخيراً سنبحث في بعض التفاسير اللاحقة لهذه الحادثة. وكما في بقية الدراسة فان اهتمامنا الرئيس ينصب على تقوى الحسين وليس تاريخ الحسين. وسنرى انه وعلى الرغم من ان بعض المؤرخون السابقين قد تعاملوا مع شهادة الحسين بدرجات مختلفة من الموضوعية الا انه لم يعدّ ابداً من قبل المسلمين مجرد حدث تاريخي فقط.

٤-١ خلفية تاريخية

خلال مدة حكم معاوية الطويلة، استلم الحسين، لاسيما بعد وفاة

(١) أن هذه النقطة ق أكدها جميع المصادر الشيعية، انظر على سبيل المثال، العبارة المنسوبة إليه في الطبري، والمقتبس لاحقا في هذا الفصل.

(٢) ابن صبّاغ، ص١٨٩. هذه العبارة قد ذكرت من قبل المرجع "أبو مخنف" الذي هو المصدر الرئيسي "لثورة الحسين ومقتلة".

أخيه الحسن، عدة ضمانات او تعهدات بالدعم من قبل الأتباع الشيعة لوالده وأخيه مستدعية إياه إلى العراق لإعلان الثورة هناك. وكان الحسين دائماً ما يجيب انه هناك ميثاق بينه وبين الحسن ومعاوية، لا يستطيع خرقه ما دام معاوية حياً[1]. الا ان الحسين قرر ان يطالب بحقه بالخلافة بعد موت معاوية اعتماداً على تأييد أتباعه الشيعة والمسلمين عامةً. وقد يكون الحسين قد تشجع على ذلك بسبب المؤامرات السياسية والقسر او الإكراه الذي اتبعه معاوية لتأمين مكانة الخلافة لابنه من بعده. وحسب بعض المؤرخون ان هناك اتفاقية بين معاوية والحسن نصت على انه بموت الاول فان الخلافة ستعود إلى الحسن او في حال موته فانها ستنتقل إلى اخيه الحسين[2]. الا ان تنصيب معاوية لابنه يزيد خليفة له من بعده كان لها الاثر الكبير على نموذج ومؤسسة الخلافة. لذا فان الخلافة فقدت مزيتها الأساس. فقد أصبحت الخلافة بالنسبة للمؤرخين المسلمين، القضاة والشعب المسلم عامة، مؤسسة ملكية أسست على مثال القوى الامبريالية تلك في إيران والدولة البيزنطية. واستمر استعمال اللقب المشرف "أمير المؤمنين"، وعدّ الخليفة كملك أكثر من كونه خليفة في المعنى الجوهري للكلمة. قد يكون هذا التغيير حتمياً ثقافياً وسياسياً الا انه كان ذو نتائج عنيفة في الجوانب الدينية والسياسية من حياة المجتمع.

وكان معاوية، مهندس هذا التغيير، يصور في آخر أيامه، من قبل الشيعة والسنة، كرجل كبير حكيم مليء بالأسف والندم. فهو يصور معترفاً

---

(١) احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، طبعة محمد صادق بحر العلوم (النجف: المطبعة الحيدرية ١٣٨٤/ ١٩٦٤)، المجلد الثاني، ص ٢١٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٦.

بالذنب الذي ارتكبه بحق عائلة محمد وبصوت مليء بالندم موجهاً ابنه يزيد ان يقدم لهم كل التسهيلات، الاحترام والشهامة التي تليق بمقامهم مع الله والجماعة[(١)].

ان الكلمات المنسوبة إلى معاوية كوصيته الأخيرة إلى ابنه يزيد، تستحق بعض الاهتمام إذ تظهر المكانة الكبيرة التي احتلها الحسين حتى بنظر أعدائه. فبعد كلامه ليزيد عن الخطأ الذي ارتكبه بحق (علي وأولاده) من اجله، قال معاوية عن الحسين :

" وأمّا الحسين بن عليّ، فأوه أوه يا يزيد، ماذا أقول لك فيه ؟ فاحذر أن تتعرّض له إلا بسبيل خير، وامدد له حبلاً طويلاً، وذره يذهب في الأرض كيف يشاء، ولاتؤذه ولكن أرعد له وأبرق، وإيّاك والمكاشفة له في محاربة بسيف أو منازعة بطعن رمح، بل أعطه وقرّبه وبجّله، فإن جاء إليك أحد من أهل بيته فوسّع عليهم وأرضهم، فإنّهم أهل بيت لا يسعهم إلا الرضا والمنزلة الرفيعة.

وإياك ـ يا بنيّ ـ أن تلقى الله بدمه فتكون من الهالكين"[(٢)]. ومن ثم أضاف معاوية "ان الحسين من بقية شعب الله على الارض"[(٣)].

توفي معاوية في رجب ٦٠/ ٦٨٠ بينما كان يزيد في رحلة صيد في

---

(١) ابن بابويه، أمالي، ص٨٧.

(٢) الخوارزمي، المجلد الاول، ص ١٧٦.١٧٥ ؛ للمصادر السنية الاخرى راجع : ابن الجوزي ص ٢٣٥، و ابو حنيفة احمد بن داؤد الدينوري، الاخبار الطوال، طبعة محمد سعيد الراقعي، القاهرة ١٩١١، ص ٢٢٨.

(٣) الخوارزمي، المجلد الاول، ص ١٧٦.

حوران[1]. وفي تلك السنة كان الوليد ابن عتبة، - احد أعضاء البيت الأموي - حاكماً على المدينة. فكتب اليه يزيد أن يأخذ البيعة له من اهل المدينة وان بالقوة ان لزم الأمر ويجب ان يكون حازما بشكل خاص مع الحسين. كما ان بعض الكتاب اضافوا ان يزيد ضمن في رسالته إلى الوليد مخطوطة صغيرة جداً بحجم أذن الفأرة، قال فيها "أمّا بعد: فخذ الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الرحمان بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً عنيفاً ليست فيه رخصة، فمن أبى عليك فاضرب عنقه، وابعث إليّ برأسه، والسلام."[2]. انه من الجدير بالملاحظة ان المعارضة التي كان يخشاها يزيد كانت من أبناء اقرب أصحاب الرسول اثنان منهما كانا ابنا الخليفتين الاول والثاني.

عندما وصلت رسالة يزيد إلى الوليد، أرسل في طلب مروان ابن الحكم للتشاور معه فيما يخص الحسين وابن الزبير لانه كان يعلم انه ليس بالسهل لهذين الاثنين ان يذعنا لمحاولات يزيد. نصح مروان الوليد ان يرسل في طلبهما وان يسألهما ان يقدما بيعتهما في الحال وان رفضا عليه ان يقطع رأسيهما قبل ان ينتشر خبر موت معاوية في المدينة. وفيما بعد في الظهيرة استدعي الحسين وابن الزبير إلى بيت الحاكم. وخمن الحسين سبب هذا الاستدعاء الغريب في هذه الساعة المتأخرة فجمع حشد من الرجال المسلحين على باب بيت الحاكم عندما دخله. واشار على الرجال ان يدخلو البيت عنوة فيما اذا سمعوا صوته يرتفع عالياً او اذا طلب النجدة.

---

(١) المصدر نفسه، ص١٧٦، اليعقوبي، المجلد الثاني، ص٢١٧، و ابن الجَوزي، ص٢٣٥.

(٢) الخوارزمي، المجلد الأول، ص١٨٠؛ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، (القاهرة: المطبعة الحسينية، الطبعة الأولى، لا يوجد تاريخ)، المجلد السادس، ص١٨٨؛ المجلسي ٤٤، ص ٣١٠ - ٣١٢.

قرأ الوليد رسالة يزيد إلى الحسين مبلغاً اياه بموت معاوية سائلاً اهل المدينة ان يبايعوه وان يعلنوه خليفةً لوالده. الا ان الحسين اجاب ان الحاكم يفضل بالتأكيد ان يعلن الحسين بيعته امام الملأ في صباح اليوم التالي[1]. وفي قصة أخرى يقال ان الحسين رفض الاعتراف بحق يزيد في مثل هذه المكانة المقدسة وقارن بين بطلان مطالب يزيد وشخصيته مع عائلة الرسول وحقه المشروع في ان يكون الخليفة لجده قائلاً: "إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومحل الرحمة، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل فاسق، شارب للخمر، قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننتظر وتنتظرون أينا أحق بالخلافة والبيعة."[2].

وافق الوليد أن يأتي الحسين مع بقية الناس الا ان مروان نصح الوليد ان يعتقل الحسين حتى يوافق او يُقتل. الا ان الحسين واجه مروان بتهديدات غاضبة وترك بيت الحاكم[3]. وتظهر إجابة الوليد الموبخة لمروان، مرة أخرى عن التقدير العام الذي كان يتمتع به الحسين في المجتمع الإسلامي القديم: "ويحك يا مروان، أشرت عليّ بقتل الحسين، وفي قتله ذهاب ديني ودنياي، والله ما أُحبّ أن أملك الدنيا بأسرها وانّي قتلت الحسين، ما أظنّ أحداً يلقى الله يوم القيامة بدم الحسين إلا وهو خفيف الميزان عند الله، لا ينظر إليه، ولا يزكّيه، وله عذاب أليم."[4].

---

(١) إن المحادثة التي جرت بين الحسين والوليد قد ذكرت مع الكثير من الاختلافات، انظر ابن طاووس، لهوف، ص١٤، والدينوري، ص٢٢٨، والطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص١٨٩.

(٢) الخوارزمي، المجلد الأول، ص١٨٤.

(٣) المفيد، ص١٨٢.

(٤) المصدر نفسه، ص١٨٢.

وفي الليلة نفسها هرب ابن الزبير سراً إلى مكة متخذاً طرقاً فرعية تجنباً لملاحقة اعدائه له من بني امية. ولم يكن للحسين أن يبقى أيضا لمدة طويلة قبل أن يتعرض لمضايقة السلطات في المدينة. وبينما كانت القوات تبحث عن ابن الزبير ترك الحسين وحده في المدينة. فقابل مروان في الطريق الذي نصحه بالاذعان إلى حكم يزيد كما فعل بقية الرجال وان لا يثير النزاعات بين الناس، وهنا أيضا تظهر إجابة الحسين وبوضوح نظرته عن دين الإسلام الذي يدافع عنه قائد مثل يزيد ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1]، "على الإسلام العفا إذ قد بليت الأُمّة براع مثل يزيد"[2].

٤-٢ القصص الأولى والتفسيرات لاستشهاد الحسين

كما رأينا، لم يكن باستطاعة الحسين البقاء في المدينة بدون اعلان معارضته ليزيد. وهذا ما لم يكن بمقدوره القيام به والاستمرار بالالتزام بالمثالية والشروط الإسلامية كما يراها. كما ان معارضته الطويلة لمعاوية والتي بعد مقتل اخيه الحسن، وضعته في قيادة الصراع ضد الحكم الاموي، ردته عن الإذعان وقبول يزيد.

يصور المذهب الشيعي استشهاد الحسين حدثا إلهيا مقدرا له، هذا ما يمكن أن نجده بشكل واضح في الفقه الشيعي للائمة. وعلى الرغم من تأييد العديد من الكتاب وحتى مؤرخي السير لهذه الفكرة، فانه لم يكن من الصعب على أصحابه واقاربه التنبؤ بنهايته المأساوية، كما قيل لنا ومن خلال العديد منهم.

---

(١) الآية القرآنية ١٥٦ : ٢، عادة ما تقال عند ورود خبر موت شخص أو كارثة معينة.

(٢) الخوارزمي، المجلد الأول، ص١٨٦.

ان مأزق الحسين الصعب وصراعه ضد القدر القاسي تنبأ به وبدقة متناهية أخوه غير الشقيق علي ابن الحنفية في كلماته الأخيرة لوداع الحسين قبل ان يترك الأخير يذهب إلى مكة. نصح ابن الحنفية اولاً أخيه ان يبحث عن ملجيء له في مكة او اليمن او ان يطوف الارض حتى يتأكد من وجود دعم شعبي عام ونصر محتمل. فنصحه وقال : "تنح بتبعتك عن يَزِيد بن مُعَاوِيَة، وعن الأمصار مَا استطعت، ثُمَّ ابعث رسلك إلى النَّاسِ فادعهم إلى نفسك، فإن بايعوا لك حمدت اللَّه عَلَى ذَلِكَ، وإن أجمع النَاس عَلَى غيرك لم ينقص اللَّه بِذَلِكَ دينك وَلا عقلك، وَلا يذهب بِهِ مروءتك وَلا فضلك"[1]. ان الجملة الأخيرة توضح ان مكانة الحسين الاجتماعية والدينية في المجتمع كانت تعتمد على قراره في تلك اللحظة الحاسمة من التاريخ الإسلامي. ويستمر ابن الحنفية في القول، متوقعاً موت أخيه اذا اتخذ قراره بالمقاومة والمعارضة : "إني أخاف أن تدخل مصرا من هَذِهِ الأمصار، وتأتي جماعة مِنَ النَّاسِ فيختلفون بينهم ؛ فمنهم طائفة معك وأخرى عَلَيْك فيقتتلون، فتكون لأول الأسنة، فإذا خير هَذِهِ الأمة كلها نفسها وأبا وأما، أضيعها دما، وأذلها أهلا"[2].

وكما لاحظنا آنفا أن الحسين كان مقاداً من قبل مفهوم ذهني غير قابل للتسوية إلى طريق قاده إلى حتفه المحتوم. هذا المفهوم قاد بالمقابل الإسلام إلى صدع او شرخ عظيم لا يمكن الشفاء منه. ان العديد من مصادرنا تخبرنا كيف ان الحسين اراد ان يكتب وصيته بيده ويختمها ويقدمها إلى اخيه ابن الحنفية في لقائهما الأخير. ومرة أخرى فان هذه الوصية تحتوي على اشارات أخرى عن دوافع الحسين في نصرة الثورة ضد حكم بني أميّة :

---

(١) الطبري، التاريخ، المجلد السادس، ص١٩١.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩١.

"وأنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الاصلاح في أمّة جدّي صلىّ الله عليه وآله، اريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي محمد صلىّ الله عليه وآله وأبي عليّ بن أبي طالب عليه السلام"[1]. "فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردّ علي هذا أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق ويحكم بيني وبينهم وهو خير الحاكمين"[2].

ترك الحسين المدينة إلى مكة ليلاً بيومين قبل نهاية رجب (٦٠/ ٦٨٠)[3]. وبخلاف ابن الزبير فان الحسين اخذ الطريق الرئيسة وليس الطرق الفرعية التي اتبعها ابن الزبير، رافضاً ان يخبئ نواياه في العصيان والتمرد. بدت مهمته له مثل مهمة موسى ضد الفرعون المصري الذي طغى على شعب موسى. خرج الحسين من المدينة مردداً الآيات القرآنية التي تتناول حياة موسى ومهمته و صلى مثله ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومرة أخرى مثل موسى صلى عند اقترابه من مكة قائلاً ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[4].

بقي الحسين في مكة لمدة أربعة أشهر وتركها قبل ان يكمل طقوس

---

(١) الخوارزمي كمصدر سنّي، يضيف "الخلفاء الراشدين"، المجلد الأول، ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) المفيد، ص ١٨٢ - ١٨٣؛ المجلسي ٤٤، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٣) الطبرسي، اعلام، ص٢٢١، الطبري، التاريخ، المجلد السادس، ص١٩٩؛ المفيد، ص١٨٢؛ للتاريخ الأول انظر الخوارزمي، المجلد الأول، ص١٨٩. وللتاريخ الثاني انظر ابن طاووس، لهوف، ص١٤.

(٤) القرآن ٢١ : ١١؛ و اربيري، المجلد الثاني، ص٨٨؛ المفيد، ص١٨٤؛ الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص١٩٣؛ النيسابوري، ص١٧١.

الحج[1]. وحال وصوله مكة أرسل ابن عمه مسلم ابن عقيل إلى الكوفة لإعداد الاساس له هناك. وفي أثناء ذلك استلم الحسين العديد من الرسائل والمبعوثين من الكوفة تدعوه إلى قيادة المقاومة ضد يزيد وفي الوقت نفسه مانحين إياه ولاءهم المطلق. غادر مسلم مكة في رمضان واخيراً وصل إلى الكوفة بعد ان عانى من اشد الصعوبات في تلك الرحلة المخيفة. ففي البداية ضل هو ودليلاه الطريق، وفي الثانية مات الرجلين من العطش. وفي منتصف الطريق إلى الكوفة كتب مسلم إلى الحسين طالباً اياه ان يعفيه من المهمة التي يشك في نجاحها منذ البداية. إلا أن الحسين قد أصرّ على ان يستمر في مهمته متهماً إياه بالجبن[2].

وفي أثناء وصول مسلم إلى الكوفة كان حاكم الكوفة هو النعمان ابن بشير. وكان الحاكم على علم بمهمة مسلم الذي كان يجمع المؤيدين للحسين بسرعة لاعدادهم لوصوله. ولكن الحاكم كان رجلاً طيباً لم يكن في نيته ان يصيب عائلة الرسول بأي أذى ولم يرغب بالمبادرة بالعداء فلم يفعل شيئاً تجاه مسلم ونشاطاته. اما عمر ابن سعد بن ابي وقاص[3] وغيره من المؤيدين لبني أميّة فقد كتب إلى يزيد عن شعبية مسلم في المدينة مقترحاً اتخاذ أقسى الوسائل لكون النعمان اضعف من ان يتعامل مع المشكلة.

وقد أصدر وزير الدولة سرجون (مسيحي سرياني) في قصر يزيد وثيقة اشترط فيها معاوية ان يستلم عبيد الله بن زياد منصب الحاكم في مدينة الكوفة بالإضافة إلى تلك التي في البصرة التي يحكمها هو أصلاً. اما زياد،

---

(١) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص٢١٧؛ المفيد، ص٢٠٠.

(٢) إن قصة مسلم مروية بشكل تراجيدي عند الطبري، كما ذكرت بأساليب مختلفة في مصادر اخرى. انظر الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص١٩٤؛ المفيد، ص١٨٦.

(٣) عمر بن سعد هو احد صحابة النبي المقربين.

والد عبيد الله، فقد كان عبداً في بيت أميّة من قبل معاوية إذ كان كأخ له[1]. وحسب التقليد الشيعي فأن زياداً كان طفلاً غير شرعي تبعاً لنسب والده. وكما تقول القصة، ان ابا سفيان والد معاوية، في إحدى الليالي كان ثملاً إذ أغوى سمية، أم زياد، جاعلاً من زياد وذريته أولاد زنا. الا ان معاوية كان معجباً بذكاء زياد وراغباً في رفع مستواه وفي الوقت نفسه إنقاذ سمعة أبيه فقرر ان يتبنى أخيه غير الشرعي في العائلة. وهكذا خالف حديث الرسول "الولد للفراش وللعاهر الحجر"[2].

كان ابن زياد ذكياً وغالباً ما كان سياسياً قاسياً إذ لم يكن يستبقي شيء للوصول لغاياته السياسية. فشخصيته القوية والقاسية بالاضافة إلى نسبه الفاسد اعطت زيادا رمز الشر بل حتى الكفر حسب المذهب الشيعي.

وحسبما قيل لنا ان مسلم استقبل بحماس من قبل اهل الكوفة وفي الحال بدأ بجمع المؤيدين والسلاح مما شجعه ان يكتب للحسين حاثا اياه بان يعجل من مجيئه؛ لان الناس كانوا في انتظاره ولن يتحركوا حتى يأمرهم بذلك[3]. استلم الحسين اكثر من خمسين رسالة من العراق تحثه على المجيء وقيادة جيش شكل بانتظاره[4]. ووصفت الرسالة الأخيرة من اهل الكوفة الفرح العام الذي يسود المدينة بانتصار الخير على الشر "... فقد اخضرّت الحبّات، واينعت الثمار، وأعشبت الأرض، وأورقت

---

(١) للتعرف شخصية "ابن زياد" واعماله واصله، انظر طه حسين، الفتنة الكبرى، الجزء الثاني، علي وبنوه، (القاهرة: دار المعارف١٩٦٦، ، ص ٢٠٤ - ٢٠٦).

(٢) انظر الهامش السابق. بالنسبة للحسين انظر، الطبرسي، احتجاج، المجلد الثاني، ص ٢٠.

(٣) ابن طاؤوس، لهوف، ص٢٨؛ الطبرسي اعلام، ص٢٢٣.

(٤) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ١٩٦ - ١٩٨؛ المفيد، ص٢٢٣.

الأشجار...»[1].

ومع وصول الرسالتين الأخيرتين من الكوفة بعث الحسين نفسه رسالة يحدد فيه هدفه في اعلان العصيان على حكم يزيد موضحاً أنموذج الحاكم الصالح (الإمام) للأمة الإسلامية. فكتب «.... فلعمري ما الإمام العامل بالكتاب والعادل بالقسط كالّذي يحكم بغير الحقّ، جمعنا الله وإيّاكم على الهدى، وألزمنا وإيّاكم كلمة التقوى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.»[2].

أصر الناس في الكوفة في رسائلهم على أن ليس لديهم أي امام لذا حثوا الحسين على المجيء حتى يجمعهم الله معه في طريق الحق. لذ ما عاد باستطاعة الحسين الا أن يلبي ما عدّه نداءً لخدمة الله وأمة الإسلام. ولم يكن بمقدوره التغاضي عن هذا الدافع بغض النظر عن وجود أي دافع آخر. ويخبرنا كاتب سني معروف على ذمة ابن هشام ان الكوفيين اتهموا الحسين بالاثم فيما إذا لم يلب نداءهم[3] وأصر الكاتب على النقطة نفسها وبشكل غير مباشر من خلال قصه للاحداث التي قادت إلى ثورة الحسين ومن ثم إلى موته[4].

ان رسالة الحسين إلى أولئك الذين دعاهم لتأييده في صراعه يدعوهم فيه إلى الحق ويثنيهم عن الشر. وقبل تركه مكة كتب إلى اهالي البصرة موضحاً فيها ان محمد قد اختاره الله ليكون رسوله وانه كحفيد له فهو ممثل

---

(١) ابن طاووس، لهوف، ص١٩؛ وللرسائل الأخرى راجع ص١٥ - ١٩.
(٢) المفيد، ص١٨٦.
(٣) ابن الجَوزي، ص٢٣٨، «إذا لم تأتي فانك سوف تكون آثم».
(٤) الطبري، المجلد السادس، ص٢٣١؛ وانظر أيضا للنقطة اللاحقة في هذا الفصل.

عنه ومنفذاً لمهمته من بعده، واستمر الحسين "وأنا ادعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه، فان السنّة قد أميتت، والبدعة قد أحييت، فان تسمعوا قولي، أهدكم إلى سبيل الرشاد...."[1]. الا ان أولئك قدموا دعمهم ليس للحسين بل لزعماء قبائلهم. وهكذا في النهاية، لم يقوموا بشيء لإظهار ولائهم الذي كان من ثم للرجال وليس من اجل القضية. وقبل مدة قصيرة من مغادرته الكوفة علم ابن زياد بأمر الرسالة، فقد صلب وقطع رأس حامل رسالة الحسين وهدد بـ العقاب نفسه لكل احد تسول له نفسه اظهار التمرد او العصيان[2].

بقي مسلم في الكوفة مدة في بيت المختار بن عبيد الله الثقفي الرجل الذي كان مقرراً له ان يحرك العصيان على حكم الأمويين في العراق بشكل خاص انتقاماً لموت الحسين. الا ان ابن زياد بدأ بنشر المخبرين ليستكشف عن مكان مسلم في الكوفة مما اجبر الأخير على أن ينقل مركز عملياته إلى بيت هاني ابن عروة المرادي احد نبلاء اهل الكوفة. وعندما علم زياد اخيراً مكان مسلم أرسل في طلب هاني إذ قام بضربه بشدة قبل قتله. وقبل موت هاني مرض شريك الاعور احد اصدقاء ابن زياد والذي كان سراً من شيعة علي. فجاء ابن زياد إلى شريك ليزور صديقه واتفق شريك ومسلم على قتل ابن زياد الا ان مسلم وفي اللحظة الأخيرة تخلى عن المهمة وعاد ابن زياد سالماً إلى داره ولكن في شدة من الارتياب. فمسلم لم يقتل ابن زياد أولاً لان هاني لم يكن يريد ان يقتل في بيته وثانياً لأنه ذكر حديثاً للرسول يقول

---

(١) الطبري، المجلد السادس، ص٢٣١؛ الطبرسي، اعلام، ص٢٢٣؛ نجم الدين محمد بن جعفر بن أبي البقاع هبة الله بن نما الحلي، مثير الأحزان، (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٦٩ هـ/ ١٩٥٠م)، ص ٢٩ - ٣٠.

(٢) انظر الهامش السابق.

فيه "ان الايمان قيّد الفتك، ولا يفتك مؤمن"[1].

وعندما سمع مسلم بموت هاني خرج مع مؤيديه ليغزو القصر ويقتل ابن زياد، الا ان الأخير الذي كان قد استعمل التهديدات والرشاوى قد اخبر أشراف الكوفة للتحدث مع الغوغاء وإقناعهم بالتخلي عن مسلم. وفي النهاية ترك مسلم وحيداً وبعد صراع مرير القي القبض عليه وجلب امام ابن زياد وبعد تبادل العديد من الكلمات القاسية بين الرجلين القي برأسه وجثته في وسط سوق المدينة من القصر حتى يكون عبرة لمن عدّ.

حازت قصة مسلم على الكثير من الاهتمام من قبل الكتاب الشيعة. فقد اشرنا إلى استقامته الأخلاقية في اختياره عدم مهاجمة الرجل غفلةً كما قال الرسول. ان هذه الفضيلة مع شجاعته وشهامته يتم التأكيد عليها بشدة ويعبر عنها درامياً في المجتمع الشيعي. كان مسلم أول شهداء كربلاء ومثل بقية الشهداء من بين الأقارب المقربين للحسين وكذلك دوره الشجاع وشخصيته، قد نمت عبر السنين في التربة الخصبة من الأدب الديني الشعبي.

ومما سبق ذكره عرفنا ان الحسين كان شخصاً مثالياً لا يستطيع التخلي عن مبادئه لأي سبب من الأسباب. لذا فقد يقال انه كان يفتقد إلى المرونة والحس الدبلوماسي للرجل السياسي. كما قيل وبما انه شخص مثالي لذا لم يكن باستطاعته ان يحنث بوعد قطعه على نفسه حتى لو كلفه ذلك حياته. وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد الا انه يجب ان نضيف ان هالة الغموض والإحساس بالقدر المستتر في عدة أحاديث منسوبة إلى الحسين لا يمكن البت بها على أسس سياسية. كما لا يمكن تجاهل هذا الجانب اذ لم تلق قصة الحسين التجاوب او حتى الإدراك. فنحن نرى في الحقيقة ثلاثة دوافع تعمل

(١) الطبري، المجلد السادس، ص ٢٠٤ - ٢٠٦.

في دراما شهادة الحسين. مثاليته، إيمانه بأن قدره كان محتوماً، واليقين الذي حتم عليه إما الاستسلام او القتال. ولا يمكن أن يتم تفريق هذه الدوافع الثلاثة.

وفي المدينة ومكة كلتيهما كان الحسين يصر على ان أفعاله هي نتيجة أوامر إلهية مباشرة او غير مباشرة. فعندما اعترض أخوه ابن الحنفية على الرحيل المفاجئ للحسين أجابه الأخير ". . .أتاني رسول الله صلى الله عليه واله وسلم بعد ما فارقتك، فقال: يا حسين أخرج فإن الله قد شاء ان يراك قتيلا". وبالنسبة للاعتراض الآخر في ان لا يعرض نسائه وأطفاله للخطر أجاب ". . . إن الله قد شاء أن يراهن سبايا"[1].

والأمر نفسه في مكة فقد أتاه العديد يحاولون في أثناءه عن رأيه او على الأقل ان يظهر مقاومة سلبية بالعدول عن إعلان قبوله بالنظام الجديد. الا أن الحسين كان يعلم ان لديه خياران فقط. الأول هو إعلان مبايعته ليزيد وبذلك يعصي الأوامر الإلهية ومن ثم يعيش جباناً وخائناً في نظر أصحابه الشيعة. أما الخيار الآخر فهو المقاومة والاستشهاد إذا كان ذلك ضرورياً. فقد قال لأولئك الذين اعترضوا على خطته في مكة، انه كان يفضل ان يقتل خارج المدينة المقدسة حتى لا تتدنس حرمتها بسفك الدماء. وفي مقولة يذكرها الطبري على ذمة أصحاب الحسين (الذين لم يحددوا) ان الحسين يعبر عن الفكرة نفسها بطريقة تصويرية أكثر ويتنبأ بمصير عدوه بعد موته.

(١) ابن طاووس، لهوف، ص ٣٥ - ٣٧، ابن طاووس يعرض سببا آخر في ان الحسين اخذ النساء معه، لأنه إذا فعل ذلك سوف يقوم يزيد بأخذ نساءه أسيرات مما يؤدي إلى تحول جهاد الحسين بوجه يزيد إلى كفاح من اجل حرية نساءه، انظر للمناقشة ص٤٧.

"والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة[1] من جوفي فإذا فعلوا سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرم الأمة"[2].

وفي خارج مكة التقى الحسين بالشاعر الفرزدق الذي تفاجأ من سبب مغادرة الحسين لمكة قبل ان يكمل طقوس الحج فأجابه الحسين "لو لَم أعجِّل لأخِذت"[3] وفي قصة أخرى يسأل الحسين رجل آخر السؤال نفسه فيجبه : "إن بني أميّة أخذوا مالي فصبرت، وشتموا عرضي فصبرت، وطلبوا دمي فهربت"[4]يعبر عن خوف الحسين من ان يعتقل او يقتل على أيدي رجال يبعثهم يزيد في رسالة مثيرة بعثها أبن عباس (ابن عم الحسين) إلى يزيد بعد مقتل الحسين. في هذه الرسالة يوبخ ابن عباس فيها يزيد لوقاحته على طلب المساعدة منه بعد قتل العديد من رجال عائلته. " . . . . فما أنسى من الأشياء فلست بناس اطرادك حسينا من حرم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى حرم الله عز وجل، وتسييرك إليه الرجال لقتله في الحرم فما زلت بذلك وعلى ذلك حتى أشخصته من مكة إلى العراق، فخرج خائفا يترقب فتزلزت به خيلك عداوة منك لله عز وجل ولرسوله ولأهل بيته. . . "[5].

وفي حديث يروى على ذمة علي زين العابدين الناجي الوحيد من ابناء

---

(١) إن كلمة "العلقة" تستخدم هنا مجازيا لتدل على البيعة ليزيد وكانها عالقة بحنجرته.

(٢) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٢٣، الطبري ينقل هذا الحديث من ابن سعد المعروف بأنه كاتب سيرة النبي واحد أصحابه.

(٣) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢١٧؛ والمفيد، ص ٢٠١.

(٤) الحلي، ص ٣٣؛ وابن الجَوزي، ص ٣٩.

(٥) ابن الجَوزي، ص ٢٧٥. إن المراسلات بين يزيد بن معاوية وابن عباس قد رويت عن الواقدي، بان الحسين قرر الذهاب الى العراق بوحي الهي.

الحسين، قيل لنا فيه ان عبد الله ابن جعفر ابن عم الحسين عندما علم بخبر مغادرة الحسين من مكة، نجح في اقناع الحاكم عمر ابن سعد بكتابة رسالة مصالحة للحفاظ على سلامة الحسين وهذا ما فعله الحاكم. فقام ابن جعفر ويحيى اخو الحاكم بحمل الرسالة له. اضافة إلى ذلك، فان عبد الله كان قد سبق هذه الرسالة بواحدة من عنده يحث الحسين فيها على إعادة النظر في خططه وان ينتظره إذ انه في الطريق اليه. حمل هذه الرسالة ولدا عبد الله الاثنان اللذان بقيا مع الحسين وقتلا معه. ومرة أخرى رفض الحسين العودة مع الرجلين معلناً "اني رأيت رؤيا فيها رسول الله وأمرت فيها بأمر انا ماض له". وعندما سئل ماذا كان ذلك الحلم أجاب "ما حدثت بها أحدا وما انا محدث بها حتى ألقى ربي"[1]. في مكة وفي كل مرحلة من مراحل رحلته إلى كربلاء كان الحسين يُنذر من قبل اصدقائه واقاربه بعدم جدوى هذه المهمة وانه أحرى به التخلي عنها.

لا تتفق جميع مصادرنا في الوقت الذي تم فيه إعدام مسلم على يد ابن زياد أو هل علم الحسين بموته بينما كان في مكة او في طريقه إلى الكوفة[2]؟. ولكن على الأرجح ان الحسين، كان قد علم، في مكان ما في طريقه، بمقتل مسلم. وحينذاك قرر التخلي عن مهمته والعودة إلى مكة او المدينة أو على الأقل عدم الذهاب إلى الكوفة حتى تنجلي الأمور. إلا ان أولاد وأخوة مسلم اعترضوا على ذلك قائلين انهم لن يعودوا حتى ينتقموا

(١) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢١٩؛ المفيد، ص ٢٠٣؛ مع بعض الاختلاف انظر الخوارزمي، المجلد الأول، ص ٢١٧.

(٢) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٠٢. طبقا للطبري فان مسلم بن عقيل قد قتل في اليوم نفسه الذي به ترك به الحسين مكة، ولذلك فانه لم يعلم بمقتله إلا في طريقه نحو الكوفة، انظر المفيد، ص ١٩٧.

لدم مسلم او يُقتلوا مثله. فلم يكن للحسين خيار آخر غير الاستمرار في خطة التمرد والانتقام.

يجب ان نلاحظ ان أمنية مسلم الأخيرة كانت ان يرسل احد ما إلى الحسين ليخبره بما حصل ويحثه على ان يعدل عن رأيه وان لا يأتي إلى الكوفة. وقيل انه عندما تم إلقاء القبض على مسلم وأُخِذَ سيفه منه بكى قائلاً "أبكي لأهلي المُقبِلينَ إليّ، أَبكي للحسينِ والِ الحسين..."[1]. ودقائق قبل مقتله أجال مسلم بنظره حول الرجال في ديوان ابن زياد إذ سيعدم، عله يجد احداً يأتمنه على وصيته الأخيرة. وكان هناك ابن سعد الذي كان قريشياً واحد أصحاب الرسول المقربين. عندها طلب مسلم ان يأتي ابن سعد بجانبه، الا ان هذا الأخير تردد في البداية حتى نوه اليه ابن زياد ان يقترب من الرجل حتى يعرف ما يريد قوله. ومرة أخرى طلب مسلم ان ينطلق احد الرجال إلى الحسين لإنذاره ومنعه من المجيء. وطلب من ابن سعد ان يعنى بأمر دفنه وان يباع سيفه لايفاء بعض الديون التي تركها خلفه. الا ان ابن سعد أخبر أبن زياد في الحال على ما أسره به مسلم، ولكن ابن زياد عنفه لعدم إبقائه على ما ائتمنه عليه ابن عمه (مسلم).

اعتمد الحسين على مساعدة اهل الكوفة الذين كانوا قد استدعوه ليأتي إليهم، فلم يكن معه الا جماعة صغيرة من الأتباع والأقارب القادرين على القتال. وحسب الكثير من المصادر كان عدد مقاتليه يبلغ اثنان وثلاثون رجلاً من الخيالة وأربعون من الجنود المشاة. الا ان بعض المصادر الأخرى تؤكد الرقم خمسة وأربعون من الخيالة ومئة من الجنود المشاة او على الأقل

(١) المفيد، ص ١٩٦.

عدة مئات من المقاتلين[1]. وعلى أية حال فان العديد من أولئك الذين كانوا يلازمونه تصوروه قائداً منتصراً مؤملين أنفسهم بالكثير من الغنائم، الا انهم تخلوا عنه في الطريق عندما علموا بأمر مقتل مسلم والشك بمصير الحسين نفسه. لذا فان عدد الرجال الذين ظلوا مع الحسين قد يكون قد تغير قليلاً عن عدد أولئك الذي انطلقوا معه فيما عدا النفر القليل الذين التحقوا به لاحقا.

إلى النهاية وحتى بعد ان علم الحسين بمقتل مسلم كان الحسين يتمنى ان يساعده أهل الكوفة. فأرسل أخاه بالتبني عبد الله ابن يقطر برسالة أخرى مذكراً أهل الكوفة بوعدهم لائماً إياهم على خيانتهم[2]. الا ان ابن زياد قبض على عبد الله وأمره ان يلعن الحسين أمام الملأ وان يمدح يزيد ووالده وما كان من عبد الله إلا أن يفعل خلاف ذلك مخبراً الناس عن وصول الحسين الوشيك إلى المدينة، فما كان من ابن زياد الا ان شد قدميه ورجليه والقى به من قمة قصره إلى الأسفل إذ مات في الحال. وعندما علم الحسين فيما بعد بموت عبد الله قال باكياً: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[3]. ثم أضاف "أللهم اجعل لنا ولهم الجنة منزلا، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك ورغائب مذخور ثوابك"[4].

---

(1) المفيد، ص ٢١٦؛ الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص٢٢٠؛ أبو الحسن على بن الحسن بن على المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، (بيروت: دار الأندلس، لا يوجد تاريخ)، المجلد الثالث، ص ٥٦.

(2) طبقا لبعض التقاليد، المرسل كان قيس بن مصهر الصيداوي، انظر المفيد، ص ٢٠٣، والطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص٢٢٤.

(3) القرآن ٢٣: ٣٣؛ اربيري، المجلد الثاني، ص ١٢٣.

(4) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

وعند صول خبر موت مسلم إلى الحسين حاول أصحابه طمأنته من انه ليس مثل مسلم وانه مع وصوله إلى الكوفة فإنهم لن يتخلوا عنه. إلا ان مثل هذه الآمال كانت تتلاشى في كل خطوة، ليس فقط بفقدان أي أمل بالانتصار، بل وحتى أي أمل بالتفاوض على الاستسلام. فقد التقى الحسين احد أهل الكوفة الذي تضرع إليه قائلاً: "أنشدك الله في حرمة رسول الله، أنشدك الله في حرمة العرب، فوالله! لئن طلبت ما في أيدي بني أميّة ليقتلنك، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحدا أبدا، والله! إنها لحرمة الإسلام تنتهك، وحرمة قريش وحرمة العرب، فلا تفعل ولا تأت الكوفة، ولا تعرض لبني أميّة!"[1]. هذه الكلمات أصبحت لاحقاً كلمات تنبؤية لما سيحدث، ليس فقط في زمان الحسين بل وحتى لمدة لاحقة، إذ ان الفوضى والموت قد سيطرا على حكم بين أميّة. فكلمات الرجل أشارت إلى شيء آخر وهو انه بموت الحسين فسيحل الخزي على الأمة وتنتهك حرمة الدين الإسلامي.

أرسل ابن زياد الحر بن يزيد الرياحي مع ألف من الخيالة حتى يقطعوا الطريق على الحسين وان يأتي به أسيراً إلى الكوفة. الا ان الحر قد أُمر بشكل خاص ان يراقب تحركات الحسين وان يُخبِر ابن زياد بكل تحركاته. التقى الحر مع الحسين في القادسية القريبة من كربلاء وكان رجال وخيل الحر مرهقين بسبب حرارة الصحراء فأمر الحسين رجاله ان يعطوا الماء للرجال ولخيولهم.

اخبر الحُر الحسين عن الوضع في الكوفة وانذره من مخاطر الطريق وعندما حان الوقت لصلاة الظهر أمّ الحسين كلا المعسكرين وبعد الصلاة القى الحسين خطبةً قصيرة ذكّر بها الرجال برسائلهم وعدهم اليه. كما

(١) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٢٤.

ذكرهم أيضا بمكانته كحفيد الرسول وانه الاجدر بقيادته للامة من بني أميّة. ولكن اذا لم يكن الحال كذلك واذا كانوا غير مرتاحين لمجيئه فأنه سيعود من حيث أتى[1].

تحدث الحسين بشكل خاص عن سبب تحمله عناء المجازفة معرضاً حياته وحياة عائلته وأصحابه للخطر: "من رأى سلطانا جائراً مستحلاً لُحرم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله، يَعملُ في عباد الله بإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقا على الله ان يُدخله مُدخَله."[2].

ومن ثم وصف الإمام حكام بين أميّة على ضوء الحديث النبوي: "ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله"[3].

وأعلن الحسين انه كان الأجدر الدفاع عن القضية والقانون الإلهي (السنة) للرسول. فإذا انضم إليه أولئك الذين استمعوا له في الجهاد فسيكون ذلك لخيرهم ولن يرفضوا حصتهم من المكافأة على مثل هذا الصنيع في الإيمان بالحياة القادمة.

اعترض الرجال على أنهم ليسوا من بين أولئك الذين كتبوا له ولم يعلموا شيئاً عن أمر هذه الرسائل. فجلب الحسين كيسين مليئين بهذه الرسائل وخجل العديد منهم عندما وجدوا أسماؤهم من بين الذين كتبوا

(١) المفيد، ص ٢٠٧.

(٢) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٢٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٩.

هذه الرسائل. ومع هذا أصروا ان يستسلم الحسين لحكم أولاد عمه الذين بالتأكيد لن يحاولوا إيذائه.

فأجاب الحسين بكلمات رجل أشار بعدم القتال في بدر ضد المشركين :

"سأمضي وما بالموت عار على الفتى   إذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما
وواسى الرجال الصالحين بنفسه   وفارق مذموما وخالف مجرم
أقدم نفسي لا أريد بقاءها   لتلقى خميسا في الوغاء عرمرما
فإن عشت لم ألم وإن مت لم أذم   كفى بك ذلا أن تعيش مرغما"[1]

لا نستطيع ان نتكلم على الجماعة الشيعية بالمعنى الدقيق في زمان مقتل الحسين. فكان هناك بالأحرى بعض الجماعات التي كانت تنتمي لشخص او لآخر من الشخصيات الرئيسة المؤثرة، كحزب علي، وحزب عثمان وبالطبع حكام أميّة فيما بعد. هذا النقص في التبلور لدى المجموعات الدينية المتعددة الناشئة في المدّة اللاحقة، تجلى داخل الجماعة الصغيرة من أتباع الحسين الذين استشهدوا معه في كربلاء. واحد هؤلاء هو زهير ابن القين البجلي، رجل تقي والذي كان سابقاً من أنصار عثمان المناهضين لعلي. قابل الحسين هذا الرجل وهو في الطريق إذ خيما هما وأهاليهما وأصدقائهما في البقعة نفسها. وعندما أرسل الحسين في طلبه تردد زهير حتى أقنعته زوجه ان يذهب ويسمع من ابن بنت رسول الله ماذا يريد ان يقول له. وبسرعة عاد الرجل بوجه مشرق وأمر ان تنقل خيمته وحاجياته

(١) المفيد، ص ٢٠٩؛ الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٣٦.

إلى مخيم الحسين. وطلق زوجه وأعادها إلى البيت حتى لا تتحمل عناء المصاعب معه التي تنبأ بها بعدما أعلن مبايعته للحسين. وقال لأصدقائه وأقاربه "من أحب منكم أن يتبعني وإلا فهو آخر العهد."[١] وكان احد ألد أعداء لحسين هو شمر بن ذي الجوشن الذي كان في إحدى المرات من جماعة علي وحتى انه قاتل إلى جانبه في معركة صفين.

في البداية اتفق الحسين مع الحر ان يتخذ الطريق التي لن تقوده لا إلى الكوفة ولا إلى الحجاز على ان يكتب الحر إلى ابن زياد يطلب منه الاوامرالأخرى. وفي اثناء ذلك دعا الطرماح ابن عدي الطائي الحسين إلى خيامهم إذ سيجمع خمسة آلاف رجل يقاتلون إلى جانبه الا ان الحسين رفض هذا الطلب على اساس ان هناك اتفاقاً بينه وبين اهل الكوفة لم يكن يرغب في ان ينقضه. وفي رواية أخرى لهذه الحادثة، يقال ان الطرماح قدم اقتراحه مرة أخرى عندما كان الجيشان على وشك ان يتقاتلا. وكذلك يقال انه اقترح ان يتركا المكان، هو والحسين، سراً في الليل الا ان الحسين اجابه ثانيةً بانه لن يترك عائلته تواجه مصيرها في الهلاك[٢].

وصل الحسين إلى كربلاء يوم الخميس في اليوم الثاني من محرم في سنة ٦١ بعد الهجرة. وكما يقال ان الحسين سأل اتباعه عن هذا المكان واجابوه انها كربلاء فقال : "اللهم إني أعوذبك من الكرب والبلاء، ثم قال : هذا موضع كرب وبلاء. انزلوا، هاهنا محط رحالنا ومسفك دمائنا وهنا محل قبورنا، بهذا حدثني جدي رسول الله صلى الله عليه وآله "[٣].

---

(١) المفيد، ص ٢٠٤.

(٢) الخوارزمي، المجلد الأول، ص ٢٣٧ ؛ وكذلك الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٣١؛ المفيد، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٣) ابن طاووس، لهوف، ص ٤٥.

وفي اليوم التالي جاء رسول إلى الحر حاملاً رسالة من ابن زياد. وفي هذه الرسالة أمر ان يبعد الحسين عن مياه نهر الفرات وان لايوفر له مكاناً يحتمي تحته او يلجأ اليه من اشعة الشمس. وبالاضافة إلى ذلك فان المرسال كان قد أرسل ليراقب ويتأكد من تنفيذ أوامر الحاكم. اقترح زهير ان يقاتلا الحر ورجاله قبل ان يأتي آخرون غيرهم لا يستطيعون التغلب عليهم عندئذ. الا ان الحسين اعترض وقال: «ما كنت لأبدأهم بالقتال»[١].

عيَّن ابن زياد عمر ابن سعد كممثل (والي) على الشؤون الإدارية لولايَتي الري وجرجان وفي المقابل كان على عمر ان يقود الجيوش ضد الديلاميت في وسط آسيا. ولكن ابن زياد رأى انه بما ان عمر كان قريشياً وابن احد أصحاب الرسول، أمر ابن زياد (عمر) ان يذهب أولا إلى كربلاء ليواجه الحسين اولاً قبل ان يتقدم ليواجه الديلميين. ان إرسال ابن سعد كان تكتيكاً سياسياً يهدف إلى القاء اللوم بعد موت الحسين وبشكل متساو على أكتاف احد قبائل قريش. او على الأقل مقاسمة اللوم مع احد الركائز القائمة في المجتمع. وكما سنرى لاحقاً ان ابن زياد استعمل هذه المزية لأقصى درجة ممكنة.

وعندما طلب ابن سعد إعفائه من هذه المهمة، أصر ابن زياد انه إما ان يقبل أوامره او ان يعفى من باقي وظائفه الإدارية ايضاً. وبعد عدة أيام من التردد وعلى الرغم من نصائح من استشارهم، قبل عمر بالمهمة ضد الحسين وتقدم إلى كربلاء مع أربعة آلاف رجل.

ذهب عمر إلى كربلاء على أمل تجنب اية مواجهة عسكرية مع الحسين وان يصبح قادراً على إقناع الحسين بأن يتخلى عن الصراع في وجه خطر

---

(١) المفيد، ص ٢١٠.

عظيم من اجل حياته وحياة من معه. لذا أرسل ابن سعد رجلاً إلى الحسين يسأله عن سبب مجيئه. فأجاب الحسين بالجواب نفسه الذي قدمه في خطبه الدينية وهو في طريقه إلى كربلاء. فقال ان الناس في الكوفة قد كتبوا له واعدين اياه بالمبايعة والمسانده له. اما الآن، اذا ما قد غيروا رأيهم ونقضوا وعودهم فانه سيعود من حيث أتى. كتب عمر بهذا إلى ابن زياد واستلم الجواب في ان يجبر الحسين على الاستسلام لحكم يزيد بأبقائه أسيرا في تلك الصحراء وان لايدعه هو وأصحابه ان يقربوا الماء حتى يعلنوا عن مبايعتهم ليزيد او ان يموتو عطشاً مثلما حدث مع الرجل التقي عثمان بن عفان[١].

فبعث ابن سعد خمسمائة رجل ليحرسوا ضفاف نهر الفرات في السابع من محرم. ومع هذا فان ابن سعد كان يأمل في ان يتجنب أي مواجهة مع الحسين وغالباً ما كان الرجلان يلتقيان في الليل ما بين المخيمين ليتحدثا طويلاً. وبحسب الطبري[٢] لم يسمع احد ما كانا يقولانه الا ان الناس توقعوا ان الحسين عرض على ابن سعد واحداً من ثلاث خيارات : "إمّا أنْ أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه، وإمّا أنْ أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بيني وبينه رأيه، وإمّا أنْ تسيّروني إلى أيّ ثغر من ثغور المسلمين شئتم، فأكون رجلا من أهله، لي ما لهم وعليَّ ما عليهم"[٣].

ان الكثير من المصادر الأولى لا تشك في هذه القصة التي غالباً ما تسرد باختلافات بسيطة. إذ يبدو ان الحسين كان راغباً بالقبول بإحدى البدائل

(١) انظر الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٣٤؛ المفيد، ص ٢١٢.

(٢) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٣٥.

(٣) للنص الكامل لرسالة ابن سعد إلى ابن زياد والتي بها يعطيه ثلاث خيارات. انظر للمفيد، ص ٢١٢، والمؤلف لا ينوه الى الخيارات البديلة التى يعرضها الحسين المستشهد بها هنا.

القائمة على واحد من الاختيارات الثلاث السابقة. الا ان الطبري يذكر قصةً أخرى، والتي لاقت قبول كبير لاسيما بين الكتاب الشيعة. فالكثير من الكتاب تجادلوا بشأن أية إشارة، مع كل التسويغات الممكنة، إلى استسلام الحسين إلى حكم يزيد[1]. وعلى ذمة أبو مخنف فان الطبري يذكر ان عقبة ابن سمعان قد رافق الحسين في رحلته هذه من المدينة وانه سمع كل كلمة قالها. وكان ابن سمعان يصر على ان الحسين لم يقل شيئاً مما كان يردده الرجال فيما بينهم. بل انه قال "دعوني فلأذهب في هذه الأرض العريضة، حتّى ننظر ما يصير أمرُ الناس"[2].

كتب ابن سعد إلى الحاكم ناصحاً إياه بالسلم والمصالحة إذ ان الحسين نفسه لم يكن ينوي الحرب بل انه عرض قبول إحدى الخيارات الثلاثة للسلام. في البداية وافق ابن زياد مثنياً على جهود ابن سعد. الا ان شمر ابن ذي الجوشن غيّر له رأيه مشيراً إلى أنه لو ترك الحسين يذهب، بينما هو في مملكته، فان ذلك سيكون اعترافاً منه بالضعف ولن تسنح له هذه الفرصة ثانية. لذلك طلب شمر من الحاكم ان يجبر الحسين على الاستسلام لحكمه وان يكون هو الذي يقرر ما الذي يجب ان يفعله الحسين. لذا أرسله ابن زياد مع رسالة إلى ابن سعد آمراً إياه ان يطلب من الحسين استسلاماً غير مشروطاً وإذا رفض ذلك فسيقتل هو نفسه. وأضاف انه فيما اذا قتل

(١) وللأمثلة الحديثة، انظر إلى عاملي، لوائج، ص ١٠١، لاسيما في ص ٢١٩ - ٢٢٤؛ الموسوي، حديث كربلاء، ص ٢٣٢. وللتحليل المتوازن الكامل للحادثة لاسيما فيما يخص هذه النقطة، انظر محمد مهدي شمس الدين، ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية و أثارها النفسية (بيروت: دار الأندلس، لا يوجد تاريخ)، ص ١٠٢، وبالنسبة للتحليل السنّي انظر عباس محمود العقاد، أبو الشهداء الحسين بن علي (القاهرة: دار الهلال، لا يوجد تاريخ)، ص ٩٤.

(٢) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٣٥.

الحسين فيجب ان تدوسه الخيول على صدره وظهره بحوافرها كعقاب أخير له. كما ان الشمر قد أمر انه اذا خالف ابن سعد تنفيذ الأوامر فان قيادة الجيش ستذهب إليه وسيقتل ابن سعد ويرسل رأسه إلى ابن زياد[1].

نقل الشمر رسالة ابن زياد إلى عمر ابن سعد في التاسع من محرم. وقبل ذلك، نفذ ابن سعد أوامر الحاكم مجبراً في إبقاء الحسين بعيداً عن الماء. وبصحبة خمسين رجلاً استطاع اخو الحسين العباس أن يملأ عشرين كيساً من الماء ليروي ظمأ الرجال والنساء والأطفال العطشى في معسكر أخيه. ومع مجيء الشمر لم يعد هناك خيار آخر لابن سعد في إعطاء الأمر النهائي، وفي وقت الظهيرة جمع قواته وتقدم نحو خيم الحسين وكان الحسين جالساً قرب خيمته متكئاً على سيفه في غفوة خفيفة. سمعت شقيقته جلبة الرجال وخيولهم فأسرعت إلى شقيقها لإنذاره. فأستيقظ فزعاً وقص عليها حلماً رآه في نومه إذ رأى الرسول يقول له "يا حبيبي يا حسين ستأتي قريباً الينا"[2] فأرسل الحسين أخاه ليسأل ابن سعد لتأجيل المواجهة حتى الصباح حتى يستطيعوا ان يصلوا إلى الله طلباً للمشورة.

وقد قيل على ذمة ابن الحسين علي زين العابدين، ان الحسين واتباعه قضوا الليلة قُبيل مقتلهم يصلون ويتلون الآيات القرآنية حتى ان اصواتهم سمعت مثل أزيز النحل[3]. كان زين العابدين آنذاك في مقتبل العمر وشديد المرض وغير قادراً على القتال وهذا ما انقذه من الموت المحتم. وفي الليل اقترب ليسمع ماذا كان يقوله والده لأصحابه. وكانت هذه الخطبة القصيرة المؤثرة فعلاً والتي رويت على ذمته في المصادر كافة مع تغييرات طفيفة :

---

(١) المفيد، ص ٢١٣؛ الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٢٦.

(٢) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٣٦.

(٣) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٣٤؛ الحلي، ص ٣٥.

"أثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين. أما بعد، فإني لا أعلم أصحابا أولى ولا خيرا من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعا خيرا، ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا، ألا وإني قد رأيت لكم، فانطلقوا جميعا في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا ليل قد غشيكم فاتخذوه جملا. وجمع الحسين أصحابه بين يديه، وحمد الله وأثنى عليه، وقال: أللهم لك الحمد على ما به فضلتنا، وعلمتنا من القرآن، وفهمتنا في الدين، وأكرمتنا به من كرامة رسول الله، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة وجعلتنا من الشاكرين. ثم أقبل عليهم، وقال: إني لا أعلم أصحابا أصح منكم ولا أعدل، ولا أفضل أهل بيت، فجزاكم الله عني خيرا، فهذا الليل قد أقبل فقوموا واتخذوه جملا، وليأخذ كل رجل منكم بيد صاحبه أو رجل من إخوتي وتفرقوا في سواد هذا الليل وذروني وهؤلاء القوم، فإنهم لا يطلبون غيري، ولو أصابوني وقدروا على قتلي لما طلبوكم"[1].

وعودةً إلى أبناء مسلم قال "يا بني عقيل حسبكم من القتل بمسلم اذهبوا قد أذنت لكم، قالوا: فما يقول الناس؟ يقولون: انا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا لا والله لا نفعل ولكن نفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك"[2].

---

(١) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص٢٣٨؛ النيسابوري، ص١٨٣.

(٢) المفيد، ص٢١٥.

وعبر أصحابه عن الوفاء نفسه والتضحية بالنفس. وكانت كلمات واحد منهم "مسلم ابن عوسجة" نموذجية فبعد إعلانه انه سيقاتل من اجل الحسين حتى الموت وحتى يكون الله شاهداً انه قد حافظ على قدسية و مهابة الرسول التي تنتهك من خلال قتل الحسين : "والله لا نخليك حتى يعلم الله انا قد حفظنا غيبة رسول الله فيك، والله لو علمت انى اقتل، ثم أحيا، ثم أحرق حيا، ثم أذر، يفعل ذلك بي سبعين مرة، ما فارقتك حتى القي حمامي دونك، فكيف لا افعل ذلك؟ وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبد"[١].

وفيما بعد في تلك الليلة جلس الحسين ليعد كلمته وفعل ذلك مُكرراً عدة مرات الأبيات الآتية :

"يا دهر أف لك من خليـــل كم لك بالإشـراق والأصـيل

من صاحـب أو طالـب قتيـل والـدهـر لا يقنـع بالبـديـل

وإنمـا الأمـر إلـى الجلـيل وكـل حـي سـالك السـبيل"[٢]

سمع ابنه (علي) هذا الشعر واختنق بالعبرات الا ان عمته زينب التي كانت تعتني به في مرضه سمعت ابيات اخيها فركضت إلى الخارج تضرب صدرها ووجهها رافعة الشكوى "واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة! اليوم ماتت فاطمة أمي! وعلي أبي! وحسن أخي! يا خليفة الماضي وثمال

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) هذه الابيات قد ذكرت في جميع المصادر الرئيسية، انظر المفيد، ص ٢١٦؛ الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٣٩؛ أبو الفرج الأصفهاني، مقتل الطالبين، طبعة احمد صقر (القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٩)، ص ١١٣.

الباقي»[١] اما الحسين فحاول طمأنتها وطلب منها ان لا تلوم نفسها او تمزق ثيابها او تضرب وجهها اذا قتل. وضرب لها مثلاً قديماً «لو ترك القطا ليلا لنام»[٢].

ويتبين لنا آنفا أن أصحاب الحسين اشتركوا في معسكره وهم يعلمون انهم سيلقون حتفهم. ان لقرارهم في القتال والموت معه له مغزى سياسي وديني أيضا. فبينهم كان هناك رجال معروفون بتقواهم واستقامتهم اما اعتبارات المحازبة فلم تكن تعني شيئاً لهم البتة. وفي الصباح واستعداداً للموت ذهب الحسين مع أصحابه إلى خيمة ليفركوا انفسهم بالمسك وغيرها من الدهون المعطرة. وكان احدهم واسمه عبد الرحمن ابن عبد الرابح الأنصاري ينتظر دوره خارجاً مع احد أصحابه برير بن حضير الذي بدأ بالمزاح مع صديقه الا ان برير اعترض قائلاً «ان هذا ليس وقتاً ملائماً للمزاح يا عبد الرحمن».

«والله لقد علم قومي إني ما أحببت الباطل شابا ولا كهلا، ولكن والله إني لمستبشر بما نحن لاقون، والله إن بيننا وبين الحور العين إلا ان يميل هؤلاء علينا بأسيافهم، ولوددت أنهم قد مالوا علينا بأسيافهم. قال : فلما فرغ الحسين دخلنا فاطلينا»[٣].

تصب معظم مصادرنا على شجاعة أصحاب الحسين واستعدادهم للموت من اجل الدفاع عنه. فالقليل من أمثلة الوفاء لابن ابنة رسول الله تمثل الإيمان والالتزام الديني (الجهاد) او الجهاد في سبيل الله.

---

(١) المفيد، ص ٢١٦.

(٢) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤١.

ففي الليلة التي سبقت المعركة أمر الحسين بحفر خندق حول معسكره من جهة واحدة وملأه بالخشب والقصب وأضرم فيه النار حتى يبقي احدَ جوانب المعسكر محمياً من تقدم العدو. كما وضع الخيام قريبةً من بعضها تاركة جهةً واحدةً فقط تسمح بالقتال. بدأ نهار اليوم التالي بتبادل مشادات كلامية بين الطرفين ومن ثم بدأ القتال الفردي بين الطرفين. جلس الحسين على ظهر حصانه يشهد سقوط أصحابه واحداً بعد الآخر أمام عينيه. ومع وضع القرآن مفتوحاً أمامه رفع يديه تضرعاً لله قائلاً الصلاة الآتية:

" اللهم أنت ثقتي في كل كرب ورجائي في كل شدة وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمن سواك ففرجته وكشفته، فأنت ولي كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة"[1].

لقد تم تكرار التأكيد ان الإمام كان قائداً ومعلماً وهادياً للأمة. فاستمراره في هذا الدور وخلال الدقائق الأخيرة من حياته أعطى الحسين العديد من النصائح الحكيمة في القليل من المواعظ التي ألقاها. فمصادرنا تصر على انه كان يشعر انه يؤدي واجباً حدده له الله. وليظهر لأعدائه الخطأ الفادح في سفك الدم البريء للمسلمين لاسيما فيما يخص الوصية الصريحة للرسول في محبة وتقدير عائلته من بعده ذكّر الحسين أعداءه بما قاله الرسول فيما يخصه ويخص شقيقه لحسن "إنهما سيدا شباب أهل الجنة" ومن ثم عرض قائمة طويلة بأسماء أصحابه الذين يشهدون على صحة الشهادة من الرسول والذين هم أنفسهم قد سمعوها من الرسول. وأخيرا تحداهم الحسين ان يقدموا تفسيراً منطقياً لأفعالهم، فهل ـ كما سأل ـ كان

(١) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٤٣؛ المفيد، ص٢١٦.

ثأراً لدم قد سفكه هو أو سلطة قد استغلها ؟ فلم يعطوا أي إجابة[١]. فصاح على بعضهم بالاسم مظهراً الرسائل التي أرسلوها له وعندما أنكروا ذلك عرض أمام أعينهم رسائلهم ورسائل الآخرين من أهل الكوفة.

ليس ضرورياً أن نكرر التفاصيل التي تظهر صفات الشجاعة والتضحية بالنفس التي كان على أصحاب الحسين إظهارها. فمعظم المصادر تركز عليها مطولاً. فالرجال في معسكر الحسين كانوا قلة الا ان خسارتهم كانت فادحة مقارنة مع أولئك من معسكر ابن سعد. وفي وقت مبكر من الظهيرة كان نصف عدد رجال الحسين قد قتل وامَّ الحسين القليل الذي بقي في صلاة الخوف[٢]. وبينما وقف الحسين ليأم الصلاة وقف أحد أتباعه سعيد الحنفي كدرع بشري أمامه لحمايته من سهام العدو واستخدم الرماة سعيداً هدفاً لسهامهم فمات في الحال[٣].

أرسل الحر مع ألف رجل ضد الحسين وعندما سمع كلمات الحسين ورأى موقف ابن سعد وجيشه من الحسين وقف لمواجهة رجال ابن سعد ووبخهم لقتال الحسين وعدم قبولهم بعرضه للصلح والسلم. عند ذلك فقط سحب ابن سعد نفسه سهماً وأطلقه في اتجاه معسكر الحسين قائلاً : "كن شاهداً علي عند القائد (عامر) ابن زياد إنني كنت أول من أطلق سهماً"[٤]. وبهذا أعطى الإشارة إلى بدء القتال، اما الحر، راغباً في التكفير عن خطيئة عدائه نحو الحسين، طلب ان يكون من أول من يموت دفاعاً عنه.

(١) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢١٧.

(٢) إن الصلاة واجبة في وقت الحرب أو الكوارث.

(٣) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

هناك مثلين آخرين يجب ان نجري على ذكرهما وهما يظهران شهامة وإيمان أتباع الحسين واستعدادهم للموت واثقين من المكافأة الأغلى التي ستكون بانتظارهم في الحياة الأخرى. فقد سقط مسلم ابن عوسجة وهو مقاتل شجاع بعد صراع طويل مع الأعداء وعندما انفض الفريقان عن القتال وقف الحسين على رأسه قائلاً: "رحمك ربك يا مسلم بن عوسجة، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا....."[1]. وكان حبيب ابن مظاهر احد القلائل من اهل الكوفة الذي توفي مع الحسين الذي اقترب من مسلم قائلاً: "عز علي مصرعك يا مسلم! أبشر بالجنة! فقال له مسلم قولا ضعيفا: بشرك الله بخير، فقال له حبيب لولا إني اعلم إني في اثرك لاحق بك من ساعتي هذه لأحببت ان توصيني بكل ما أهمك حتى أحفظك في كل ذلك بما انت اهل له في القرابة والدين. فأجاب مسلم بوهن مشيراً إلى الحسين "نعم انني ائتمنك على هذا الرجل فقاتل من اجله حتى تواجه موتك قبله"[2] وكان كلا الرجلين يعرفان بتقواهما واستقامتهما، حتى ان موتهما قد أحزن اعدائهما وأصحابهما على حد سواء.

وفي وقت متأخر من تلك الظهيرة عندما ترك الحسين مع نفر قليل من أصحابه وعائلته تقدم حنظلة ابن اسعد الشامي[3] مواجهاً الناس قائلاً:

(١) القرآن ٢٣:٣٣؛ اربيري، المجلد الثاني، ص ١٢٣.

(٢) المفيد، ص ٢٢١.

(٣) ذكر اسمه باشكال مختلفة، مثل "ابن اسعد الشبامي" أو الاسم المذكور هنا، انه بصورة عامة اسم مقبول. انظر إلى الخوارزمي، المجلد الثاني، ص١٦؛ والمفيد، ص ٢٢٢، حول دوره في الفكر الشيعي المتطرف، انظر المجلسي ٤٤، ص ٢٧٧، وأيضا بعد هذا الفصل.

"يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد، ويا قوم أني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم، ومن يضلل الله فما له من هاد، يا قوم لا تقتلوا حسينا فيسحتكم الله بعذاب وقد خاب من افترى . . ."[١].

فقال له الحسين : يا ابن أسعد رحمك الله أنهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك، فكيف بهم الان وقد قتلوا اخوانك الصالحين، قال : صدقت جعلت فداك، أنت أفقه مني وأحق بذلك أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا، فقال : "رح إلى خير من الدنيا وما فيها، وإلى ملك لا يبلى"[٢]. يعدّ حنظلة مهماً إذ انه يؤدي دوراً شيقاً في تطور أفكار الشيعة المتطرفين فيما يخص شخصية وقدر الإمام الشهيد. ربما كانت كلماته عن القدر، قوية جداً ومؤثرة في أصلها في اللغة العربية ومليئة بالإشارات القرآنية وربما كانت شخصيته غير المعروفة أو أي سبب آخر غير معروف هو الذي قاده ليؤدي هذا الدور. فقد كان كما يقال انه يشبه الحسين ومات عوضاً عنه كما صلب رجل آخر يشبه المسيح وصلب بدلاً منه[٣].

إن الفكر الشعبي المنتشر يقول ان الشخص وقبل وفاته فانه يظهر قدرات فيما وراء طاقة وإدراك الرجل الاعتيادي. ففي خلال تلك اللحظات الأخيرة فان الشخص يكتسب إدراكا وحدة بصيرة وتستجاب

(١) القرآن ٣٠:٤٠ - ٣١؛ اربيري، المجلد الثاني، ص ١٧٨.

(٢) الطبري، تاريخ، المجلد الثاني، ص ٢٥٤؛ المفيد، ص ٢٢٢.

(٣) إن القرآن لا يدخل أبدا في صلب التفاصيل، على أية حال انظر القرآن ١٥٧ : ٤.

صلواته في الحال. اظهر الحسين مثل هذه القدرات ولكن في حالته هذه فان هذه القدرات يجب ان لا تعزى إلى تلك الظاهرة العامة بل إلى كراماته الخاصة او حظوته الخاصة عند الله كإمام وولي من أولياء الله. فهناك الكثير من الأمثلة التي تحكي عن رجال حاولوا شتم الحسين وتحدي مطالبه بالقيادة فكانوا يعاقبون في الحال من خلال تعاويذه ولعنته عليهم[١].

وبعد ان قُتل جميع أصحاب الحسين، سقط ابنه علي الاكبر وكل أصحابه في المعركة واحداً بعد الآخر. واخيراً، تُرك لوحده تماماً فذهب إلى خيمة امرأة وسأل عن طفل ولد خلال هذه الرحلة بوقت ليس ببعيد[٢]. فأخذه الحسين وجلس به عند باب الخيمة. وتصور بعض المصادر قسوة أعداء الحسين إذ تقول ان الحسين واجههم والطفل على يده وتوسل اليهم بشربة ماء إلى الطفل العطشان[٣]. الا ان الطفل يقتل بسهم في رقبته[٤] وبعض المصادر تشير إلى ان الحسين ملأ يديه بدم الطفل ورمى به نحو السماء وصلى قائلاً، "اللهم ان حبست عنا النصر فاجعل ذلك لما هو خير لنا، وانتقم من هؤلاء الظالمين"[٥].

كما يجب ان نلاحظ ان الاعضاء الذكور من عائلة الحسين الذين توفوا

(١) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٤٦؛ المفيد، ص ٢٢٢.

(٢) حول هذا الرضيع الأسطورة وبحسب اليعقوبي في المصادر المبكرة جدا، فانه قد ولد في الوقت نفسه الذي تمنى فيه والده أن يراه. اليعقوبي، المجلد الثاني، ص ٢٣٣.

(٣) الحلي، ص ٥٦؛ ابن طاووس، ص ٥٥ - ٥٦؛ سيد محمد مهدي ابن السيد جعفر الموسوي، رياض المصائب، (١٢٤٣ هـ). وهذه أخر مخطوطة من مجموعة المؤلف.

(٤) انظر الهامش السابق.

(٥) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٥٧؛ المفيد، ص ٢٥٥.

وهم يقاتلون، كانوا كلهم شباباً وبالكاد يقدرون على حمل السلاح. ومن بين هؤلاء ابنا الحسن، القاسم وعبد الله. وكان عبد الله مجرد ولد صغير وقف إلى جانب عمه بعد ان تسلل من خيم النساء، إذ ضربه رجل بسيفه قاطعاً يده في البداية ومن ثم قتله. أخذ الحسين عبد الله بين ذراعيه، الذي كان في زفرات الموت منتحباً على موت الصبي وعجزه هو عن انقاذه[1].

واحد من الرجال الذين كانوا موجودين مع الحسين من عائلته كان أخوه الأصغر (غير الشقيق) العباس. إذ كان موته حلقة مؤثرة أخرى في هذه المأساة كما اقتبست في احاديث دينية أخرى. فقد قيل لنا، إنه هو الذي كان قادراً دائماً على ايجاد طريق ما لجلب الماء من الفرات لانقاذ حياة النساء والاطفال الذين كانوا يموتون عطشاً. لذا أعطي هذا اللقب "سقّاء كربلاء"[2].

لقد لوحظ في هذه الدراسة ان القصص الشيعية تعتبر الإمام الحسين أنموذجاً لكل الفضائل. ولاسيما شجاعته إذ يركز عليها بوصفها شجاعة خارقة للحدود البشرية. فسؤال انخراط الحسين في القتال الحقيقي، مهم لاستيعاب تطور شخصيته في الدين الإسلامي لاسيما المذهب الشيعي. إذ سنعود لاحقاً للتطورات الآتية ولكن أولاً يجب ان نبحث القليل من القصص ذات العلاقة في المصدرين الذين استخدمناهما للتحدث عن

(١) المفيد، ص ٢٢٤.

(٢) انظر مثلا الخوارزمي، المجلد الأول، ص٢٤٢؛ الموسوي، حديث كربلاء، ص ٢٥٢. المصدر الأخير الذي تردده جميع المصادر المتأخرة تجعل من العباس بطلاً مقدساً لاسيما في قصيدته المستشهد بها هناك.

استشهاد الحسين وهما، تاريخ الطبري والإرشاد للشيخ المفيد[1].

ان العرض الذي يعدّ أساساً للتوضيح الآتي قد أعطي على ذمة شاهد عيان للمعركة وهو حامد بن مسلم. كان حامد، كما زُعم، من معسكر العدو، قد أدى دوراً مهماً في إبعاد عنف الرجال الرعاع عن النساء وانقاذ حياة ابن الحسين علي السجاد[2]. فقد وصف حامد الحسين كما رآه في نهاية المعركة: "فوالله ما رأيت مكسورا قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جاشا ولا أمضى جنانا منه ولا اجرأ مقدما، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله ان كانت الرجالة لتنكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب"[3].

وفيما ابعد من هذه العبارة فانها لا تقول شيئاً فعلياً عن قتال الحسين إذ تذكر المصادر الأولى القليل عن ذلك. فالطبري يقول ان الحسين قاتل حتى النهاية وهو على قدميه لمدّة ومن ثم عاد إلى مكانه قائلاً: "أعلى قتلي تحاثون، أما والله ! لا تقتلون بعدي عبدا من عباد الله أسخط عليكم لقتله مني ! وأيم الله ! إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من

---

(١) ابن شهراشوب الذي يعتبر من أهم المصادر شعبيةً، يوكد بان الحسين قتل من قبل حوالي ٢٠٠٠ شخص، انظر مناقب، المجلد الثالث، ص ٢٤٦، ولفي اللغات الأوروبية انظر:

(Der Tod Des Husein ben Ali und die Rache, ein historischen Roman aus dem Arabischen) (١٨٨٣ وقد ترجمها (ف. وستينفيلد، غوتنغن.

(٢) لقد سمعت فقط ولكني لم ار بعيني بان العالم الشيعي الهندي البارز علي نقي، يدافع عن فكرة الشخصية الخيالية لهذا الشخص، ولكن خلال النقاش المختصر الذي دار بيننا في اليغاره في الهند، لم يقل اي شيء في هذا الخصوص.

(٣) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٥٩؛ المفيد، ص ٢٦٦.

حيث لا تشعرون، أما والله! لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دمائكم، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم"[1]. وتقريباً فان معظم المصادر الأولى والآتية تقتبس عبارة قيلت على ذمة الإمام السادس جعفر انه وجد على جثة الحسين ثلاثة وثلاثون طعنة من طعنات الرماح و أربعة وثلاثون ضربة من ضربات السيوف وكان جسمه مليئاً بالسهام[2].

ويبدو مما سبق ان الحسين قتل تدريجياً ففي البداية قتل بوساطة السهام ومن ثم بوساطة الجروح التي أصيب بها جراء ضربه بالحجارة وضربات السيوف من أولئك الذين كانوا يمرون به ولم يرغبوا بقتله. وقبل موته وإذ كان يتنبأ ان ملابسه ستسرق وسيترك عارياً، فقد أخذ بنطالاً يمنياً وفتحه إذ لم يعد أحد راغباً فيه ولبسه تحت ملابسه. ولقد قيل لنا انه، ومع هذا، قد جرد من ملابسه وترك عارياً فوق الرمال[3].

وأخيراً، عندما ترك الحسين وحيداً غير قادر على الحراك جلس على الارض وأطلق صرخة مثيرة للشفقة طلباً للنجدة: "هل من ذاب يذب عن حرم رسول لله؟ هل من موحد يخاف الله فينا؟ هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا، هل من معين يرجو ما عند الله في إعانتنا؟"[4].

ومن ثم ملأ يديه بدمه ولطخ به وجهه ولحيته قائلاً "هكذا والله! أكون

(١) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٦٠.

(٢) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٦٠ - ٢٦١؛ المفيد، ص٢٢٥؛ وكذلك امالي بن بابويه، ص٩٩.

(٣) المفيد، ص ٢٢٥.

(٤) الخوارزمي، المجلد الثاني، ص٣١؛ ابن طاووس، ص ٦٥.

حتى ألقى جدي محمدا، وأنا مخضوب بدمي، وأقول : يا رسول الله! قتلني فلان وفلان"[١].

وعندما جلس الرجل مترنحاً إلى الإمام والخلف غير قادر على الحراك جاءت أخته تنوح بصوت عالٍ. إذ التفتت إلى ابن سعد ووبخته لأنه سمح بقتل أخيها بينما كان جالساً ينظر. وفي النهاية لكز الشمر حصانه إلى الإمام وحث الرجال قائلاً "ماذا تنظرون؟ ضعوا حداً لعذاب الرجل"[٢]. فضربه رجل بضربة قوية قطعت ذراعه الأيسر وطعنه ثانٍ بضربة في ظهره حتى سقط على وجهه.

وليس من الواضح من بالضبط الذي قام بقطع رأس الحسين فحسب المصادر الأولى انه كان رجلاً يدعى سنان ابن أنس الناخي إذ يقال انه أعطى رأسه إلى يزيد بن خولي الأصباحي الذي حمله بدوره إلى ابن زياد[٣].

وتم سلب ممتلكات الحسين وحتى حجاب النساء فقد انتزع من رؤوسهن. وحث الشمر الرجال على قتل علي ابن الحسين المريض إلا ان حامد بن مسلم وفيما بعد ابن سعد تدخلا وأنقذا الصبي. وعندما حملت النسوة إلى الكوفة مررن بجثث القتلى التي ما زالت ملقية على ارض المعركة فصرخت زينب قائلةٍ: "يا محمداه يا محمداه !، صلى عليك ملائكة السماء، هذا حسين بالعراء، مرمل بالدماء، مقطع الأعضاء، يا محمداه!

---

(١) الخوارزمي، المجلد الثاني، ص ٣٢.

(٢) المفيد، ص ٢٢٧.

(٣) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٦٠؛ المفيد، ص ٢٢٧. المفيد يخبرنا بان يزيد قد جاء ليقطع رأسه ولكن يداه كانتا ترتجفان، ولذلك قام شمر بقطع الرأس وأعطاه اياه ليحمله لابن سعد وبعد ذلك لابن زياد.

وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا"[1].

وفي هذه الترنيمة الجنائزية وجد المذهب الشيعي القوة المحركة لمجالس التعزية. وفي التقاليد الأخرى التي تخبرنا ان زينب عندما حدقت في الجثث الميتة ضربت رأسها فأدمته بدم فاجعتها"[2].

وعندما وصل الاسرى مع رؤوس الشهداء إلى الكوفة جمع ابن زياد أهل الكوفة ليلقوا نظرة على المشهد المأساوي. فنظر إلى رأس الحسين وابتسم وبدأ بنبش اسنان الرأس بعصاً كانت في يده. وأخذ زياد ابن الارقم أحد أصحاب الرسول بالبكاء وقال: "اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين، فوالذي لا آله غيره، لقد رأيت شفتي رسول الله على هاتين الشفتين يقبلهما". ومن ثم ترك القاعة قائلاً: "أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبُعداً لمن رضي بالذل"[3]. أمر ابن زياد بقتل علي ابن الحسين لأنه لم يرغب في إبقاء أي ذكر من سلالة الحسين على قيد الحياة إلا ان مرضه وصغر سنه وتدخل بعض الرجال الموجودين حال دون حصول ذلك.

أرسل ابن زياد الأسرى والرؤوس المقطوعة إلى يزيد في دمشق الذي ذعر لرؤية منظر الاسرى وأمر بفك الأسر عن أيديهم وأرجلهم وان يعطوا ملابس نظيفة. وأسكنهم في دار قريبة من داره إذ أقامت نساؤه ونساء

---

(١) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٦٢.

(٢) المجلسي ٤٤، ص ١١٥. المجلسي هنا يضع اللحن الحزين في فمها في قصيدة طويلة والتي سوف نناقشها في الفصل القادم.

(٣) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص ٢٦٢؛ المفيد، ص٢٢٨.

الحسين مراسيم البكاء على القتلى ومن ثم تم تزويدهم بالمؤن اللازمة ورجال صالحين صادقين رافقوهم في طريق العودة إلى المدينة.

وسنعود إلى يزيد لاحقاً اما الآن فلنتتبع أثارنا إلى المدينة وان نتابع باختصار الحسين مرة أخرى إلى كربلاء وعائلته إلى المدينة. وفي هذه المرة لن يكون دليلنا المؤرخون ولكن كتاب قصص الأنبياء. كما يجب أن نلاحظ أن السرد التاريخي للواقعة لا يخلو من التأثير القصصي وكذلك لا يمكن القول بان الأعمال القصصية وسير القديسين تخلو من الأسس التاريخية. ان هذا الفصل بين التاريخ الأصلي وقصص سير القديسين لم يكن معروفاً لدى الكتاب القدامى. فقد كانوا يكتبون ليس كمشاهدين غير مهتمين بالفكرة بل كأعضاء في المجتمع الذين هم أنفسهم ينتمون إلى تقاليده وتاريخه.

٤-٣ التطورات اللاحقة والتفسيرات الدينية

من خلال مناقشتنا لبعض مظاهر استشهاد الحسين والدوافع التي قادت إلى ذلك، نستطيع ان نرى بكل سهولة نوعا من التوتر المستمر، ربما في داخله هو، ولكن بصورة أكثر وضوحاً في القصص التي تكونت عن حياته وعن موته، توتر بين الضعف والقوة، القرار الحر والتصميم، وبين الخير والشر. ان الضعف المأساوي في شخصية البطل والذي عادة ما يعكس الطبيعة البشرية ظاهرة معروفة في التاريخ الديني والأسطورة والأدب. ففي بستان الجثمانية صلى المسيح إلى الله ان يبعد عنه كأس المرارة ولكنه في النهاية سلم حياته وإرادته إلى الله. وفي هذا الاستسلام إلى إرادة الله سما فوق الوجود البشري وحقق النصر على الصليب كبطل سماوي. لقد تُرك من الله والبشر كما نرى في صرخته "الهي .. الهي لماذا تركتني"[1].

(١) إنجيل متى ٤٦:٢٧.

ومع هذا فأنه يعلن بثقة وقبل صلبه انه لو كان هذا قراره لأرسل الله فيالق من الملائكة تدافع عنه[1]. لذا أصبح الصليب عرشه ومجده و إكليل الشوك تاجه ونصره[2]. ان هذا الأنموذج الحياتي وصراع البطل السماوي المتمثل في المسيح يشابه إلى حد ما حياة وصراع الحسين كما تفسر من قبل التقاليد والقصص الدينية.

لقد لاحظنا في نهاية الفصل السابق ان الحسين اقترب من شهادته بشجاعة وحزن عميق، مع الخوف من الموت وحب الحياة والاستعداد البطولي للموت لو لزم الأمر. ومثل المسيح، مع هذا، فقد أمضى الدقائق الأخيرة، قبل بداية الصراع الأخير مع الموت، في بستان الجثمانية بالحزن والدموع. ان المؤرخون والكتاب الأوائل لأدب الاستشهاد (المقاتل) يقولون ان الحسين شوهد وهو يدخل احد مساجد المدينة متكئاً على رجلين مما يعني انه كان مريضاً في تلك المدّة[3]. وبوصفه ضعيفا جسمياً لمرضه، ومسحوقاً من خوفه من الموت فقد ذهب الحسين إلى قبر رسول الله إذ أمضى ليلتين قبل بدء رحلته إلى مكة. وبعد ان قام بعدة ركعات توسل إلى الله ان يختار له ما يرضيه هو (أي الله) ورسوله. وبكى بدموع مريرة حتى نام من شدة الارهاق وقت انبلاج الفجر. وفي حلمه رأى الرسول ينزل من السماء مع الملائكة وأخذ الرسول الحسين وشده إلى صدره قائلاً: "يا بني، يا حسين! كأنك عن قريب أراك مقتولا مذبوحا بأرض كرب وبلاء

---

(١) إنجيل متى ٥٣:٢٦.

(٢) جوزيف كونيللي،م.ا، في "الترتيلة في القداس الروماني" (ويستمنستر: ماريلاند، مطبعة نيومان، ١٩٥٢، ترتيله) رقم ٥٢، ص ٨٠ - ٨٢.

(٣) الطبري "تاريخ" المجلد السادس، ص ١٩١؛ الخوارزمي، المجلد الأول، ص١٨٧.

من عصابة من أمتي، وأنت في ذلك عطشان لا تسقى وظمآن لا تروى، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي، ما لهم لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة"[1].

وبسبب الوصف القرآني الواضح والدقيق للحياة الأخرى فان الدين الإسلامي بشكل عام يصور الحياة الأخرى امتداداً لهذه الحياة بكل مظاهرها. لذا فان الحسين وفي رؤية قصيرة تشبه الحلم في الليلة السابقة لحدوث المعركة اذ طلب منه الرسول ان يتعجل لأن العائلة كلها تتوقع ان تقطع الخبز معه (الإفطار) ذلك المساء في الجنة. إذ قال الرسول ايضاً: "حبيبي يا حسين! إن أباك وأمك وأخاك قد قدموا علي، وهم إليك مشتاقون، وإن لك في الجنة درجات لن تنالها إلا بالشهادة". فأجابه الحسين في الحال "يا جداه! لا حاجة لي في الرجوع إلى الدنيا أبدا، فخذني إليك واجعلني معك إلى منزلك". فقال له النبي: "لا بدّ لك مِن الرجوع إلى الدنيا حتّى تُرزق الشهادة، وما كتب الله لك فيها من الثواب العظيم؛ فإنّك وأباك وأخاك وعمّك وعمّ أبيك تُحشرون يوم القيامة في زمرة واحدة حتّى تدخلوا الجنّة"[2].

وهناك حديث قديم جداً رُوى على ذمة الإمام الخامس، يقال فيه ان "الله تعالى أنزل النصر على الحسين حتى كان ما بين السماء والأرض ثم خيِّر: النصر، أو لقاء الله، فاختار لقاء الله تعالى". هذه كانت الخطوة الأولى في تطور القصة التي ستجعل الاختيار غير مشروط في النهاية[3]. فقد تغير الاختيار مما بين النصر او البركة التي سيحصل عليها في الحضور

---

(١) المجلسي ٤٤، ص ١٨٧؛ والهامش في مصدره.

(٢) المجلسي، المجلد ٤٤، ص ٢٣٨؛ لخوارزمي، المجلد الأول، ص ١٨٨

(٣) الكليني، كافي، ص ٣٨٦.

الإلهي إلى الاختيار ما بين النصر أو السعادة الفورية برفقة الرسول في الجنة[1].

أما التطور اللاحق والأخير في هذا التحول فيظهر من خلال هذه الرواية فقد رأينا ان الحسين ترك وحيداً على أرض المعركة مطلقاً صرخة حزينة طلباً للنجدة. فسمعت الملائكة ذلك واعترضت عند الله الا يترك وليه بهذا اليأس فنزل لوح من السماء في يد الحسين إذ كتب عليه: "يا حسين لم نجعل الموت والشهادة فرضاً عليك. فموتك كان اختياراً ولن يغير من مكانتك عندنا فلو أردت الآن ان نبعد عنك هذه المصيبة فسنحققه لك. . . ."[2].

وفي الحال ملأت مجموعة من الملائكة بسيوف من نار، الفضاء بأكمله ما بين السماء والأرض مستعدة لتطيع أمر الحسين. الا انه رمى اللوح باتجاه السماء معيداً إياه إلى الله بهذه الكلمات: "أود أن أموت او أحيا سبعون مرة، كلا ولو حتى لسبعين ألف مرة في حبي وطاعتي لك. . . فليكن في موتي النصر لدينك وحماية لشريعتك"[3].

ان فكرة الرضا الطوعي وغير المشروط للاستشهاد، في سبيل محبة الله والحفاظ على شريعته، قد دفعت فكرة الفداء في الفكر الشيعي إلى نهايتها لقصوى. هذا التفسير لموت الحسين هو الذي بقي بشكل أو بآخر حتى وقتنا الحاضر.

وفي حديث آخر قديم جداً روّيَ انه، وهو في طريقه إلى العراق، التقى

(١) الطبري، دلائل، ص ٧٢.

(٢) الدربندي، ص ٣٩٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٩٦.

الحسين بعض الرجال القادمين من الكوفة إلى مكة. فقالوا له : ان قلوب أهل الكوفة معك وسيوفهم مع بني أمية. فرفع يديه إلى السماء وفجأة انفتحت أبواب السماء ونزل عدد لا يحصى من الملائكة فقال الحسين للرجال "لولا تقارب الأشياء، وحبوط الأجر لقاتلتهم بهؤلاء (أي الملائكة)"[١].

وهناك رواية أخرى يفسر بها الإمام الحسين نفسه للجن المؤمنين معنى استشهاده بعد ان يعرضوا عليه مساعدتهم : "يا مولانا نحن شيعتك وأنصارك فمرنا بما تشاء، فلو أمرتنا بقتل كلّ عدو لك وأنت بمكانك لكفيناك ذلك. فجزاهم خيراً. وقال لهم : فإذا أقمت في مكاني فبماذا يمتحن هذا الخلق المتعوس، وبماذا يختبرون، ومن ذا يكون ساكن حفرتي، وقد اختارها الله تعالى لي يوم دحا الأرض، وجعلها معقلاً لشيعتنا ومحبّينا، تقبل فيها أعمالهم وصلواتهم، ويجاب دعاؤهم، وتسكن إليها شيعتنا، فنكون لهم أماناً في الدنيا والآخرة "[٢].

ان التوتر الذي نشهده هنا هو بين مشهد شهادة الحسين وتلك للإنسان الاعتيادي بغض النظر عن مكانته او تلك للبطل السماوي الذي تعتر حياته كلها مقدرة سلفاً. ان كلا المظهرين مهمين بالنسبة للمذهب الشيعي وعلى هذا أساس العرض المتوازن لهتين الظاهرتين وليس على أساس رفض أي منهما، قام أساس الإمامة الشيعية. لذا فان التقاليد الشيعية الرسمية تصر على ان الاستشهاد كان العنصر العام في حياة كل إمام. ومع هذا، فان الاستشهاد، كفكرة رئيسة، قد وفر الرابط بين الأئمة والمجتمع.

---

(١) الطبري، دلائل، ص ٧٤.

(٢) ابن طاووس لهوف، ص ١٣١؛ وهنا اقتبس هذا التقليد من كتاب "المجالس" للمفيد.

ان اللاهوت الشيعي يعدّ ان كل إمام هو خليفة وان بقيت قدراته الدنيوية غير مدركة فذلك فقط بسبب حماقة الانسان. امتدت خلافة الحسين منذ وفاة أخيه الحسن وحتى تاريخ وفاته هو. وبما ان الإمام لا يتم اختياره من قبل الانسان بل يُعين من قبل الله فان رفضه من قبل الناس لا يعني ابداً إبطال أو إلغاء سلطته، لابل ان هذا الرفض يعد بالنسبة للمذهب الشيعي مساوياً أو معادلاً لمعارضة الإرادة الإلهية. ولذلك قيل لنا ان الحسين وقبل ذهابه إلى العراق قد شوهد واقفاً على ابواب الكعبة ويد جبرائيل في يده إذ كان يقول الملاك بصوت مسموع للجميع "أسرع بالبيعة لله"(١).

يجب ان نلاحظ ايضا ان كل شيء يتحكم به الله، ليس فقط موت الإمام ولكن ايضا كل تفاصيل حياته. فكل إمام، بشكل خاص، كان له برنامجه الذي كان مقدراً عليه ان يكمله قبل موته. ولقد تم التعبير عن ذلك بوضوح بطريقة غير مألوفة. فالرسول استلم الوحي الإلهي على شكل كلمات مقروءة ولكن ليست مكتوبة، ذلك ينطبق ايضاً على كل من القرآن والأحاديث القدسية. الا ان المذهب الشيعي يؤكد ان ان الله عَزَّ وَجَلَّ انزل على النبي صحيفة من السماء فيها اثنا عشر ختماً، لكل إمام ختمه، ومكتوب تحت الختم ما يعمله. وأما الذي كان يخص الحسين فقد كتب فيه "يا حسين.. لقد أراد الله أن يخصك بالشهادة"(٢).

تحتل معركة كربلاء مكانة مهمة بالنسبة للمذهب الشيعي توازي معركة بدر في التاريخ الإسلامي، وشهداؤها كان لهم الحضوة لدى الله كأولئك

---

(١) ابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص ١١.

(٢) كليني، كافي، المجلد الأول، ص ٢١٦؛ وابن قولويه، ص ٨٨.

الذين استشهدوا في معركة بدر[1]. كما ان شهداء بدر قد دعموا بجماعة من الملائكة[2] بحسب ما قيل لنا، فان أولئك الملائكة أنفسهم جاؤوا إلى الحسين وهو في طريقه من المدينة إلى مكة وعرضوا عليه مساعدتهم بحسب أمر الله لهم. الا انه اخبرهم بان يشهدوا موته وان يحرسوا قبره حتى مجيء القائم (المهدي)[3].

ووفقا لإحدى الأحاديث الشعبية ولكن غير المعروف على نطاق واسع جدا، فان الله قد اختار ألف رجل ليحموا دينه منذ إنشاء العالم وحتى نهايته. وعندما سئل الحسين عن توزيع عدد هؤلاء الرجال حسب الزمن، أجاب ان رفاق طالوت[4] كانوا ٣٣٠ رجلا، كما كان عدد الذين قاتلوا في بدر ٣٣٠ رجلا. وفي نهاية الزمن سيكون هناك ٣٣٠ رجلاً يحمون المهدي ويبقى ٦١ رجلاً وهؤلاء هم رفاق الحسين[5]. لذا فان الرجال الذين حاربوا وقتلوا مع الحسين قد اختيروا من قبل الله للحصول على هذا الشرف قبل خلق العالم حتى وواجهوا الموت من غير الآم السيوف الحادة لان الله حصنهم عن الالم كما فعل بشهداء معركة بدر[6].

ويقال ان الله قد رفع الغشاوة عن عيونهم فرأوا موقعهم في الجنة. لذا

---

(١) للمقارنة بين شهداء المعركتين، انظر المجلسي في حديث كربلاء ص ٥٦.

(٢) القرآن ٤٠: ٩.

(٣) ابن طاووس ص ٥٧؛ وابن قولويه ص ٨٨.

(٤) طالوت، الذي ذكر في القرآن هو ملك عبراني ونبي قديم، قام بقتل جليات وربما يكون شاول. قرآن ٢٤٧: ٢.

(٥) المسعودي، الإثبات، ص ١٦٣.

(٦) الموسوي، حديث كربلاء، ص ٥٢.

حاربوا بكل شجاعة متلهفين للسعادة التي تنتظرهم في الجنة[١]. وحتى انهم تذوقوا هذه السعادة قبل موتهم كما نقرأ في واحدة من القصص المثيرة التي تنسب للإمام السادس. فعندما كان رفاق الحسين يعانون العطش الشديد في اليوم الذي سبق المعركة، جمعهم الحسين وقال لهم "من كان ظمآناً فليجئ، فأتاه أصحابه رجلا رجلا فجعل إبهامه في راحة [فم] واحد فلم يزل يشرب الرجل بعد الرجل حتى ارتووا كلهم، فقال بعضهم: والله! لقد شربنا شرابا ما شربه أحد من العالمين في دار الدنيا. "[٢]. وتستمر القصة في ان الحسين جمع رفاقه ايضاً في المساء ونصب أمامهم طاولة كبيرة مليئة بكل أطايب المأكولات والمشروبات من طعام الجنة إذ أكل وشرب الجميع منها. ومن ثم أرسل كل واحد منهم إلى بيته وهو نفسه ذهب إلى جبل رضوة قرب مكة إذ سيبقى حتى مجيء المهدي[٣]. لم يتوقف خيال الكتاب الشيعة إلى حد معين ولا حتى إلى المتناقضات المبهرجة في القصص التي كانوا يسعون من ورائها التأكيد على الجوانب العجائبية بل وحتى الخيالية لآلام استشهاد الحسين.

فعندما ترك الحسين وحيداً في أرض المعركة، شعر باليأس العميق للرجل الذي يترك في مواجهة الموت. وامام صرخة اليأس الأخيرة التي اطلقها الحسين، تحرك ثانيةً رفاق الحسين المقتولين وتوسلوا الحسين ان يعودوا إلى الحياة ثانيةً حتى يقاتلوا معه وان يموتو دفاعاً عنه. الا ان ذلك لم يكن ليتحقق فقد كان على الإمام ان يتحمل كل عذاباته وان يشرب من كأس الشهادة. وفي رواية أخرى جاء الشيطان إلى كربلاء مع جنوده متحدياً

(١) انظر أبن بابويه، علل، ص ٢٢٩.

(٢) الطبري، دلائل، ص ٧٧.

(٣) المصدر نفسه السابق، ص ٧٧، وسوف نعود لهذا التقليد في الفصل السادس.

الله في ان يمتحن الحسين بحرارة الشمس الشديدة للصحراء إلى ان يجعله ينكسر تحت تأثير الحر الشديد. فزاد الله من حرارة الشمس سبعين مرة وكان الحسين والشيطان فقط يشعران بذلك. وبالطبع فان الحسين وقف صلباً ولم يتأثر وهرب الشيطان واتباعه مهزوماً مكسوراً[1]. وهناك قصة أخرى تقدم مستوى مواز للأغراءات التي تعرض لها بوذا وبشكل غير مباشر الاغراءات التي تعرض لها المسيح. وعلى غرارهم كان على الحسين ان يحقق النصر من خلال المعانات وكلما اشتدت التجارب كلما كان النصر أعظم. فقد قيل لنا ان الشيطان اراد ان يحول دون ان يكون موت الحسين شهادة خلاص وحماية من النار لكل من يبكي على موته ويبقي على ذكراه، الا انه لم ينجح[2].

وكما راينا في الفصل الاول من هذه الدراسة كيف ان الحيوانات، وغالباً اكثر من البشر، قد عبرت عن ولائها واخلاصها والآمها من خلال مساهمتها مع الآم العائلة المقدسة. فالخيل على وجه الخصوص قد عدّ من قبل الثقافة العربية كأنبل وأذكى الحيوانات واكثر من كونه مجرد واسطة نقل لفارسه المقاتل. فالخيل هو رفيق الفارس في القتال الذي تحدد قوته واخلاصه مدى نجاح الفارس في القتال. كما إن صورة السرج الخالي على الفرس الواسعة الانتشار تقدم صورة درامية للفارس الصريع. وكما قيل لنا ان الحسين ركب فرس رسول الله وقاده إلى ساحة المعركة وعندما قتل الحسين انتحب الفرس بمرارة "الظليمة .. الظليمة.. من أمة قتلت ابن بنت نبيها"[3]. ويقال في قصة أخرى ان الفرس أقبل يدور حول الحسين

---

(١) الدربندي ص ٣٩٤.

(٢) المصدر نفسه السابق، ص ٣٩٤.

(٣) ابن طاووس، ص ٥٦، النيسابوري، ص١٨٩.

ويلطخ ناصيته بدمه ضارباً رأسه على الارض بألم ومرارة. فقال ابن سعد دعوه لننظر ما يصنع فلما أمِن الطلب أقبل نحو الحسين يُمرغ ناصيته بدمه ويشمه ويصهل صهيلا عالياً، وتعجب ابن سعد من مرأى الفرس فأمر رجاله ان يمسكوا الفرس فأحاطت به الخيل فجعل يرمح برجليه حتى قتل أربعين رجلا منهم. فلما أمن الطلب جاء يتخطى القتلى قتيلا بعد قتيل حتى وصل إلى مصرع الحسين فصار يجمع العنان بفمه ويضعه في كف الحسين ـ ليقوم ـ فلما آيس من نهوض الحسين جعل يشم الحسين عرفه ويلطخ ناصيته بدم الحسين وتوجه نحو الخيام. وعندما رأته زينب صاحت على ابنة الحسين المفضلة (سكينة) قائلةً لها : تعالي ها قد جاء والدك بالماء. وعندما رأت الفتاة الصغيرة الفرس بدون فارسه أنشدت ترنيمة حزينة اما الفرس فقد سقط ميتاً لاستمراره بضرب رأسه على الأرض حزناً على سيده[١].

تدعي الكثير من المصادر الشعبية ان الشمر هو قاتل الحسين كما تصور عدة مصادر فعله الأخير بكل وضوح. وفي تطور مبكر لهذا التقليد فان شخصية الشمر تبرز بشكل واضح بين أعداء الحسين. كان الشمر، كما تصفه بعض المصادر، ابرصاً بوجه يشبه وجه الكلب[٢]. وعلى الرغم من عدة مصادر تاريخية تشير إلى عكس ذلك فان المصادر الشعبية لا تجد شخصاً أكثر شراً من الشمر. لا نريد هنا ان نتعقب تطور قصص الشمر في الأدب الشيعي الديني وانما نكتفي بسرد حادثة حديثة يمكن ان تؤخذ

---

(١) إن قصة حصان الحسين قد ذكرت في المصادر المبكرة جدا مع الكثير من الاختلافات، انظر محمد بن باقر عبد الكريم النجفي، الدمعة السكيبة، (لا يوجد مكان أو تاريخ)، ص ٣٤٦-٣٤٧. يدعي المؤلف بان هذه التقاليد قد أخذت من النسخة القديمة من كتاب المفيد إرشاد.

(٢) انظر أبن بابويه، أمالي، ص٩٨، وكمصدر مبكر انظر المجلسي ٤٤، ص٣١٨، ولمصدر حديث انظر الموسوي، الرياض، ص ٣٢٩-٣٣١.

كأنموذج لمعظم القصص اللاحقة في القرن السابع عشر وفيما بعد.

فالصورة هنا لا تصور الحسين الا على شكل بطل مقاتل. ونحن نراه ملقياً على الرمال مقلصاً وباسطاً جسمه بألم طالباً من الله النجدة والانتقام له من اعدائه. وعندما سمعه الشمر أقترح ان يقتل الحسين في الحال خشية ان يحقق الله له دعواته. الا ان بعض المصادر الأولى تشير إلى ان يزيد بن خولي الاصباحي جاء ليذبح الحسين الا ان يديه ارتجفتا فسخر منه سنان فقام هو بذبح الحسين. اما القصص الآتية فتشير إلى ان يزيد نظر في عيني الحسين وشعر بالخوف لانهما كانت مثل عيني الرسول وعلي. وأخيراً، جاء الشمر وركع عند صدر الحسين وبدأ بلعنه. فطلب الحسين ان يرى وجهه وابتسم واخبر شمر ان الرسول قد اخبره ان احدهم له سماته الشخصية نفسها سيقوم بذبحه. ومما لا شك فيه غضب الشمر ووضع السيف على رقبة الحسين الا انه لم يقطعها فقد لمس المنطقة المقدسة التي كان الرسول يقبل الحسين منها فذكر الحسين الرجل الشرير ان هذه الحياة فانية وان الحياة الأخرى أبدية، فأي شيء كان يحلم به الشمر لقتله الحسين كان قليلاً جداً مقارنةً بعقابه في الحياة الأخرى. الا ان الشمر كفر بالله وأدار الإمام على وجهه ونحر رقبته من الخلف[(١)].

تجمع الرجال على جثة الحسين بعد مقتله وكل من سرق ثيابه وأغراضه الأخرى حصل على نهاية سيئة. فعلى سبيل المثال سرواله القديم سرقه رجل بدأت يداه تذبل و تشل في الصيف مثل حزمة اخشاب ذاوية وفي الشتاء تصبح رطبة تنز او ترشح عنها الجراحة والدم حتى مات. وهكذا كان بالنسبة لكل رجل سلب الحسين. وفيما بعد عندما نحرت جمال الحسين

---

(١) الموسوي، الرياض، ص٣٣١.

للاكل تحول لحمها إلى نار او كانت شديدة المرارة من ان تؤكل[1].

وهناك مثال مثير صور بطريقة درامية في تمثيلية مجالس التعزية والتي تمثل في إيران وهي أسطورة حادي عيس الحسين[2]. فيقال ان الحسين كان يملك حزاماً غالي الثمن كثيراً ما كان يتمناه حادي العيس هذا. و تفترض هذه القصة على خلاف القصص الأخرى ان الحسين لم يترك عارياً فقد جاء سائق الجمال الشرير في ليلة مقتل الحسين حتى يحل نطاق أو حزام الحسين الا ان جثة الحسين وبأعجوبة تحركت ومدت يدها ومسكت بالنطاق لكي لا تسمح للرجل بأخذة وترك الجثة عارية تماماً. وعندما كان الرجل على وشك ان يحرك الحزام أصبحت السماء مضيئة ونزلت الملائكة مع الرسول، فاطمة، علي والحسن. وتلا الرسول بدعوة إلى الله فطار رأس حفيده من الكوفة فركبه ثانية على الجثة ولاحظ الرسول ان يدي الحسين كانتا مقطوعتين فأخبره الحسين بما فعل حادي العيس الشرير فلعن الرسول الرجل قائلاً "الهي اقطع يديه و رجليه وسود وجهه و لا تغفر له أبدا"[3] ويرى الرجل لاحقاً واقفاً خارج الكعبة باكياً متوسلاً برحمة الله الا انه كان يعلم ان ذلك غير مجدٍ.

ان القصص الشيعية، كما راينا، تسرد قصصاً متضاربة عن معاملة يزيد للاعضاء الناجين من عائلة الحسين. مثل ابن زياد فأن يزيد ايضاً عبث بأسنان الراس المقطوع للحسين الا ان احد أصحاب الرسول وبخه على

---

(١) المفيد، ص ٢٢٥؛ الطبري، تاريخ، ٦ ص ٢٦٠؛ ابن عساكر ٤، ص ٣٣٨-٣٤٠.

(٢) إن قصة حادي العيس يبدو انها نشأة من التقاليد المبكرة التي تتعلق بثياب (بنطلون) الحسين، وهي تشبه العديد من القصص الأخرى.

(٣) الطرَيحي، ص ٤٧٣.

فعلته بكلمات قاسية على شاكلة تلك الكلمات التي قيلت لأبن زياد[1]. كما يشار إلى الحاد يزيد وشره بأبيات من الشعر منسوبة إلى الادب الشعبي وقد قيلت عنه وهو يحدق في الوجه الذي أمامه وفي هذه الابيات يتمنى يزيد ان يكون اسلافه في بدر حاضرين الآن معه ليروا كيف انتقم لهم ومن ثم يختتم كلامه:

"لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

لست من خندف ان لم انتقم من بني احمد ما كان فعل" [2].

وفي واحدة من العديد من الخطب التي القتها زينب، أخت الحسين، توبخ بها يزيد على فعلته وعلى كفره في العودة إلى ايام الجاهلية وتنبأت بحتفه القريب المحتوم[3].

وفي ديوان يزيد كان هناك رجلٌ من البصرة وقع نظره على فاطمة الصغرى، إحدى بنات الحسين، ظناً نه ان هؤلاء الاسرى هم من غير بلاد المسلمين فطلب من يزيد ان يتخذها عشيقة له. فذعرت الفتاة الصغيرة وتمسكت بعمتها لتحميها. ووبخت زينب يزيد مرة ثانية وقالت ان يزيد لا يجرؤ على فعل ذلك حتى يتبرأ من الإسلام تماماً. لقد ذكرت هذه الحادثة في العديد من المصادر الأولى[4]، وهنا تقدم لنا هذه القصة كل امكانات

(١) ابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص ٢٦١.

(٢) هذه الأبيات ترد في التقاليد المبكرة جدا، انظر الأصفهاني، ص ١٢٠، وابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص ٢٦١.

(٣) هذه الخطبة وخطب اخرى منسوبة إليها تعتبر تحفة فنية في فن الخطابة في المصادر المتنوعة كشرح وتفسير المعاجم. انظر المجلسي ٤٥، ص ١٤٨-١٥٠.

(٤) الطبري، تاريخ ٦، ص ٢٦٤؛ المفيد، ص٢٣١؛ ابن بابويه، أمالي، ص ١٠٠.

المخيلة المفعمة بالحيوية. وبعد تبادل الكلمات القاسية بين يزيد وأخت الإمام، عنف يزيد الرجل بقسوة ومن ثم ترك الموضوع. الا ان المصادر اللاحقة تجعل الرجل يسأل عن هوية الاسرى وعندما يعلم عن هويتهم يلعن يزيد ومن ثم يقتله يزيد[1]. وفي مصدر لاحق آخر فان الرجل نفسه يلعن من قبل أم كلثوم اخت الحسين الصغرى، وذلك لوقاحته، وفي اللحظة التي اطلقت فيها دعوتها عليه فان لسان الرجل يقطع وتعمى عينيه وتصاب اطرافه بالشلل[2].

وهناك قصة أخرى تذكر المسيحيين واليهود الذين صادف وجودهم في وقت استشهاد الحسين. فعندما علموا بما فعل يزيد بعائلة الرسول قاموا بلعنه واتخذوا الإسلام ديناً لهم ومن ثم يقتلهم يزيد[3]. وكان أحد أولئك الرجال مسيحي من أهل المدينة الذي قابل الرسول عندما كان الحسين طفلاً صغيراً وشهد حلقة المصارعة التي أشرنا اليها مسبقاً[4]. فيقص هذه الحادثة على يزيد مشيراً إلى انه لم يكن باستطاعة الرسول ولا الملائكة ولا حتى الله نفسه ان يكسر او يحزن قلب الحسين بوصفه اضعف من أخيه، لذا فان ما فعله يزيد كان بحق خطيئة شنيعة. ومن ثم أعلن الرجل انه طوال تلك المدة كان هو عائلته قد ابقوا أمر إسلامهم سراً إلا انه الآن يعلن إسلامه ومن ثم أسرع إلى رأس الحسين محتضناً إياه باكياً إذ قام يزيد بعد ذلك بقطع رأسه[5].

---

(١) ابن طاووس، ص١٠٤.

(٢) المجلسي ٤٥، ص١٣٧.

(٣) المجلسي١٤، ص١٣٧. يقدم العديد من الأمثلة المشهودة. وكذلك النيسابوري، ص ١٨٩؛ والخوارزمي ١، ص ٦٩.

(٤) انظر الفصل الثالث.

(٥) المجلسي١٤، ص١٣٩؛ الدربندي، ص٥٢٦.

وخلال سنوات حكمه القصيرة التي زادت قليلاً عن الثلاث سنوات بحسب التقليد الإسلامي العام[1]، قام يزيد بقتل الحسين، ومن ثم قام جيشه بغزو المدينة وسلبها ومن ثم اغتصاب نسائها ومن ثم دمر الكعبة في حربه ضد ابن الزبير. ولاحقاً يقال ان يزيد انتهى نهايةً سيئةً. ان التفسيرات الصورية تظهر كيف ان معظم حياته ظلت مسكونة بالإحساس بالذنب لما فعله بحق الحسين. وفي إحدى رحلات الصيد إذ طارد غزالاً كان الله قد أرسله، سقط يزيد عن حصانه وظل الحصان يسحبه حتى ان رجله اليسرى قطعت وظلت معلقة بالرِكاب. وعندما توفي جاءت الشياطين وأخذته إلى أعمق حفرة في جهنم[2].

كانت واحدة من زوجات يزيد، واسمها هند والتي كانت سابقاً متزوجة بالحسين، قد رأت نوراً يشع من رأس زوجها السابق في حلم. ثم نزل عدد كبير من الملائكة من السماء محيين الرأس منتحبين. وجاء الرسول والقى بنفسه على الرأس المقطوع قائلاً "يا ولدي قتلوك.. أتراهم ما عرفوك.. ومن شرب الماء منعوك"[3] وذهبت هند لتبحث عن يزيد ووجدته في بيت أسود برأس منحنية وهيأة حزينة. وعندما قصت الحلم عليه حزن وخاف فقام بإعادة الاسرى إلى المدينة مع هدايا قيمة.

لقد تم التأكيد في هذه الدراسة على توحد الطبيعة وكذلك الابداع الإلهي وما وراء الطبيعة في دراما محرم وذلك من خلال الظواهر الشائعة للأعاجيب الخارقة والإشارات التي صاحبت ولادة وموت البطل. وليس

---

(١) ابن قتيبه، المجلد الاول، ص٢٩٠.

(٢) انظر المجلسي ٤٥، ص١٩٥. للفكرة العامة للعقاب لجريمة الحسين، انظر أيضا المجلسي ٤٦، ص٢٩٩، وكذلك الخوارزمي، المجلد الثاني، ص٨٦.

(٣) المجلسي ٤٥، ص١٩٦.

من الضرورة ان نعطي الأمثلة او نشير إلى مقارنات بين حال الحسين وحالات شخصيات روحية أخرى. فعندما مات الحسين قيل لنا ان السماء اسودت والشمس انكشفت إذ ظهرت النجوم في منتصف الظهيرة. وتصادمت النجوم وهبت ريح قوية إذ لم يعد بالإمكان رؤية أي شيء. وظن الناس ان نهاية العالم قد حانت ومعها تنتهي الامهم[١]. لم يصحب موت الحسين فقط الإشارات والأعاجيب، بل ايضا علامات حزن الطبيعة التي تركت إلى الابد في السماء كذكرى لهذا اليوم، إذ يقال ان الغروب الأحمر لم يكن ملحوظاً قبل ان يرمي الحسين بدمه إلى السماء[٢].

خلال مسيرة الاسرى وهم في طريقهم من ساحة المعركة إلى شوارع الكوفة، تروى الكثير من الأحاديث المنسوبة إلى النساء وابن الحسين الذي بقي على قيد الحياة. المصادر القديمة تعزو حديثاً إلى سيدة بيت علي، زينب. ولكن هذا الحديث حاله حال الأحاديث الأخرى لا يمكن الإحساس بقوة بلاغته الا في نصه العربي الأصلي[٣] "أتدرون ويلكم أيّ كبدٍ لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم فريتم ؟ ! وأيّ عهد نكثتم ؟ !وأيّ كريمة له أبرزتم ؟ ! وأيّ حرمة له هتكتم ؟ ! وأيّ دم له سفكتم ؟ ! لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السماوات يتفطّرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدّاً .. .أفعجبتم أن تمطر السماء دماً ؟. . . ."[٤] فمن الصعب القول بمدى تأثير هذه

---

(١) الخوارزمي، المجلد الثاني، ص٣٨؛ ابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص٢٢١؛ ابن بابويه، آمالي، ص ١٠٠-١٠١.

(٢) انظر الهامش السابق وأيضا إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، (القاهرة: نهضة مصر لا يوجد تاريخ)، المجلد الاول، ص ٩٧.

(٣) لصيغة مختلفة من خطابها انظر المجلسي ٤٥، ص ١٠٧.

(٤) ابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص٢٦٢؛ الطوسي، أمالي، ص ٩٠-٩١.

الاشارات في تقاليد محرم. وفي التطورات اللاحقة فان مثل هذه الخطب وغيرها، المنسوبة إلى زينب وغيرها من عائلة الحسين في طريقهم من كربلاء إلى الكوفة ودمشق والعودة إلى المدينة، قد تطورت كجزء من التقاليد العامة. لذا فعندما صرحت زينب ان السماء قد أمطرت دماً وحسب بعض المصادر انها أمطرت دماً أربعين يوماً واستمرت لمدة ستة أشهر. يشير الطبري على ذمة رجل عاصر الحسين الذي قام بدور فعال ضده ان الناس كانت ترى يومياً الدماء على جدران بيوتها[١]. وهذا الدم الآتي من السماء عدّ من قبل البعض كدموع السماء على دم الحسين المهدور. والأرض بدورها بكت على الحسين إذ كان الدم يرى تحت كل حجر وعلى كل جدار[٢].

قتل الحسين كما راينا على ايدي رجال يفترض انهم مسلمون وقسم منهم كانوا ابناءً لبعض أصحاب الرسول المقربين منه. وتلجأ القصص إلى مقارنة شخصية هؤلاء الرجال مع الرجال والنساء الذين كانوا غرباء تماماً عن المجتمع والدين الإسلامي. ويقارن موقف هؤلاء المسلمين الخونة، قياسا بمواقف الحيوانات والطيور التي اظهرت حزنها على هذه المأساة. وعندما توفي الحسين يقال ان الطيور توقفت عن الغناء والأكل والشرب لعدة ايام[٣]. ويقال ان غراباً شهد الواقعة نزل ثم تمرَّغ بالدم، ثم طار فوقع بالمدينة على جدار فاطمة بنت الحسين، وهناك حط على جدار بيت فاطمة

(١) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص٢٣٣؛ وللتقليد الشعبي انظر ابن بابويه، علل، ص ٢٢٨.

(٢) ابن بابويه، علل، ص ٢٢٨؛ والخوارزمي، المجلد الثاني، ص ٨٤؛ سوف نعود للبكاء من اجل الحسين في الفصل القادم كموضوع رئيسي في ثقافة محرم.

(٣) الخوارزمي، المجلد الثاني، ص٩٢؛ المجلسي ٤٥، ص ١٧١.

ابنة الحسين فرفعت رأسها فنظرت إليه فبكت بكاء شديداً. وفي عدة قصص، فان الغراب يعد نذيراً بالموت. وفي الادب الشرق أوسطي فالغراب يرمز إلى ملاك الموت. وفي حوار بين الطائر وفاطمة فان الطائر الحزين يعلن لها موت والدها فقالت له: "مَنْ تَنْعاهُ ويلكَ يَا غُرَابْ؟ قال: الإمام. فقلتُ: مَنْ؟ قال: الموفَّقُ للصَّوَابْ، إنَّ الحسينَ بكربلا بينَ الأسنَّة والضِّرَابْ، فابكي الحسينَ بعَبْرَة، ترجى الإلهَ مَعَ الثَّوَابْ قلتُ: الحسينُ! فقال لي: حقّاً لَقَدْ سَكَنَ التُّرَابْ، ثمَّ استقلَّ به الجَنَاحُ فَلَمْ يُطِقْ رَدَّ الجَوَابْ"[١].

ولقد لوحظ من الفكر الشيعي ان دم الحسين يعدّ مصدراً للشفاء والقضاء. فعدة قصص تشير إلى ان رجالاً أدوا دوراً مباشراً او غير مباشر في مقتل الحسين قد حلموا ان الرسول يفرك عيونهم بدم الحسين ومن ثم يستيقظون وقد فقدوا بصرهم[٢]. ان قصص الشفاء والإرشاد على الصعيد الآخر مليئة بالعاطفة الرقيقة إذ تظهر ان الشفاء والطيبة يمكن ان تتحقق من خلال المعانات والآلام.

هناك قصة يفترض انها وردت على ذمة آل البيت[٣]. انها قصة يهودي من المدينة كانت لديه ابنة عمياء وكسيحة. وكل ليلة كان والدها يأخذها إلى بستان خارج المدينة محاولاً الترويح عنها. وفي ليلة تركها والدها في البستان وعاد إلى المدينة وعلى شجرة بالقرب منها سمعت الفتاة صوت طائر حزين إذ أجابته ايضاً ببكائها ودموعها. وبينما كانت تجيب الطائر ببكائها زحفت بالقرب من الشجرة وكان الطائر ملطخاً بدم الحسين فسقطت قطرة من

(١) الخوارزمي، المجلد الثاني، ص٩٢.

(٢) للتقاليد المختلفة في هذا الموضوع انظر المجلسي ٤٥، ص ١٨٨.

(٣) المجلسي ٤٥، ص١٩٢.

الدم اولاً على عيني الفتاة فأبصرت في الحال وسقطت أخرى على يديها وقدميها فشفيت في الحال ايضاً.

عاد والدها قلقاً من تركها وحيدةً هذه المدة الطويلة وذعر عندما لم يجد ابنته المريضة وبدلاً من ذلك رأى فتاة تلعب بمرح بين الازهار في الحديقة. وبفرح وبشرى رأى الرجل وصلى بأسم كل انبياء اسرائيل ان يعطي الله القدرة للطائر ان يتكلم حتى يتمكن الرجل من معرفة ماذا حدث. تكلم الطائر واخبره انه قد شهد موت الحسين ولطخ نفسه بدم الحسين. ومن ثم طار إلى مجموعة من الطيور البيضاء مثله في هذه الحديقة كانت تغني وتأكل وعندما اعلن لها نبأ مقتل الحسين توقفت عن الغناء. لذا طار الطائر إلى المدينة ليبكي موت الحسين في المدينة التي ولد فيها.

حسب التاريخ الإسلامي لاسيما الشيعي فأن رأس الحسين أدى دوراً مشابهاً لدور الصليب في بداية التاريخ المسيحي الاوسط. فقد جعل الفاطميون رأس الحسين تاجاً لإمبراطوريتهم الكبيرة في مصر إذ يقال ان الضريح بُنيَّ ليحتوي رأس الحسين ولا زال قائماً حتى الآن[١].

وعندما استعرض الرأس في شوارع الكوفة ومرت الجماعات امام بيت زيد بن الارقم سمع زيد راس الحسين وهو يقول ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾؟[٢] فوقف شعر زيد فتعجب وقال "والله يا ابن رسول الله رأسك أعجب وأعجب"[٣].

---

(١) للمصادر حول موضوع راس الحسين، انظر ابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص٢١٢-٢١٧؛ الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص٢٦١-٢٦٢؛ المجلسي ٤٥، ص١٤٦-١٤٧.

(٢) القرآن ٩:١٨؛ اربيري، المجلد الاول، ص٣١٦.

(٣) انظر الهامش ١٦١ أعلاه.

وفي قصص أخرى لها العلاقة نفسها قيل لنا ان هناك رهبانا مسيحيين ويهود، عادةً من المعلمين (رابي)، الذين رأوا الرأس وكانوا في شدة العجب. فكان ان واحدً منهم طلب بان يبقى رأس الحسين معه لليلة واحدة وكان الراس يتحدث معه مما جعله يعتنق الإسلام في الحال ويصبح فرداً جديداً في الجماعة[1]. هناك مثل واحد عن هذا يخدم توضيح هذا الهدف.

أرسل راس الحسين، وذلك حسب المفاهيم الشائعة، إلى دمشق بصحبة عدد كبير من الحراس لضمان وصوله إلى يزيد. وفي الطريق توقفت القافلة لتبيت في الليل قرب دير أو صومعة يسكنها راهب مسيحي امضى حياته في عبادة الله في وحدة تامة. وعندما جلس الرجل لتناول طعام العشاء كتبت يد على الحائط بحروف من دم "أترجو أمة قتلت ابن بنت نبيها شفاعته يوم القيامة؟"[2]. نظر الراهب إلى الكتابة وإلى النور المشع الذي كان يحيط برأس الحسين. فعرض على ابن سعد عشرة الآف دينار لكي يبقي الرأس لهذه الليلة. فأخذ الرأس وضغطه قريباً إلى صدره قائلاً "يا رأس والله لا أملك إلا نفسي فإذا كان غدا فاشهد لي عند جدك محمد أني أشهد أن لا إله إلا الله"[3]. واعتنق الراهب الإسلام وكرس بقية حياته لخدمة آل البيت.

وبالقرب من دمشق طلب ابن سعد المال ووجد ان القطع المعدنية قد تحولت إلى قطع من الطين بدلاً من الذهب. مكتوب على احد وجهيها :

---

(١) المجلسي ٤٥، ص١٨١-١٨٢.

(٢) المصدر نفسهالسابق.

(٣) المصدر نفسهالسابق.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1] وعلى الوجه الآخر ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[2]. ورمى أبن سعد العملات في النهر وكانت نفسه ملؤه بالندم.

اما الذين حملوا الرأس فلم يكونوا اقل شراً من أولئك الذين ارتكبوا العمل الشرير الرئيس. فالقصص تشير إلى ان أولئك الرجال وضعوا الرأس أمامهم في تابوت وجلسوا يحتسون الخمر وبهذا ارتكبوا خطيئتين وهو خرق القانون المقدس وعدم اكتراثهم بفعل هذا الاثم أمام الحسين. وعندما نام الرجال ليلاً جاء الرسول مع مجموعة كبيرة من الملائكة حتى يبكي على الرأس وقام جبرائيل بضرب كل رجل برمح من نار قاتلاً الجميع ما عدا واحداً كان مستيقظاً تلك الليلة. واعترض الرجل مدعياً انه لم يكن طرفاً في القتال ضد الحسين وتوسل الرجل ان يعفو عنه الا ان الرسول لطخ عينيه بدم الحسين وقال له "اذهب، فلا غفر الله لك" وعندما استيقظ الرجل في الصباح كان قد أصبح ضريراً[3].

كان رأس الحسين مصدراً للعديد من قصص سير القديسين وهناك قصة تشير إلى هذه المسيرة الطويلة حتى نهايتها الأخيرة. فعندما وصل الرأس وحراسه إلى دمشق وضعهم يزيد في بناء مقبب خاص. وفي إحدى الليالي نزل الرسول مع العديد من الانبياء الاولين الآخرين والملائكة وبكوا على رأس الحسين وعلى الظلم الذي حل على حفيد الرسول محمد. واراد جبرائيل ان يهز الارض كلها من اساسها حتى يقتل كل ساكنيها على

---

(١) القرآن ٤٢ : ٤٥؛ و٢٢٧ : ٢٦؛ اربيري، المجلد الاول، ص٢٧٩، والمجلد الثاني، ص ٧٥.

(٢) المجلسي ٤٥، ص ١٣٨؛ وابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص ٢١٧.

(٣) ابن طاووس، ص ٩٨.

بكرة ابيهم. الا ان الرسول أوقفه قائلاً : "لا يا جبرئيل، فإن لهم معي موقفاً بين يدي الله يوم القيامة". ومرة أخرى وفي هذه القصة ايضاً يقتل جميع الحراس ما عدا واحداً بقي ليروي القصة. وأخيراً صعد الرسل والملائكة إلى السماء حاملين الرأس معهم الذي لم يُرى ثانيةً وابقى يزيد هذه القصة سراً[١].

تقودنا هذه القصة إلى فكرة أساسية أخرى في القصص التي تناولت موت الحسين. ولقد أصررنا في مناقشتنا في الفصل الثاني فيما يتعلق بالمقومات الجسمانية للائمة انه لا يمكن عدّهم بشراً اعتياديين أبداً. ولذلك فالسؤال عن معنى موت الحسين في ضوء المفهوم الشيعي للائمة لا يمكن الاجابة عنه بسهولة. فقد أجيب عن هذا السؤال بعدة طرق وفي عدة مراحل زمنية مختلفة. فقد كان هناك الذين تقبلوا موت الحسين بكل الأسى والعاطفة الممكنة كحادثة مأساوية في التاريخ الإسلامي. وان هذه المأساة كانت لها عبرها ودروسها في حياة الإنسان كنتيجة لحماقات البشر والثمرة التي قطفت في هذه الدنيا أو التي ستقطف ايضاً في الحياة الآتية. ان هذه الفكرة وبدرجات مختلفة قد تم قبولها من قبل الاغلبية السنية والتي أصبحت مسيطرة أكثر فأكثر لدى الشيعة أيضاً[٢].

وفي الجهة الأخرى فان الشيعة تقبلوا الموت الجسدي للحسين إلا أنهم يعدّون الأئمة مخلوقين من جوهر غير مادي، ويؤكدون على أن في هذه الهيأة غير المادية أو النورانية، الإمام الحسين صعد إلى السماء[٣]. وهذا الجسم

---

(١) قطب الدين سعيد بن هبة الله، كتاب الخرائج والجرائح، (تبريز: دار الطباعة، ١٣٠٥هـ)، ص٢٢٨.

(٢) انظر الحسين في حياته واستشهاده عند شمس الدين.

(٣) الدربندي، ص٤٦٥؛ انظر ايضا الفصل الثاني في خلق الأئمة ومادتهم.

الغير المادي يعرف بالجسم البرزخي وهو جسم نوراني، ليس ماديا ولكن في نفس الوقت ليس فقط روحي بل ما بين الاثنين اي مادة متوسطة، وهذا ما تدل عليه كلمة "برزخ" (الحاجز بين شيئين مختلفين).

والبعض أكد وبشكل جلي تام أن الحسين لم يمت بل رفع إلى السماء وان هناك من انتحل صورته او شكله[1]. ان هذا الموقف مرفوض من قبل الائمة الاثني عشر فعندما سئل الإمام السادس عما يظن بأولئك الذين يحملون الفكرة نفسها فقال "من زعم أن الحسين لم يقتل فقد كذب رسول الله صلى الله عليه وآله وعليا وكذب من بعده الأئمة عليهم السلام في أخبارهم بقتله... ما هؤلاء من شيعتي، وإني بريء منهم ..."[2]. وعدّت هذه الجماعة من المتطرفين (غلاة) و(المفوضية) من قبل الأئمة الاثني عشر. ويختتم الإمام السادس قوله بلعن الغلاة والمفوضية[3]. كما يذكر الإمام الثاني عشر كما نقلت اليه من قبل ممثله الاول (الوكيل) "وأما قول من زعم أن الحسين لم يقتل، فكفر وتكذيب وضلال"[4].

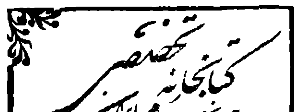
ان الاعتراض الذي قدمه الإمام السادس على فكرة ان الحسين لم يمت قائم اساساً على حقيقة ان الرسول والائمة من بعده كلهم تنبؤوا بموت الحسين وان فكرة عدم موت الحسين تجعل الانبياء والائمة كذبة ومن ثم فان هذا كفر. ليس هناك من حقيقة معينة في موت الإمام الحسين ولا اعتبارات

(١) انظر الملحق الثالث.

(٢) ابن بابويه، علل، ص ٢٢٧؛ امآلي، ص٨٧.

(٣) ابن بابويه، علل، ص ٢٢٧. المفوضية قائمة على فكرة أن الله، بعدما خلق العالم، فانه قد فوض امر ادارة شؤنه ومعيشته الى علي.

(٤) المجلسي ٤٤، ص٢٧١؛ الطبري، احتجاج، المجلد الثاني، ص٢٠.



مذهب معين دعت الإمام السادس إلى لعن الناس الذين يؤمنون بان الحسين لم يمت بل كان وراؤه التأكيد ان الرسول والائمة كانوا يتمتعون بالعصمة من كل خطأ وهذا الذي دفعه إلى اعتراضه الشديد على هذا المعتقد. الا انه عندما طرح عليه السؤال وبشكل غير مباشر من قبل احد اتباعه (ابن باقر) هل ممكن أن يوجد أي شيء في قبر الحسين فان الإمام لم يجب على هذا السؤال مباشرةً الا انه قال بغضب ". . . . إن الحسين مع أبيه، وأمه، وأخيه الحسن، في منزل رسول الله «صلى الله عليه وآله»، يحيون كما يحيى، ويرزقون كما يرزق"(١).

وإلى درجة ابعد من هذا يقال ان الرسول عندما صعد إلى السماء رأى صورة علي، في السماء الخامسة، التي صنعها الله حتى يتمكن الملائكة من زيارة علي كما يفعل الناس على الارض. وهكذا عندما ضرب ابن ملجم علياً على رأسه بالسيف فقد ظهر ذلك في صورة السماء كذلك. وعندما قتل الحسين رفعته الملائكة إلى السماء الخامسة وهو ملطخ بالدم واوقفته إلى جانب صورة والده. وسيبقون على هذه الصورة حتى يوم القيامة. وانه من المثير ان نلاحظ ان الراوي لهذه القصة يختتم بوصية الإمام السادس: "هذا من مكنون العلم ومخزونه لا تخرجه إلا إلى أهله"(٢).

لقد حاولنا في هذا الفصل ان ندرس قدر ما استطعنا القصص الأولى عن موت الحسين وكذلك بعض المشاهد الرئيسة لموته في الدين الإسلامي بالعموم وفي الفكر الشيعي على وجه الخصوص. لقد اصبح موت الحسين

(١) ابن قولويه، ص٣٢٤. هذا المصدر يعلن بأنه بعد موت الإمام أو النبي بثلاثة أيام، فان جسده يرفع إلى السماء، ولهذا لم يبقى شيء في القبر.

(٢) ابن قولويه، ص٣٢٤.

الإمام الثالث للمجتمع الشيعي، حدثاً كونياً يلمس المجتمع الانساني برمته، الطبيعة والكون أجمع. وأكثر من هذا فان قصة استشهاد الحسين قد أتحدت مبكراً مع الانبياء الاوائل الذي ذكروا في الانجيل والمسيح في انجيله. يشير الطبري في واحدة من الروايات الأولى[1] ان عالماً يهودياً من نسل النبي داود اسمه (رأس الجالوت) قد اعتاد ان يركض كلما مرّ هو وأصحابه بكربلاء. فقد كان يعلم ان ابن نبي سيقتل في تلك البقعة وكان يخشى أن يكون تلك الضحية. لذا عندما قتل الحسين استنتج رأس الجالوت ان الشخص المعني في الكتب القديمة، كان الحسين وليس هو. وبعد ان قتل الحسين سمع الناس صوتاً في المدينة يفترض أنه صوت النبي القديم (الخضر) او أحد الملائكة وهو يقول الابيات الآتية: "أيها القاتلون جهلا حسينا أبشروا بالعذاب والتنكيل قد لعنتم على لسان داود وموسى وصاحب الانجيل"[2].

يجب التأكيد هنا مرة أخرى بان الحد الذي يفصل بين ما يمكن ان تعتبره الدراسات الحديثة نصاً تاريخياً أوما يمكن ان اعتباره نصاً اسطورياً، لا يمكن تميزه بشكل دقيق. لقد نقل المؤرخون في المصادر القديمة والقرون الوسطى الكثير من الاحاديث والقصص عن مقتل الحسين والتي لا يمكن قبول جميعها كحقائق تاريخية محض. فأي مقياس يجب ان يتبعه المؤرخ، لاسيما مؤرخ الدين، في دراسة الكثير من القصص والمفاهيم التي تتناول الاحداث التاريخية التي تمتلك أهمية خاصة في الحياة الدينية للكثير من الناس عبر القرون كما هو الحال في حدث استشهاد الحسين؟ لا يكفي، من وجهة نظرنا، ان نحدد أنفسنا بالحقائق المجردة كما نراها لان هذه

(١) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص٢٢٣.

(٢) المجلسي ٤٥، ص ١٢٤.

الحقائق بحد ذاتها يجب ان يتم اختيارها عشوائياً. كذلك، لا نستطيع ان نتعامل مع جميع الاحاديث والقصص على انها حقائق واقعية. مع ذلك، يجب ناخذ بتلك الحقائق كوقائع، فرغم انها قد لا تبدو صحيحة تاريخيا أو على الاقل من وجهة نظرنا، الا أنها تعبر عن حقيقة واقعية على اقل تقدير بالنسبة للمجتمع الذي نحن بصدد دراسته. ولنأخذ مثالين لتوضيح وجهة نظرنا.

لاستقصاء ما حدث فعلاً في العاشر من محرم في كربلاء من سنة ٦٠ بعد الهجرة، اقتصر بعض من الباحثين على عرض أفادة واحدة من قبل رجل واحد يقال انه شارك فيما حصل[١]. وان تلك الإفادة تظهر في المصادر الشيعية الأولى والسنية كذلك. إذ أن زهر ابن قيس حمل رأس الحسين إلى يزيد وحيا الحاكم الأموي بهذه الكلمات: "فقال أبشر: يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره، ورد علينا الْحُسَيْن بْن عَليّ بْن أبي طالب، في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته، قال: فسرناَ إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا عَلَى حكم الأمير عبيد الله بْن زياد أو القتال، فاختاروا القتال عَلَى الاستسلام، فغدونا عليهم مع شروق الشمس، فأحطنا بهم من كل ناحية حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم جعلوا يهربون إلى غير وزر، ويلوذون منا بالآكام والحفر لواذا، كما لاذ الحمام من صقر، فوالله يا أمير المؤمنين ما كانوا إلا جزر جزور أو نومة قائل، حتى أتينا عَلَى آخرهم فهاتيك أجسادهم مجردة وثيابهم مرملة وخدودهم معفرة تصهرهم الشمس وتسفي عليهم الريح زوارهم العقبان والرخم بقي سبسب"[٢].

(١) المفيد، ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٢) الطبري، تاريخ، المجلد السادس، ص٢٦٤.

وعلى اساس هذه العبارة فقد أهمل هؤلاء الباحثون بقية القصص الأخرى فيما يخص مدة المعركة ومعها أيضاً الأهمية المتعلقة بالحادثة من قبل المجتمع الذي عاش فيه الحسين. والاكثر من هذا أنه بينما يشار إلى هذه العبارة من قبل اعظم المؤرخون (الطبري) فقد عدّت من قبلهم مقياساً او معياراً. الا ان الطبري نفسه كان يبحث ليس فقط عن سرد الاحداث او القصص فقط بل الحفاظ عليها ايضاً. كما يجب ان نلاحظ ان العبارة موضوع الدراسة تخبرنا القليل على الرغم من بلاغتها العربية الغنية. ان أسلوب الطبري في تضمين الادلة من مختلف القصص قد يكون تثقيفياً أو لغرض ارشادي. وفي الحقيقة فأنها تفترض ان القصة الحقيقة لحدث ما، في تاريخ الطبري، لا يمكن ان تختزل إلى مجموعة حقائق فقط. كما يجب ان نضيف لذلك الحذر الاضافي انه لا يمكننا ان نكون تامي الثقة بالوصول إلى الاستنتاج النهائي من هذه الحقائق القليلة.

بنى المؤرخون الاوائل مثل الطبري، استنتاجاتهم اعتماداً على مجموعة كبير من السرد الشفهي للمعلومات. وهنا يجب ان نسأل عن المرجعية الحقيقة لهذه الروايات، لاسيما لدى المؤرخين البعيدين عن زمن ومكان الرواة. ان هذا السؤال كما نعلم قد احتل قاصي الحديث الإسلامي والمؤرخين لعدة قرون. وبالنسبة للشيعة فان الائمة طبعاً هم المصدر الرئيس لكل القصص القدسية. فان موت الحسين، بالنسبة للشيعة، لا يعود إلى التاريخ فقط بل إلى القصص المقدسة كذلك.

وكما لاحظنا ان هناك اختلافاً واسعاً حول عدد الرجال الذين شاركوا في المعركة من كلا الطرفين. نشأ هذا الاختلاف كما نظن من قصة قديمة تشير إلى ان الحسين في أحد الايام ذهب إلى شقيقه الحسن بوقت قصير قبل مرض الأخير. بكى الحسين لحال أخيه إذ كان يتوقع وفاته، إذ كانا يعلمان ماذا سيحدث لهما في المستقبل. فالحسن كان يعلم انه سيسقى

السم الذي سيقتله[1]، إذ قال "لا يكون يوم كيومك يا أبا عبد الله، يزدلف إليك ثلاثون ألف رجل يدّعون أنّهم من أمّة جدّنا محمّد (صلّى الله عليه وآله)، وينتحلون دين الإسلام، فيجتمعون على قتلك وسفك دمك، وانتهاك حرمتك، وسبي ذراريك ونسائك، وانتهاب ثقلك، فعندها تحلّ ببني أميّة اللعنة..."[2].

ان هذه العبارة التي تستمر في سرد كيف كانت كل الاشياء تُبكي الحسين وكيف أنها من وجهة النظر الشيعية ملخص ليس فقط للاحداث بل إلى تسلسلها الزمني ايضاً. لقد عدّ الكثير من الكتاب الشيعة هذه القصة رواية معتمدة كرواية شاهد عيان. وعلى الرغم من اننا قد لا نقبل ذلك كأسلوب لمنهجنا الا اننا يجب ان نلاحظ اهميتها بالنسبة لذلك المجتمع الذي دخل الحدث وجعله اساساً لكل امل وسمو لكل فرد فيه.

ولهذه النهاية فان المذهب الشيعي قد خلط بين التاريخ والاسطورة مستعملاً عادةً عدة مشاعر وأفكار دينية. وفي قصة رويت من قبل (الكليني) عن الإمام الخامس، يحذر بها اتباعه من انهم اذا سمعوا حديثاً عن عائلة الرسول ووجدوا من الصعوبة تصديقه فلا يجب ان يرفضوه. بل يجب ان يتركوا الحكم على صدقه للرسول والائمة[3]. ومن السهل ان نرى من خلال هذه الدراسة ان اتباع الإمام لم يخيبوا ظنه في تصديقهم وقبولهم للعديد من الاحاديث التي يصعب تصديقها. فكم من هذه الاحاديث التي

---

(١) المصدر هنا يشير إلى زعم الشيعة بان الحسن قد قتل بالسم وذلك بتحريض من معاوية. انظر الطبري، دلائل، ص٦٧.

(٢) ابن طاووس، ص ١٤؛ ابن بابويه، امآلي، ص ٧١.

(٣) الكليني، كافي، المجلد الأول، ص ٢٥٤-٢٥٥، هذا الحديث ورد على لسان النبي.

حقاً قالها الائمة وكم منها وضعت في افواههم من قبل اتباعهم المخلصين فان هذا من الصعب تحديده. وها قد وصلنا إلى نهاية الفصل في مواجهة العديد من الشكوك ومع الكلمات المألوفة التي يختتم بها العديد من الكتاب المسلمين قولهم "هذا ما سمعناه إلا ان الله افضل العارفين".

الفصل الخامس

نَفَس المحموم[1]

(١) هذه العبارة المهمة في الحديث المنسوب للإمام السادس جعفر الصادق، والتي سنناقشها لاحقا.هي تستخدم أيضا كعنوان لكتاب يتعلق بتقاليد محرم للكاتب الإيراني عباس بن محمد رضا القمي، نفس المهموم في مقتل الحسين المظلوم، بدون تاريخ أو مكان، ولكنه أنجزت طباعته في١٣٣٥/١٩١٦.

عدّ الشيعة استشهاد الإمام الحسين حدثاً كونياً تدور حوله كل الاحداث التاريخية التي جرت قبله وبعده. بالاضافة إلى ذلك فان هذا الحدث قد عدّ قضاءً من السماء والذي من خلاله تظهر الرحمة والعدالة الآلهية ومنه يحقق الانسان خلاصه او إدانته. لقد بيّنا في مستهل هذه الدراسة وبطريقة ما، ان كل المعاناة يمكن ان تكون وسيلةً للخلاص الإنساني. تم عرض هذه المعاناة الخلاصية التي تظهر في مأساة محرم، بطريقتين. الأولى ان موت الحسين قد عدّ تضحية (جهاد) في سبيل الله من اجل الحق ضد الباطل، من اجل العدالة والصدق ضد الكذب والشر. إن الحسين قد "...... فدى دين جده بنفسه وأهله وأبنائه..."[1]. وبموته قوض دعائم الحكم الأموي. وكما رأينا في الفصل السابق فان الحسين قد مات، ليظل الإسلام مثالاً يلهم الأجيال اللاحقة من المسلمين والنضال من أجل الحفاظ عليه.

اما الطريقة الثانية التي يعدّ فيها موت الحسين فعلاً خلاصياً وذلك من خلال مشاركة المؤمنين في الآم الإمام وعائلته. كما سنرى لاحقاً انه ليس البشر فقط مدعوون للمشاركة في هذا الحدث المأساوي بل كل الخليقة كذلك. لقد أكدنا في كثير من الأحيان هذه النقطة، إذ سيكون هدفنا من

---

(١) العاملي، لوائح ص ٢٢١.

هذا الفصل دراسة الوسائل أو المعاني المختلفة لهذه المشاركة بشكلٍ مفصل.

سندرس أولاً القصص التي تؤكد ثواب البكاء على مصيبة الإمام الحسين والمشاركة بكل شيء حداداً على مقتله. ثانياً، سنناقش وسائل الاحتفال بذكرى موته من خلال الدراسة الدقيقة لمراسيم مجالس التعزية، إذ سنتناول وبشكل مختصر تطورها. وفي القسم الثالث من هذا الفصل سندرس الشعر الذي يختص بطقوس محرم. وسنناقش أولاً ثواب تأليف والقاء الشعر في ذكرى الحسين ومن ثم سنحلل بعض الموضوعات الرئيسة، كالأساليب الفنية وتراكيب هذا النوع الخاص من الادب. وأخيراً، سنتعامل ـ إلى حد معين ـ مع طقوس الزيارة (الحج)، كيفية أدائها، وبعض الموضوعات الرئيسة لأدب الزيارة. وفي ملحق هذه الدراسة (ملحق ـ د) سنقدم ترجمة لبعض مجالس التعزية، وبعض الأمثلة للمراثي الفارسية ومختارات نصية لبعض صلوات الزيارة المهمة.

٥-١ فضيلة البكاء على الحسين:

ان الجهاد الإسلامي في سبيل الله سواء كان جهاداً مسلحاً او أي شكل من أشكال مقاومة الظلم، يعدّ بشكل عام كأحد المتطلبات الأساسية لإيمان الفرد المسلم. حمّل المذهب الشيعي هذا الشرط إلى الإمام بوصف الجهاد واحداً من اعمدة (أركان)[١] الدين. فإذا عدّ ـ في نظر المؤمنين ـ نضال الحسين ضد النظام الأموي عمل جهادي، فان مشاركة المجتمع في معاناته بصدق رسالته يعدّ امتداداً للجهاد المقدس للامام نفسه. أن الحديث الذي اخذنا عنوان هذا الفصل منه، يشير إلى هذه النقطة بكل وضوح. فيقال ان جعفر الصادق قد صرح للمفضل، أحد أقرب طلابه "المغتم

(١) العبارة المستعملة في الآذان الشيعي "حي على خير العمل" تأخذ معنى الجهاد.

لظلمنا تسبيح وهمّه لأمرنا عبادة وكتمانه لسرنا جهاد في سبيل الله" ومن ثم أضاف الإمام "اكتب هذا (الحديث) بالذهب"[1].

يجب اعتبار الجهاد، كأحد أركان الإيمان، على انه عمل من اعمال الأديادة، الذي يقود إلى المكافأة النهائية مع الله. من هذا المنطلق تتحدث المصادر الشيعية عن ثواب البكاء على أحزان العائلة المقدسة ولاسيما على مقتل الإمام الشهيد الحسين[2].

صرح الإمام نفسه كما قيل لنا، "أنا قتيل اديرة، لا يذكرني مؤمن إلا بكى"[3]. أما لأولئك الذين يتذكرون الحسين بالفعل ويبكون لفاجعته، فأن الحسين قد وعد بحسب اد الأحاديث بقوله: "من تذكر مصابنا وبكى لما أُرتكب منّا، كان معنا في درجتنا يوم القيامة"[4]. ان البكاء هو تذكار للمؤمنين على الآم الحسين، فالمهم هو استذكار المأساة نفسها أكثر من البكاء نفسه. فنحن نقرأ أن الإمام السادس قد قال "مَن ذُكِرنا عندَه ففاضَتْ عَيناه ولو مثل جَناح بَعُوضةٍ غُفِرَ له ذنوبُه ولو كانت مِثلَ زَبَد البَحر"[5]. وسنعود إلى هذا الموضوع عدة مرات خلال هذا الفصل. اما النقطة التي نود تأكيدها هو انه وبعد موت الإمام الحسين، عاش بقية الائمة واتباعهم حياتهم في خوف مضطرين إلى نشر تعاليمهم سراً. لم يكن من

(١) الطوسي، أمالي، المجلد الأول، ص١١٥.

(٢) انظر أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه، كتاب ثواب العمل وعقاب العمل، (بغداد: مطبعة أسد) ١٣٨٥/ ١٩٦٢، ص ٧٥؛ الذي يقرأ "ثواب من بكى على الحسين". انظر أيضا المجلسي٤٤، ص ٢٧٨.

(٣) ابن قولويه، ص ٧٣؛ الطوسي، المجلد الاول، ص ١١٦.

(٤) الطوسي، أمالي، المجلد الاول، ص ١١٦.

(٥) المجلسي ٤٤، ص ٢٧٨. هذا الحديث يرد بصيغ كثيرة ومختلفة.

السهل التعبير عن معارضتهم للامويين ومن ثم العباسيين من خلال الجهاد المسلح. وكانت الوسيلة الوحيدة المتاحة لهم هي المشاركة السرية ولكن الفعالة في الآم اهل البيت من خلال البكاء وغيره من وسائل التذكير.

إن أول من وفر مثالاً لهذا الألم المستمر، كان الإمام الرابع، علي زين العابدين. فتأكيد الاستذكار الحزين للمأساة الفضيعة في كربلاء تعود بدايتها إلى هذا الإمام فقد عاشها هو بنفسه تماماً حتى نهايتها التراجيدية. فقد كان هو أول من حمل هذا التعبير الحزين بالمشاركة الفعلية للمؤمن بالبكاء، ليس فقط في آلآم الائمة بل في الاضطهادات التى عانوها. وفي حديث كلاسيكي ينسب لهذا الإمام إذ يعلن أولاً ان كل من يبكي لموت والده الحسين بن علي فان الله سيهبه قصوراً كبيرة في الجنة يعيش فيها إلى الأبد. إذ يمضي في القول: "أيما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي دمعة حتى تسيل على خده بوأه الله بها في الجنة غرفا يسكنها أحقابا، وأيما مؤمن دمعت عيناه دمعا حتى يسيل على خده لاذى مسنا من عدونا في الدنيا بوأه الله مبوأ صدق في الجنة، وأيما مؤمن مسه أذى فينا فدمعت عيناه حتى يسيل دمعه على خديه من مضاضة ما اوذي فينا صرف الله عن وجهه الاذى وآمنه يوم القيامة من سخطه والنار"[١].

عدّ علي بن الحسين من أكبر الباكين الذين بكى وفاة والده لمدة أربعين عاما. وكلما كان يجلب له الطعام، كان يتذكر معاناة والده فيبكي حتى يتبلل الاكل امامه. وكان دائماً ما يردد " قُتل ابن رسول الله جائعا، قُتل ابن رسول الله عطشانا"[٢]. وفي أحد الأيام ذهب إلى البرية بصحبة خادمه، فتمدد على الارض وأخذ بالنحيب عالياً حتى تبلل وجهه بدموعه

(١) ابن بابويه، أمالي، ص ٤٥؛ المجلسي ٤٤، ص ٢٨١.

(٢) الخوارزمي، المجلد الثاني، ص١٢٨؛ ابن بابويه، أمالي، ص ٨٥-٨٦.

حتى اعترض خادمه انه ان لم يتوقف سيده عن ذلك فإنه سيهلك لا محالة. الا ان الإمام الحزين أجاب ان يعقوب كان نبياً وكان قد ولد ١٢ إبناً وعندما ضاع واحد منهم، شاب شعر يعقوب وعمت عيناه، الا انه أي الإمام قد رأى بأم عينيه مقتل والده وسبعة عشر من أولاد عمه يذبحون امامه فكيف لا يمكنه البكاء عليهم(١).

كان زين العابدين المثال القوي لكل الباكين هنا على الارض ولكن بعد موته أصبح يمثل ذاكرة الماضي. من جهة اخرى فان الاستمرارية الفعلية للحزن بين العائلة المقدسة واتباعها يُمثَل وبشكل قوي من خلال فاطمة الزهراء، أم الإمام الحسين. فقد أصبحت سيدة بيت الأحزان ليس في هذه الدنيا فقط ولكن أيضا في الآخرة. وسنعود مجدداً وبشكل مطول إلى دورها بعد موتها في الفصل القادم. فان دموعها ستذكي غضب الله على قاتلي ابنها وتثير رحمته وشفقته على المؤمنين الحزانى على ابنها. لا يزال، مع ذلك، كما قيل لنا، نواحها الطويل في الجنة، الذي بدأ حالاً بعد مقتل الحسين وسيستمر حتى نهاية العالم. فكل شيء يبكي محاكاةً لبكاءها وان دموع الأتقياء هنا على الارض هي مجرد طريقة لمشاركة فاطمة في دموعها ووسيلة لجلب السلوان لقلبها الكسير.

يصف الإمام السادس بكاء فاطمة المستمر وأثره على كل الخليقة بشكل درامي، إذ يقول الإمام الصادق إلى أبي بصير أحد تلامذته البارزين أنه كلما نظر إلى أولاد فاطمة فان عينيه تغرورقان بالدموع على حظهم العاثر في هذه الدنيا. ويبكي هو نفسه على ابنه اسماعيل الذي أثار هذه الذكرى، إذ استمر الإمام السادس بقوله: "إنّ فاطمة عليها السلام لتبكيه

---

(١) ابن بابويه، أمالي، ص٨٥-٨٦. إن بكاء الإمام الرابع مرتبط مباشرة مع بكاء وحزن أخر الأنبياء، انظر أيضا المجلسي ٤٤، ص ٢٠٩.

(الحسين) وتشهق، فتَزْفِر جهنَّم زَفْرَة لولا أنَّ الخَزَنة يسمعون بُكاءَها وقد استَعدُّوا لذلك مَخافة أنْ يخرج منها عُنُق أو يَشْرَر دُخانها (أي جهنم) فيحرق أهلِ الأرض فيَكْبَحونها ما دامَتْ باكية، ويزجُرونها ويستوثِقون من أبوابها مَخافةً على أهل الأرض، فلا تَسْكنْ حتّى يسكن صوتُ فاطمة عليها السلام"[1]. كانت الملائكة تبكي أيضا لبكاء فاطمة تدعو لله وتطلب رحمته. وخاطب الإمام تلميذه قائلاً: "آه يا أبا بصير أما تحبُّ أن تكون فيمن يُسعد فاطمة عليها السلام؟ فبكيت حين قالها فما قدرت على النّطق من البكاء"[2].

أكدنا في هذه الدراسة ان بيت الأحزان لا يشمل الانسانية كلها فحسب بل الخليقة جمعاء، الكون والممالك السماوية، هذه الدنيا والحياة القادمة أيضا. بالإضافة إلى ذلك فان كل الاشياء متحدة بشكل ما في تراجيديا الاستشهاد، مانحةً اياها مشاعراً وأحاسيس انسانية لا تختلف عن تلك التي يحس بها البشر. وهنا نرى ان الاسطورة تبلغ أعلى أساليبها التعبيرية إذ الإنسان وحتى الكائنات غير الحيّة أيضا يؤديان دوراً فعالاً في هذه التراجيديا الكونية التي تتعدى كل الحدود الزمنية والمكانية والمخيلة الانسانية. يؤكد الإمام السادس أنه عندما قتل الإمام الحسين فان كل الاشياء المرئية وغير المرئية، الجنة والنار، السماوات السبع والاراضي السبع بكل سكانها بكت من أجله. ويخصص اكثر مدة هذا الحزن عندما قال لاحد اتباعه المقربين، زرارة بن أعين: "يا زُرارَة إنَّ السّماء بكت على الحسين أربعين صباحاً بالدَّم؛ وإنَّ الأرض بَكَتْ أربعين صباحاً بالسَّواد؛ وإنَّ الشَّمس بَكَتْ أربعين صباحاً بالكُسوف والحُمرَة؛ وإنَّ الجبال تَقَطعتْ

(١) ابن قولويه، ص ٨٢.

(٢) م.ن، ص ٨٢-٨٣.

وانْتَثَرتْ؛ وإنَّ البحار تَفجَّرت ؛ وإنَّ الملائكة بَكَت أربعين صباحاً على الحسين عليه السلام"[1]. ثم وصف الإمام الحزن العميق وهيجان جهنم واستمرار نواح الملائكة خاتماً قوله : "ولولا مَن على الأرض مِن حُجَج الله لنقضتِ الأرض وأكفأتْ بما عليها "[2].

وأيضا كمواد طقسية، تستخدم هذه الأحاديث والقصص الدينية مدخلا فعالا ومباشرا، يهدف إلى إثارة الحزن العميق لدئ المشاركين، وذلك للوصول إلى الحال النفسية والعاطفية التي تساعد على الاندماج الكلي في روح الاحتفال مراسيم (التعزية). ومعظم هذه القصص ترسم صورة واضحة للمأساة وتأثيرها أولاً على أفراد العائلة المقدسة انفسهم ومن ثم على الانسانية جمعاء وأخيراً على الطبيعة والكون أجمع. تلك القصص او الأحاديث قادرة على ان توفر المادة الاساسية المطلوبة والتي يحتاج إليها المؤمنون للتذكير بدورهم في هذه المأساة المقدسة ومن ثم توفير القاعدة لمجالس التعزية. وقد يكون مهماً ان نصف بشكل مختصر الأفكار الرئيسة لإحدى هذه القصص التقليدية.

ان التقليد الذي سنعرضه يعدّ نصاً حوارياً بين الإمام الثامن (علي الرضا) وأحد تلاميذه (الريان بن شبيب). فقد جاء الرجل لزيارة الإمام في أول أيام محرم فسأله الإمام ان كان صائماً، فأجاب ابن شبيب بالنفي. فأشار الإمام إلى ان ذلك اليوم كان اليوم الذي طلب فيه زكريا من الله قائلاً: "رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعا"[3]. واستمر

(١) ابن قولويه، ص٨٠، الاهتمام مع التغييرات، انظر إلى الطوسي أمالي ١ ص ٥٤.

(٢) ابن قولويه، ص ٨١.

(٣) القرآن، ٣٨ : ٣، اربيري، المجلد الاول، ص ٧٨.

الإمام بقوله إن العرب في الجاهلية حرموا القتال في شهر محرم الا ان المسلمين مع هذا قتلوا حفيد الرسول خلال هذا الشهر واخذوا نساءه اسيرات وهكذا دنسوا حرمة هذا الشهر. ومن ثم خاطب الإمام تلميذه قائلا : "يا بن شبيب !.. إن كنت باكيا لشيء فابك للحسين بن علي بن أبي طالب فإنه ذُبح كما يُذبح الكبش، وقُتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلا، ما لهم في الأرض شبيهون"[1]. وربط الإمام الحدث المأساوي والحزن الذي يثيره بالتعبير الكوني للحزن مشيراً إلى ان السماوات السبع بكت من اجل الحسين. واكد على ضرورة الحزن الانساني وان الجنس البشري ينبغي ان ينظم إلى الجوق الكوني من المشيّعين.

توفر هذه القصة صورةً كاملة ليس فقط للمحرم الشيعي ولكن أيضا للآمال الشيعية وحتى اليأس المُر كذلك. ويستمر الإمام ان أربعة آلاف ملاك نزلوا من السماء لمساعدة الحسين ضد اعدائه الا إنهم وجدوه مقتولاً. وأمرهم الله ان يحرسوا قبره وان يبكوا من اجله حتى يوم ظهور المهدي الذي سينتقم لدم الحسين. "فيكونون من أنصاره، وشعارهم : يا لثارات الحسين"[2]. ومن ثم يعود الإمام إلى الفكرة الرئيسة الأولى وهي البكاء فيبلغ ابن شبيب ان والده قد أخبره على ذمة ابائه أنه عندما قتل الحسين فان السماء أمطرت دما وترابا أحمر. ثم أكد الإمام لتلميذه انه لو زار قبر الحسين وبكى عليه، فان الله سيغفر له كل ذنوبه حتى ولو كانت عظيمة. وأخيراً وللتأكيد على العلاقة الوثيقة بين الائمة وأتباعهم في بيت الأحزان فقد اخبر الإمام ابن شبيب "إن سرَّك أن يكون لك من الثواب

(١) ابن بابويه، أمالي، ص ٧٨.

(٢) المصدر السابق نفسه.

مثل ما لمن استشهد مع الحسين فقل متى ما ذكرته "يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما". ولتأكيد هذه النقطة فقد وجه الإمام تلميذه بقوله :
"...يَا ابْنَ شَبِيبٍ إِنْ سَرَّكَ أَنْ تَكُونَ مَعَنَا فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى مِنَ الْجِنَانِ فَاحْزَنْ لِحُزْنِنَا وَافْرَحْ لِفَرَحِنَا وَعَلَيْكَ بِوَلَايَتِنَا فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا أَحَبَّ حَجَراً لَحَشَرَهُ اللَّهُ مَعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1].

يتضح من نقاشنا في هذا الفصل ان البكاء والحزن على استشهاد الإمام الحسين ومعاناة العائلة المقدسة قد أصبح مصدراً للخلاص لأولئك الذين يختارون المشاركة في ذرف الدموع على الحسين وعائلته. فالبشر هنا مخيرون بين الخلاص او القصاص. اما بقية الخلائق، وحسب الحكمة الآلهية كانت المسرح الذي ستمثل عليه هذه الدراما المقدسة إلى الأبد. وتصبح الطبيعة نفسها مقدسة من خلال كونها جزءاً من الدراما المقدسة. تقديس الطبيعة يتمثل رمزياً من خلال قدسية الزمن في أيام محرم، وتقديس المكان من خلال كربلاء.

لوحظ من خلال الفصل السابق ان الإمام الحسين وعائلته قد خيموا في كربلاء في الثاني من محرم وقد يشير ذلك بداية النهاية لمأساة العذاب هذه. إذ انه قد قدر للحسين ان يستشهد في محرم حتى قبل بدء الزمان (على الاقل التقويم الزمني المسجل) فان أيام هذا الشهر ولاسيما العشرة الأولى كانت دائماً تعود إلى الزمن المقدس. لذا فأننا سنبدأ القسم الثاني من هذه الدراسة بدراسة بعض القصص التي تتعامل بشكل خاص مع قدسية عاشوراء.

(١) المصدر السابق نفسه؛ وأيضا انظر المجلسي ٤٤، ص ٢٨٥-٢٨٦.

٥-٢ عاشوراء:

تطورها وصفاتها العامة:

يعدّ مقتل الحسين قاعدة قوية لتحديد الهوية والتماسك في المجتمع الشيعي، وكذلك الاساس لتوحد كل الخليقة في التاريخ الروحي للمجتمع. هناك تأكيد شديد للاحتفاظ بذكرى هذه الحادثة المأساوية حية وبكل الوسائل الممكنة على الرغم من المعارضة والصعوبات والاضطهاد. ومنذ البداية وفر الائمة القوة الدافعة لذلك، من خلال الوعد بالمكافأة الكبرى مقابل دموع المخلصين لهم. ان الوعد بالجنة والحياة الأبدية غذى، لا بل، حتى عزز آمال وطموحات المجتمع لحياة افضل حتى في هذه الدنيا. لذا فان مفهوم "الجهاد" اكتسب معنى اعمق واكثر شخصي. فالمسلم الشيعي يُعبر عن نفسه، من خلال البكاء، او من خلال التأليف والقاء الشعر، أو اظهار التعاطف وتقديم المعونة للفقير و حمل السلاح ضد الظلم، وبهذا فأنه يكسب الثواب نفسه الذي اكتسبه الرجال الذين حاربوا وماتوا من اجل الإمام. ان التعزية بمعناها الاوسع، قد أصبحت بالنسبة للشيعة مصدرا للمعنى الحقيقي للتعاطف ومشاركة اهل البيت مدى الحياة بمعاناتهم من خلال البكاء والقاء المراثي الشعرية واداء كل شعائر التعزية.

ومن خلال هذه الشعائر يستطيع الرجال والنساء أن يعيدوا إحياء تاريخهم الروحي وتجديد علاقتهم به. ومن خلال تمديد حدث مهم من الماضي فان "حاضر" جماعة دينية معينة ممكن ان يمتد في الماضي باتجاه المستقبل. لذا فان التاريخ لن يعود تسلسلاً للاحداث في حقبة زمنية محددة بدون هدف او اتجاه، بل انه ومن خلال اللحظة الحالية التي هي اللحظة

الشعائرية التي يتحد فيها الزمان والمكان ويتحركان باتجاه هدف محدد. وفي اللحظة الشعائرية، فان التسلسل الزمني يصبح الجسر الذي يربط الزمان الاصلي وتاريخه الخاص مع الخلود السرمدي للمستقبل. ان هذا التحقق السرمدي للزمن يصبح هدفاً للزمن الانساني والتاريخ. ويمكن القول، بشكل ما، أن الإسلام يوفر القليل من هذه اللحظات لمجتمع المتقين، بمعزل عن اوقات صلاة الفرض الخمس، وصوم رمضان وطقوس الحج: الا ان المجتمع الشيعي قد وضع الكثير مما يعوض عن النقص الحاصل[1].

ان تجديد العلاقة بين المتقين من الشيعة المسلمين مع ائمتهم الذين عاشوا في تاريخ المجتمع منذ وقت بعيد، يمكن ان يتحقق في أي لحظة من الزمان من خلال طقوس التعزية ولاسيما في يوم عاشوراء. وكل محرم يصبح شهراً لمأساة كربلاء وكل عاشوراء تصبح يوماً لاستشهاد الإمام الحسين.

تبرز الاهمية الخاصة ليوم عاشوراء من خلال معاناة واستشهاد الإمام الثالث وعائلته وأصحابه. وهناك بعض القصص الإسلامية الأولى التي تعطي منزلة عالية جدا لهذا اليوم، إذ يقال انه في ذلك اليوم حدثت الكثير من الظواهر الطبيعية الخارقة. الا ان هذه الادعاءات سرعان ما دحضت برزانة وخاصية الواقع الحزين لذلك اليوم، يوم عاشوراء. فيجب ان نلاحظ ان ذلك اليوم هو ليس يوماً احتفالياً للفرح والمرح بل للحزن

(١) لا يمكن لأحد أن ينكر أهمية هذه الطقوس الرئيسة الثلاثة للمجتمع المسلم عموما. ولكننا نود ان نقول هنا أن الطقوس الخاصة بالمجتمع الشيعي، ولاسيما طقوس التعزية والزيارة، تعبر عن كمّ من المشاعر تفوق الزمان والمكان، لا مثيل لها في التقوى العامة للإسلام السني. في هذا المعنى، الطقوس الشيعية تعطي للتقوى الشيعية طابعاً فريداً في التدين الإسلامي.

والحداد. وبالتأكيد فان العاشر من محرم لا يشبه أي يوم من أيام الاحتفالات وليس هناك أي شكل من اشكال الأديادة كما في أيام رمضان بل هو اليوم الذي يخيم عليه ذكرى حزينة فقط.

في احد الأيام، جاء احد تلاميذ الإمام السادس لرؤيته ووجده حزيناً جداً والدموع تسيل على وجهه. وبعد استفساره التلميذ عن سبب الحزن، اجاب الإمام بان حزنه كان لان ذلك اليوم كان ذكرى يوم عاشوراء يوم النوائب. فسأل التلميذ اذا ما كان يجب ان يصوموا في ذلك اليوم فأمر الإمام تلميذه ان يجرب الجوع والعطش بالامتناع عن الاكل والشرب على ان يعدّ ذلك اليوم مجرد صوم عادي، ولكن اشار على اتباعه ان يقطعوا عليهم صومهم بساعة واحدة بعد صلاة الظهر بقطعة من الخبز اليابس وشربة ماء. "لانه في ذلك الوقت من اليوم كانت قد انتهت مأساة الحسين وأصحابه إذ قتلوا، ثلاثين رجلاً من عائلة الرسول وأصحابهم"[1].

وهنا نلاحظ أيضا التوتر في داخل القصة. إذ يقال لنا احياناً ان الله في يوم عاشوراء حقق افعالاً خاصة في الخلق أو أظهر رحمته ومغفرته إلى الانبياء الاقدمين. وسوف نتفحص بعض من هذه الامثلة. ففي القصة التي رويت قبل قليل صرح الإمام: "إن الله عز وجل لما خلق النور خلقه يوم الجمعة في تقديره في أول يوم من شهر رمضان وخلق الظلمة في يوم الأربعاء يوم عاشوراء"[2]. فعاشوراء هو يوم الظلمة والاضطراب في الكون. وعلى هذا الأساس خُلِقت الظلمة رمز الشر والفوضى وفي يوم عاشوراء اختلت قوانين الطبيعة وتوقفت واظلمت الشمس في منتصف

(١) النجفي، ص ٢٩٨.

(٢) م.ن، ص ٢٩٨.

النهار وتصادمت النجوم مع بعضها واضطربت السماء.

وتبعاً لقصة قديمة جداً اشرنا إليها مسبقاً[١]، إذ انه قد قيل للرسول عندما يموت الحسين "ان الارض ستهتز من اساسها والجبال سترتجف وتضطرب وان البحار ستهيج في موجات غاضبة، الكل في غضب وحزن من اجلك يا محمد ومن اجل ما ستعانيه ذريتك من بعدك..."[٢]. ولم تكن هذه مجرد معجزات تظهر ضخامة الاحداث كما راينا في الفصل الثالث، وانما عرض صادق للحزن والانتقام الغاضب للكون كله. وتذهب القصة للتأكيد على ان كل الأشياء ستذهب إلى التماس الإذن من الله ان يوجه عونه إلى الإمام المظلوم وأصحابه، الا ان الله يصر على ان الانتقام انتقامه هو فقط وسوف يعذب أولئك الأشرار الذي لن يشبه أي عذاب آخر ذاقه انسان من قبل.

يؤكد الائمة بشدة أن يوم عاشوراء لا يجب عدّه يوم فرح واحتفال كما عدّ من قبل بعض الطوائف غير الشيعية[٣]. وهناك حديث للامام علي روي على ذمة ميثم التمّار عندما اجاب امرأة تسمى جبلة المكية، والتي سألته هل يجب ان يعدّ الناس يوم عاشوراء يوم فرح، فبكى ميثم وأجاب: "سيزعمون بحديث يضعونه انه اليوم الذى تاب الله فيه على آدم عليه السلام وإنما تاب الله على آدم في ذى الحجة، ويزعمون انه اليوم الذى قبل الله فيه توبة داود عليه السلام وإنما قبل الله توبته في ذى الحجة"[٤].

ومن ثم استمر ميثم في دحض تلك الادعاءات التي تقول انه في العاشر

(١) انظر الفصل الأول.

(٢) ابن قولويه، ص ٢٦٥.

(٣) للمثال السنّي لهذا التقليد، انظر الخوارزمي، ٢ ص١.

(٤) ابن بابويه، علل، ص ٢٢٨.

من محرم رست سفينة نوح على اليابسة وان الله شق البحر الاحمر لابناء اسرائيل محدداً تواريخ متعددة لهذه الاحداث[1].

ان يوم عاشوراء حسب الإمام الثامن يجب ان يعد يوم سكون، حزن وعدم اهتمام بالأمور الدنيوية. ان الطبيعة الفريدة لهذا اليوم، ربما تكون قد نشأت رد فعل للقصص التي كانت تهدف إلى تأكيد الجوانب المرحة والبهيجة لهذا اليوم. ومن الممكن ان يكون طقس عاشوراء اليهودي القديم الذي يتصف بالحزن والصوم والسكون الكامل قد أدى دوراً مهماً في تطور عاشوراء في المذهب الشيعي. فضلا عن أن عاشوراء في التقويم الإسلامي هو اليوم الوحيد، حسب علمنا، الذي يشترط فيه الراحة او السكون التام. ومما لا شك فيه فإن هذه الوصية لم تؤخذ ابداً على محمل الجدية بل ان اغلب مدة عاشوراء، الأيام العشرة الأولى من محرم، مليئة بالنشاط ولكن نشاط من شكل خاص.

كما يجب ان نتذكر ان شهر محرم وحتى في الازمان التي سبقت ظهور الإسلام كان يعدّ شهراً مقدساً. ولنختتم ملاحظتنا هذه بأن نقتطف بعض الشروط للامام الثامن فيما يخص طقوس يوم عاشوراء: "من ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء، قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة، ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه، جعل الله يوم القيامة يوم فرحه وسروره، وقرّت بنا في الجنة عينه .ومن سمّى يوم عاشوراء يوم بركة، وادّخر لمنزله فيه شيئاً، لم يبارك له فيما ادّخر، وحُشر يوم القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد في أسفل درك من النار."[2].

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٨؛ ابن بابويه، أمالي، ص ٧٧-٧٨.

(٢) ابن بابويه، الآل ص ٢٢٧.

إن اظهار الحزن والاسى بالبكاء من اجل العائلة المقدسة لمحمد يحتاج إلى قوة دافعة لذلك. فقد رأينا ان إحدى القوى المساعدة لخلق اجواء مناسبة للحزن هي كانت من خلال ربطها بواحدة او اكثر من القصص المنسوبة للائمة التي تأمر اتباعهم بالبكاء على استشهاد الحسين ومعاناة والآم افراد عائلته. من خلال تأكيد احد أو عدة جوانب من مأساة كربلاء، يتذكر الشيعة احزانهم الشخصية. وسرعان ما تطورت مجالس التعزية في اعطاء هذه الظاهرة الاجتماعية صفةً طقسية غنية.

التقليد يصر على ان مجالس التعزية لذكرى وفاة الحسين قد بدأت مباشرةً بعد موته. ففي طريقهم إلى الكوفة، توقفت نساء وأبناء الإمام الشهيد إمام الجثث المقطوعة الرأس والتي تركت بدون دفن ورفعن عويلهن عليه وعلى أصحابه. يقال ان ابن سعد قبل مغادرة كربلاء صلى على الجثث في معسكره ودفنهم؛ غير انه ترك الحسين وأصحابه بدون دفن لمدة ثلاثة أيام عندما قام أناس من قبيلة بني أسد بدفن الحسين فقد كانت جثته ملقية وحفروا قبراً جماعياً لباقي أصحابه بالقرب منه[1]. ان ما قام به الأمويون من تمادي في القسوة بانكارهم على حفيد الرسول حقه الاخير في اقامة طقوس الدفن المناسب يذكر في الكثير من القصائد والقصص.

فضلا عن ذلك فان الرجال والنساء في الكوفة استقبلو أسرى العائلة المقدسة وهم يضربون على رؤوسهم وصدورهم ويبكون على ندمهم بحزن على خيانتهم. وتبعاً للمؤرخ اليعقوبي، ان الحركة اللاحقة للـ "التوابين" قد ابتدأت من هذا الحدث[2]. وان هذه الحركة أدت دوراً مهماً في التاريخ

(١) في دفن الحسين لاحقا، انظر إلى الطبري في "تاريخ" ٦ ص٢٦، والمفيد ص ٢٢٧.

(٢) اليعقوبي، المجلد الثاني، ص٢٣١-٢٣٢. انظر أيضا التقليد المبكر الذي ذكر على ذمة الإمام السادس في ابن قولويه، ص ٣٣٧؛ وابن بابويه، أمالي، ص ١٠٠-١٠١.

التالي للمجتمع الإسلامي وأيضا في تطور طقوس التعزية من خلال ثبات اخلاص اعضائها لذكرى ابن رسول الله وثبات رأيهم على الانتقام لموته.

وفي دمشق، في بيت يزيد، اشترك نساؤه ونساء الحسين في النواح الذي دام سبعة أيام. ان الرحلة التي اشترك بها الحسين وعائلته في السفر من المدينة إلى كربلاء قد تكررت في طريق العودة عن طريق دمشق ولكن هذه المرة بدون قائدها. وقد قيل لنا أنهم وفي طريق العودة إلى المدينة المنورة سأل نساء واطفال الحسين مرافقهم ان يمر بهم في كربلاء بعد أربعين يوماً من الحادث المأساوي كي يتسنى لهم البكاء على قبره. وفي المدينة التقى الناس بالاسرى العائدين بالبكاء والنحيب[١]. ومنذ ذلك اليوم أصبحت المدينة بيتاً للنواح والحزن لقبيلة بني هاشم ومؤيديهم حتى أرسل المختار راس ابن زياد إلى علي ابن الحسين.

وفي خلال مدة حكم الأمويين، كانت ذكرى وفاة الحسين تقام في بيوت الائمة وبقية أعضاء قبيلة بني هاشم. وكان الشعراء غالباً ما يزورون بيوت الائمة إذ يقودون مجالس التعزية بأشعارهم. وفر الائمة القاعدة الطقسية لهذا المظهر الجديد من التقوى الدينية الشعبية كما يظهر في القصص التي ناقشناها سابقاً في هذه الدراسة. كانت هذه المرحلة نشوئية بالنسبة للتقوى الشيعية وبداية نمو طابعها الديني المميز. فقد عبر رجال مثل الإمام الرابع زين العابدين ومن جاء بعده، عن اعتراضهم على السلطات الحاكمة من خلال دموعهم ودموع أصحابهم واتباعهم في اجتماعاتهم الخاصة. فقد كانت تذكر معاناة والآم العائلة المقدسة ومدى الظلم الذي

(١) لمعرفة المزيد عن تقليد الزيارة الأربعينية (أي بعد أربعين يوما من عاشوراء) غير المؤكد، انظر ابن طاووس، لهوف، ص١٠٩-١١٠. وللعرض النقدي انظر المجلسي ١٠١، ص ١٣٠، (طهران: المكتبة الإسلامية، ١٣٨٩ هـ).

تعرضت له. وكانت هذه المدة هي المدة التي نشأت فيها مجالس التعزية وكان الامر مجرد وقت قبل ان تصبح احدى المظاهر الدينية العامة[1].

وفي مدة حكم العباسيين، بدأ الحكام أنفسهم بتبني وتشجيع مجالس التعزية، ولاسباب سياسية وربما بسبب مشاعر دينية صادقة، على الاقل بالنسبة لبعض واضعي أسس الإمبراطورية العباسية، فان خلفاء البيت العباسي أيدوا ونصروا قضية الهاشميين. ومن خلال هذه القضية كانوا يحاولون تشريع ادعائهم او مطالبتهم بالسلطة. لذا فان مجالس التعزية كانت تقام في البداية امام الملأ ولكن عندما بدأ هذا السلاح السياسي يهدد العباسيين بمطالبتهم بالسلطة فان بعض الحكام، مثل المتوكل (٨٤٧-٨٦١م)، حاولوا كل ما باستطاعتهم لسحق هذه الحركة الدينية. فقد هدم المتوكل ضريح الإمام الحسين ومنع الحجاج من المجئ لزيارة الضريح. الا ان كل جهوده باءت بالفشل، لا بل انها ساعدت على تعزيز وتقوية مجالس التعزية بدلاً من ازالتها[2].

وكان انتشار المذهب الشيعي خلال مدة الحكام الشيعة، اوالحكام المتعاطفين مع الشيعية، عاملا اساسيً في تزايد شعبية مجالس التعزية، كما

(١) في التقاليد المبكرة والمنسوب إلى الإمام السادس انه قال" بلغني أنّ قوماً يأتونه من نواحي الكوفة وناساً من غيرهم، ونساءً يندبنه، وذلك في النصف من شعبان، فمن بين قارئ يقرأ، وقاصّ يقصُّ، ونادب وقائل يقول المراثي". ابن قولويه، ٣ ص ٣٢٥-٣٢٦، المؤلف قد مات في ٣٦٧/ ٩٧٧. ومن ثم يمكن ألثقة اكثر بهذا المصدر الذي يعود الى النصف الاول من القرن الرابع..

(٢) الكثير من الأحاديث التقوية الشيعيه تذكر محاولات الخليفة المتوكل في إزالة كل آثار الضريح المقدس، ولكن محاولاته تبوء بالفشل بشكل عجائبي. انظر ابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص ٢٢١؛ الطوسي، أمالي، المجلد الاول، ص ٣٣٠؛ ولتاريخ الضريح انظر عاملي، اعيان، المجلد الرابع، الجزء الأول، ص١٨٣-٢٠٧.

كان الحال في العراق خلال مدّة البويهيين الذين شجعوا هذه الطقوس ورعوها. لذا نقرأ انه في سنة ٣٥٢/ ٩٦٣ ان الحاكم البويهي معز الدولة قد اغلق اسواق بغداد ووشحها بالسواد في يوم عاشوراء. وكان الرجال والنساء الشيعة يطوفون شوارع بغداد بمواكب وقورة حداداً على مقتل الحسين(١). وكانت هذه الممارسات والتقاليد نفسها تمارس في سوريا في البلاط الحمداني وفي مصر في حقبة حكم الفاطميين ومؤخراً في إيران في مدّة ظهور السلالة الصفوية الحاكمة.

وفي القرنين الأول والثاني للهجرة فان مجالس التعزية كانت تقام في بيوت اعضاء العائلة المقدسة وفيما بعد في أضرحة او مزارات الائمة. ومع القرن الثالث الهجري نشهد ظهور النادب الرسمي (النائح) الذي يتلو المراثي والقصص المتعلقة بالآم الائمة ومع الوقت ظهرت "مقاتل الحسين" التي كتبت خصيصاً لهذا الغرض. وقد اطلق على منظمي مجالس التعزية هذه تسمية (قُرّاء الحسين)(٢). لقد ساهم هؤلاء القراء كثيرا في نشوء وتطور المذهب الشيعي الشعبي ولاسيما تبلور الجماعة الدينية حول طقوس محرم. ويقال انه في احد الأيام بينما كان جامع بغداد يكتظ بجمهور يحتفلون بمجالس التعزية، جاء رجل وسأل عن نائح معروف اسمه أحمد المزوق. وقال الرجل الكبير انه قد رأى فاطمة الزهراء في حلم؛ إذ أمرته أن يبحث عن هذا النائح وان ينقل له امرها في أن يبكي ابنها بشعر أبي الحسن علي الناشي. وعند سماع ذلك ضرب الرجال على صدورهم ووجوههم وقدموا

---

(١) القمي، ص٢٢٦؛ ومحمد علي هبة الدين الحسيني الشهرستاني، نهضة الحسين، الطبعة الخامسة، منشورات رابطة النشر الإسلامي، (كربلاء: مطبعة التضامن، ١٩٦٩)، ص ١٤٩.

(٢) الشهرستاني، ص ١٥٩-١٣٠، الأمثلة عن المقتل قد استعملت في اللهوف لابن طاووس ومثير الأحزان لابن نما الحلي،انظر مقدمة الدراسة.

للرجل رسول الزهراء كل انواع الضيافة. الا انه رفض وقال: "والله لو أعطيت الدنيا ما أخذتها، فإنني لا أرى أن أكون رسول مولاتي عليها السلام ثم آخذ عن ذلك عوضا وانصرف ولم يقبل شيئا"[1]. وبما ان وجود مثل هؤلاء النائحين مازال مستمراً فان الكثير من القصص، التي تعبر عن سعادة أعضاء العائلة المقدسة بأولئك الذين يظهرون تفانيهم واخلاصهم لذكراهم، مازالت تقص او تذكر. وعلى اساس ذلك فان العلاقة ما بين الأئمة وأصحابهم لن تكسر وستظل قائمة بل انها تتجدد بارتباطات جديدة محركة بين الائمة والمخلصين لهم.

وفي نهاية القرن الثالث في بغداد، وحلب والقاهرة، كانت هناك بيوت خاصة لمجالس التعزية تعرف بالحسينيات، ولازالت مستمرة حتى وقتنا الحاضر. هذه القاعات الواسعة تنشأ كملحق بالجامع إذ انها غالباً ما تكون مكاناً للتجمعات لمختلف انواع المناسبات والاحتفالات الدينية الرسمية وغير الرسمية. وبشكل اساس فان هذه القاعات هي بيوت للحزن إذ يجتمع الناس للمشاركة بما عاناه الائمة من عذاب واضطهاد. ان حسينية المدينة او القرية قد وضعت نقطة بداية لمسيرة عاشوراء. ولاكثر من احدى عشر قرناً فان الشيعة استمروا في تشكيل مواكب كبيرة لذكرى عاشوراء. إذ يطوفون شوارع المدن المقدسة منشدين الترانيم الجنائزية الحزينة للامام وعائلته ومن ثم يعودون إلى الحسينية للاحتفال بمجالس التعزية.

في بداية تطور طقوس محرم، شعر الناس بالحاجة إلى رمز واقعي يجسد احداث كربلاء. ففي البداية ظهر حصان في منتصف الموكب مغطى بوشاح وملطخ بالدم كان يمثل حصان الحسين بعد مقتله[2]. وفي القرن العاشر

(١) م.ن، ص ١٦٠.

(٢) الشهرستاني، ص١٦٠-١٦١.

الإسلامي (القرن الخامس عشر الميلادي). بدأ هذا الموكب يتطور إلى مسرحية عاطفية مألوفة أو ما يمكن ان نسميه بدقة اكثر بظهور (الشبيه) لمعظم معركة كربلاء إذ يؤدي الناس مختلف الأدوار الرئيسة فيها[1]. ولا نريد ان ندخل هنا في تفاصيل اكثر لهذه الظاهرة المثيرة في الإسلام الشيعي لأنها قد اخذت ما يكفي من الاهتمام من قبل عدة كتاب للقرون الثلاثة الاخيرة. الا انه من المهم ان نؤكد مرة ثانية ان مجالس التعزية قد اتخذت عدة اشكال تعكس الثقافات المختلفة للمجتمع الذي تقام فيه. وبما ان الكاتب قد نشأ في وسط شيعي فانه من المثير ان نصف بعضا من هذه الاحتفالات التي شارك فيها.

وعلى الرغم من ان إحياء ذكرى موت الحسين وعائلته وأتباعه يتم خلال الأيام العشرة الأولى من محرم كل سنة، فان مجالس التعزية يجب ان يشرف عليها الناس في أي وقت تحقيقاً لقسَم معين، أوعرفاناً بجميل إلى الله لعملٍ نجح به ذلك الشخص، او ببساطة بسبب رغبة الناس الاتقياء في إقامة مجالس التعزية في بيوتهم. ان شهر رمضان وبقية محرم وحتى العشرون من صفر تخصص لاقامة مثل خدمات الذكر هذه. ان المجالس التي تقام ايفاءً بقسم اتخذه الشخص او بسبب رغبة ذلك الشخص، عادةً ما تكون قصيرة لا تستغرق اكثر من نصف ساعة. فهي تتكون من قراءة جزء من رحلة الحسين او من حياة العائلة المقدسة بشكل عام أو ربما بعض المواعظ

(١) لهذا النوع من الأدب الدرامي، انظر مسرحية معجزة الحسن والحسين التي جمعت التقليد الشفهي بوساطة السير لويس بيللي، راجعه ونقحه آرثر م. ويليستون، (لندن: و.ه. الن، ١٨٧٩) وذلك في مجلدين، والكتاب يتضمن ٥٢ مشهدا يقدم كامل الدورة في مأساة محرم، ولاسيما في الجزء الثاني ص ٨١. للمشاهد التي تتعلق بالاستشهاد انظر س. فيرولو، المسرح الفارسي أو مأساة كربلاء" (باريس: المكتبة الأمريكية الشرقية، ١٩٥٠).

من قبل القارئ.

وفي خلال مدّة عاشوراء فان مجالس التعزية، تقام في مدّة الظهيرة في بيوت الأشخاص البارزين في القرية او الجماعة، وفي الليل في الحسينيات او بعض الاماكن العامة الاخرى. وفي كل ليلة تشترك الجماعة مع الإمام الحسين في رحلته من المدينة إلى العراق خطوة بخطوة. وتبدأ المجالس بقراءة قصيرة من القرآن ومن ثم يتلو القارئ أو ينشد مقاطع طويلة من الشعر يصف فيها مراحل ذلك اليوم الخاص من الرحلة محاولا تأكيد الصعوبات التي واجهها الحسين في رحلته أو احد افراد عائلته. واخيراً فان القارئ نفسه او منشد اخر يقدم موعظة طويلة عن الآلام الأولى للرسول او الاضطهاد الذي عانى منه افراد العائلة المقدسة قبل وعد الحسين.

وغالباً ما يعقب المجالس بعض المواكب التي تطوف شوارع المدينة. وتعطي هذه المواكب فرصة للشعراء الشعبيين لارتجال قصائد حزينة للناس حتى يتغنوا بها وهم يمشون في هذه المواكب. كما انها تعطي الشباب في المجتمع فرصة اظهار ولائهم للائمة مستخدمين كل قواهم في الضرب على صدورهم العارية. وفي احدى احتفالات عاشوراء، لفتت نظري حماسة شاب كان قد عاد لمدّة قريبة من المشفى بعد ان اجريت له عملية خطيرة في الرئتين. فصرخاته العالية "الله اكبر" وضرباته الشديدة على الصدر كان لا يحتملها حتى الشخص العادي الصحيح، فكيف اذاً لشخص في مثل حاله. واخيراً فان مجالس التعزية توفر فرصة للناس لاظهار كرمهم في مشاركة ثرواتهم وحتى مؤوناتهم مع الآخرين في توزيع الطعام والمشروبات من مختلف الانواع للمشاركين. وفي الكثير من المدن الكبيرة كما كان الحال في مشهد فان مجالس التعزية كانت تقاد او يشرف عليها التجار، الخبازون وتجار المنسوجات أو السجاد وما شابه.

يعدّ يوم عاشوراء نفسه ذروة تجسيد المأساة بكل تفاصيلها. إذ يبدأ بعد صلاة الفجر بقراءة المقتل أو "المصرع" كما تسمى في لبنان، وهي تروي قصة استشهاد الحسين والاعضاء الذكور من عائلته وأصحابه. وغالباً ما تقاطع هذه القراءات بترديد الصلوات أو السلام على محمد وعائلته، وكذلك بتوزيع بعض الحلوى، التمر والعصائر (المشروبات) من قبل اعضاء الجماعة على أمل كسب الثواب في الجنة لهذا العمل الصالح الذي يقوم به. وانه لعمل جدير بالمكافأة اطفاء عطش او اشباع جوع المؤمنين في مثل هذه المناسبات بديلا للرغبة بالقيام بالعمل نفسه بالنسبة للشهداء في كربلاء. وحوالي منتصف النهار عندما تنتهي القراءات يتصدر الناس احد الشعراء الشعبيين الموهوبين في القاء إحدى المرثيات على الإمام، أولاده إخوانه وأولاد عمه. وينتهي اليوم احيانا بتجسيد مسرحي لاحداث الشهادة في منطقة واسعة مفتوحة خارج المدينة. وينتهي الطقس حوالي منتصف الظهيرة إذ يدعى الجمع كله إلى بيوت الناس الأتقياء والاغنياء لوجبة طعام خاصة. فالطعام يتكون من نوع واحد، وهو حنطة مطبوخة في حساء فخذ لحم الضأن أو البقر. وهو طعام تقوم النساء باعداده ويستغرقن وقتاً طويلاً في ذلك.

وبما ان كل فعالية في عاشوراء يجب ان تكون، بطريقة ما، مرتبطة بالعائلة المقدسة ولاسيما باحداث كربلاء فان الناس الاتقياء يجدون تنويراً ورموزاً حتى في هذه الوجبة المقدسة التي يعدونها باهتمام خاص. يحكى ان احدى النساء بينما كانت هي وامرأة اخرة مشغولتان باعداد (الهريسة) جاءت امرأة عجوز جليلة للمساعدة ودعيت المرأة ان تبقى وتشارك المرأتان الطعام الا أنها رفضت قائلةً: "هل أكل طعاماً أُعِدَ عن روح أخي الحسين؟" ومما لا شك فيه كانت هذه المرأة زينب الأخت الحزينة

للشهيد الحسين.

تعدّ قطع اللحم هذه في الطعام، بالنسبة لبعض الناس، ذات مغزى رمزي، فقد افترض ان علي الاكبر قد قطع بوساطة سيوف أعدائه. لذا فان قطع اللحم تهدف إلى التذكير بطريقة قتله الوحشية. ان هذه الرمزية الدرامية والمخيفة شائعة جداً في فولكلور محرم الشيعي. لذا نجد انه من المهم ان نختتم هذه الملاحظات حول احتفاليات التعزية ببضع كلمات عن مثل هذه القصص الدرامية.

إن الحسين ـ وحسب الطقس الشعبي ـ كانت له ابنة صغيرة تدعى رُقية تبلغ ثلاث أو اربع سنوات من العمر حين قتل والدها. وعندما أرسل الأسرى إلى يزيد ظلت رُقية تبكي بدون انقطاع سائلةً عن والدها. وفي احد الليالي حلمت بوالدها واستيقظت شديدة الاضطراب من حزنها على غيابه. وأمر يزيد ان يأتوا برأس والدها امامها حتى تنظر اليه وترتاح. أخذت الفتاة الصغيرة الرأس إلى صدرها وبكت بدموع مريرة قائلةً: "يا أباه من ذا الذي خضبك بدمائك؟ يا أبتاه من ذا الذي قطع وريدك؟ يا أبتاه من الذي أيتمني على صغر سني؟ يا أبتاه من بقي بعدك نرجوه؟ يا أبتاه من لليتيمة حتى تكبر؟ يا أبتاه من للنساء الحاسرات؟ يا أبتاه من للأرامل المسبيات؟ يا أبتاه من للعيون الباكيات؟ يا أبتاه من للضائعات الغريبات؟ يا ابتاه من للشعور المنشرات؟ يا أبتاه من بعدك واخيبتنا، يا أبتاه من بعدك واغربتنا، يا ابتاه ليتني كنت الفدا، يا أبتاه ليتني كنت قبل هذا اليوم عميا، يا أبتاه ليتني وسدت الثرى ولأأرى شيبك مخضباً بالدماء"[1]. ومن ثم قبلت الطفلة فم الرأس المقطوع وماتت. تعدّ هذه القصة مثالاً جيداً لأدب محرم الشعبي. إذ أن هذا النوع من قصص

(١) الطرَيحي، ص ١٤١.

الفولكلور الشعبي، توفر الفكرة الرئيسة للمراثي الشعبية ولاسيما تلك التي تتعلق بنساء اخريات من العائلة المقدسة، التي أدت دوراً مهماً في استهلال ونمو طقوس محرم. لذا فاننا سوف ننتقل الآن إلى دراسة هذا النوع المهم من أدب التعزية.

٣-٥ مكانة شعر المراثي في طقوس محرم:

لقد كان الشعر وما يزال واحداً من أهم عناصر تطور طقوس التعزية. من خلال الشعر يستطيع الشاعر التعبير عن الأفكار الدينية والأدبية وأحاسيسه ليس فقط تلك التي تعبر عن ما في قلبه ولكن أيضا تلك التي يعبر بها عن حس الجماعة. فان الشاعر بطريقة ما يصور ثقافته ويتكلم من خلالها للناس. وقبل أن نحلل بعض الأفكار الشعرية الرئيسة ونربطها بتطور أدب سير القديسين التي كنا مهتمين بها في هذه الدراسة، فان هناك كلمة يجب ان تقال فيما يخص تأكيد تأليف وإلقاء أشعار المراثي التي يمكن ان نسميها المراثي، كما سماها الأئمة أنفسهم.

إن الغرض من كتابة والقاء مثل هذه الاشعار الحزينة ليس فقط لعرض الموهبة الفنية ولكن الاهم من ذلك هو حث الؤمنين على الحزن والبكاء على مصاب أهل البيت.لذلك فان الشعر الذي لا يصور بشكل حساس مراحل المأساة فانه لن يفي بالغرض. مما يعطي لهذا النوع من الشعر (المراثي) صفة مميزة وفريدة. فهو،على الاقل باللغة العربية، من اكثر الاشعار درامية وملحمية.

من خلال قراءة ما ينقل عن الأئمة، ولاسيما الإمام السادس، قد يكون من السهل الاستنتاج بأنهم كانوا يجمعون أصحابهم لتذكر مقتل الحسين. وكان الشعراء غالباً ما يطلب منهم القاء الشعر في ندب الحسين

في مثل هذه التجمعات. وهناك قصتين متشابهتين يستشهد بهما من قبل الكتاب الشيعة القدماء والمحدثين أيضا. ففي احد الأيام سأل الإمام السادس جعفر الصادق أحد أتباعه أبا عمارة المنشد أن يلقي بعض الابيات عن الحسين. فألقى أبو عمارة الشعر وبدأ الإمام وعائلته بالنحيب والبكاء حتى ان صوت النسوة ارتفع وسمع في الشوارع. ان الأبيات التي ألقاها المنشد لم تكن له، إلا أن الإمام أعلن للمنشد مكافأته العظيمة التي سينالها في الحياة القادمة واستمر: "مَن أنشَدَ في الحسين شِعراً فأبكى خمسينَ فله الجنَّة، ومَن أنشَدَ في الحسين شِعراً فأبكى أربعين فلَه الجنّة، ومَن أنشد في الحسين شِعراً فأبكى ثلاثين فلَهُ الجنة، ومَن أنشَدَ في الحسين شِعراً فأبكى عشرين فلَه الجنّة، ومن أنشدَ في الحسين شِعراً فأبكى عشرة فله الجنّة، ومَن أنشَدَ في الحسين شِعراً فأبكى واحِداً فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين شِعراً فبكى فلَه الجنّة، ومَن أنشَدَ في الحسين شِعراً فتباكى فلَه الجنّة"(١).

هناك عاملان مهمان لطالما اعطيا للشعر مكانةً خاصة في طقوس التعزية : العبقرية الشعرية العربية والمكانة التي يتمتع بها الشعر في الادب العربي قبل وبعد الإسلام. وما يعادلها اهمية المكافأة الكبيرة التي وعد بها الشعراء في يوم القيامة. وسنعود الآن إلى نقاش مختصر لبعض المحاور

(١) ابن بابويه، ثواب، ص ٧٦، أحاديث أخرى مشابهة لهذه تمت مناقشتها في السياق نفسه. انظر أيضا، انظر للمجلسي ٤٤، ص ٢٧٨.

(٢) لقد كرس الشعر الفارسي الكثير من عبقريته لخدمة ذكرى الإمام الشهيد. لن يكون من الممكن أن ندخل في أي نقاش حول هذا الأدب الغني والمثير الاهتمام للغاية. من أجل تعويض هذا النقص، سيتم إعطاء أمثلة قليلة من المراثي الفارسية الأكثر شعبية في الملحق . د ـ انظر ي. ج. براون، تاريخ الأدبي الفارسي، (كامبريج: مطبعة جامعة كامبريج، ١٩٥٩)، المجلد الرابع، ص ١٢٧.

الرئيسة والتقنيات في شعر المراثي. وبما ان هذا الادب واسع جداً فاننا سنختار بعض الأمثلة من القرون الأولى[١].

تعبر قصص سيّر القديسين والأفكار الدينية التي ناقشناها سابقاً في هذه الدراسة، صورة قوية ودرامية من خلال القصائد الشعرية الأولى. ولقد اخترنا بعضها عشوائياً لتكون قاعدة اساسية لهذا الموضوع المختصر. فموضوعنا الأول الرئيس هو التأكيد بمختلف الاشكال والمحتويات على ان قتل الحسين كان خطيئة كبيرة ارتكبت من قبل قاتليه بما يعادل ابطال التعاليم المقدسة للدين او قتل نبي من الانبياء. اما الموضوع الثاني فسيتعامل مع تقوى وكرم الإمام الشهيد ونبل ومعاناة النساء الاسرى. ونادراً ما صور الحسين كمقاتل كبير كما راينا في الفصل الرابع. ان الشعر الذي نحن بصدد دراسته يعني إثارة الحزن وليس روح البطولة في عقول الاتقياء.

أما الموضوع الرئيس الثالث فهو مشاركة كل الاشياء في الخليقة في حزن ومعاناة الإمام وعائلته وربط هذه المأساة مع الأنبياء الأوائل. وهذا الموضوع مألوف تماماً كما ناقشناه في الفصلِ الأول. الا ان فكرة ربط الانبياء الاوائل بموت الحسين يبدو متأخراً نوعاً ما في الشعر. يؤكد الادب الحديث انه، من اجل الائمة، تمتع الانبياء بالحظوة الآلهية.

أما رابعاً فسنناقش التقنية الشعرية الشائعة بشكل خاص. والذي يراد به اسباغ الطابع الدراماتيكي أو المسرحي على جانب من مأساة محرم إذ ان المتحدث هو أحد افراد العائلة المقدسة، أما النبي أو ابنته فاطمة أو احدى النساء اللواتي كن موجودات في المعركة. هذا الحوار بين الرسول واحدى نساء العائلة المقدسة يقدم عادةً كشكوى من قِبل عائلة الحسين من الظلم الذي عانوا منه. وعادة ما يكون الشخص المُخاطِب هو فاطمة أم الإمام إذ

يصور رد فعلها المثير للعطف بشكل واضح. يوفر هذا الاسلوب الشعري أداةً قوية لمنظمي التعزية لخلق الجو العاطفي المناسب لمجالس التعزية بشكلٍ فعلي. إذ سيكون نقطة تحول مناسبة في الجزء الاخير من هذا النقاش وهو الاخذ بنظر الاعتبار بعض الاشعار الحزينة التي تلقي فقط في مجالس التعزية.

إن الحقبة التي تلت مقتل الحسين كانت مدّة عصيبة في التاريخ الإسلامي. فالشعراء لم يجرؤوا على تأليف شعر يخص مقتله. وعندما كانوا يفعلون ذلك كانوا يقومون بذلك سراً خوفاً من السلطات الأموية[1]. وحسب بعض المصادر فان الشاعر الأول الذي قام بتأليف مرثاة عن مقتل الحسين، كان (عقبة بن عمر السهمي)[2]. ففي مرثية السهمي نرى نوعاً من الحزن والتقوى الغنية للامام الشهيد ومن ماتوا معه. فهي تعبير عن الاخلاص والتبجيل، الخالية من قصص سير القديسين والاشارات السياسية التي تغلب على الكثير من القصائد الأخرى ولاسيما تلك التي تعود إلى القرون اللاحقة. فالشاعر كما قيل لنا قد زار كربلاء اما بعد وفاة

---

(١) الأصفهاني، مقتل، ص١٢١.

(٢) المؤرخون المسلمون المبكرون والتقليديون قد اختلفوا في هذه النقطة، البعض صرّح بأنه كان بالأحرى سُليمان بن قتة. الرجلان كانا معاصران لبعضهما البعض، ولذلك لا يمكن تحديد من كان له الشرف بإن يصبح الأول في ندب الإمام في الشعر. على الأرجح هو السهمي، انظر إلى الخوارزمي، المجلد الثاني، ص١٥٠؛ لكن للذين يرجحون ابن قتة، انظر الأصفهاني، ص ١٢١-١٢٢. ولمناقشة تامة لهذه المشكلة انظر إلى جواد شبّر، أدب الطّف وشعراء الحسين، (بيروت: مؤسسة الاعلمي، ١٣٨٨/ ١٩٦٩)، المجلد الأول، ص٥٢.

(٣) انظر الهامش السابق.

الحسين او فيما بعد، في نهاية القرن[1]. إذ توقف عند قبر الإمام وألقى أبيات الشعر. ويبدو ان الشعر قد الف في كربلاء مرتجلاً تعبيرا مفاجئا ناتجا عن مشاعر عميقة.

مررت على قبر الحسين بكـربلا

ففاض عليه من دموعي غزيرها

وما زلت أبيكه وأرثي لشجـوه

ويسعـد عيـني دمعهـا وزفيرها

وبكّيت من بعد الحسين عصائباً

أطافـت به من جانبيه قبـورها

سلام على أهـل القبور بكـربلا

وقـلّ لهـا منــي سـلام يزورها

سـلام بآصال العشى وبالضحي

تـؤديه نكـباء الـرياح ومـورها

ولا بــرح الـــوفّاد زوار قـــبره

يفوح عليهم مسكها وعبيرها[2].

ان البيت الاخير من هذا الشعر قد يشير إلى تطور لاحق في الإشارة إلى

---

(١) الخوارزمي، المجلد الثاني، ص١٥٢.

الحُجاج.وقد يكون من الجهة الاخرى مجرد تعبير بسيط عن مدح الإمام في رسم صورة عدد كبير من الناس على قبره.

لقد ناقشنا في الفصل الرابع أن مقتل الإمام الحسين قد عدّ من جهة مصدر إلهام ومن جهة أخرى شرخا كبيرا وجوهريا في الدين الإسلامي، وهذه الأفكار قديمة قدم المأساة نفسها. فان الحسين ـ كما رأينا ـ قد وبخ خصومه على الطريقة غير المشروعة واللادينية التي سعوا بها إلى قتل ابن بنت الرسول. هذه التهمة جريمة لا تغتفر ضد الإمام وكذلك حقيقة أن موته كان شنيعاً مثل موت او انتهاك كل الحُرمات والمبادئ الدينية، قد وفرت المادة الاساسية للادب الشعري منذ تاريخ احداث المأساة نفسها.

لقد قيل ان رجلاً من الجيل الثاني بعد جيل صحابة الرسول[١]، قد اختفى لمدة شهر بعد رؤية رأس الإمام مثبتاً على باب قصر يزيد في دمشق. وبعد ظهوره سأله اصدقاءه عن سبب غيابه الطويل. فقال "الا ترون ما حلّ بنا؟". ومن ثم ألقى الأبيات الآتية :

جاءوا برأسك يا بن بنت محمد

متزمـــلا بدمائـــه تزمـــيلا

وكأنما بك يـا بن بنت محمـــــد

قتلوا جهارا عامدين رسولا

(١) خالد بن معدان، انظر جواد شبّر، أدب الطف أو شعراء الحسين، المجلد الأول، ص١٨٩؛ ابن طاووس، لهوف، ص ٩٩-١٠٠.

قتلوك عطــشانا ولم يترقبـــوا

في قتلك التأويل والتنزيــلا

ويكــبرون بأن قتلت، وإنمـــا

قتلوا بك التكبير والتهليـلا[1].

هذا الشعور بالهوان والعار والندم وَجَدَ التعبير في معظم الاشعار التي كتبت في مدح العائلة المقدسة أو في تذكر آلآمهم. ان قدسية الإسلام وقدسية رسوله تصور على انها انتُهكت على يد رجال ادَّعوا التقوى في الدين الإسلامي والانتماء للرسول. وساد شعور بالتساوي من قبل الرجال الذين كانوا أنفسهم مرتكبي هذا الفعل المشين، وأولئك الذين لم يفعلوا شيئا لمنع ذلك. مثل هذه المشاعر في كثير من الأحيان تعبر عن ما في داخلهم من عنف وتمرد على صعيد الأنشطة السياسية الأخرى. وبشكل حتمي، كان الرجال الذين تدفعهم حب السلطة والمصالح السياسية يحصدون فوائد هذه المشاعر. فعلى سبيل المثال، هناك حقيقة تاريخية عن الحكام العباسيين الذين وصلوا إلى السلطة على أساس القرابة مع آل البيت ومن خلال ولاء المسلمين الشيعة. إذ يمكننا أن نلاحظ تذبذبا في تطور الاحتفال بمحرم بين حرية التعبير وقوة العواطف الدينية والخيال وبين الاصوات الباكية الخافتة وأحياناً المكبوتة للشعراء وبقية المجتمع. ان هذا التذبذب لم يكن ابداً على نطاق واسع او دائم، لذا لم يكن ابداً عائقاً لنمو ادب شعري غني استمر بالتطور حتى وقتنا هذا.

---

(١) إن مصطلح "الله اكبر" كان يستخدم في النداء للحرب. والنداءات عادة تتضمن النطق بالمديح، ولذلك تستخدم كلمة تهليل التي تعني ابتهاج، انظر الخوارزمي، المجاد الثاني، ص١٨٢-١٢٩.

أما الشاعر جعفر ابن عفان الطائي الذي توفي بعد عقدين من الزمان بعد تأسيس الخلافة العباسية (٧٧٠/١٣٥) فانه كان واضحا في سخطه على الأمويين الجناة والمتواطئين معهم. وهذا الشاعر مثل غيره من الكثير من الشعراء في القرنين الأولين من التاريخ الإسلامي كانوا ينتمون إلى دائرة الأئمة وأول ما القوه من الشعر كان لهم. القى الطائي أشعاره على الإمام السادس في واحدة من مجالس التعزية. بدأ هذا الشاعر قصيدته بالتوضيح الآتي:

"ليبكِ على الإسلام مَنْ كان باكياً
فقد ضُيِّعَتْ أحكامُهُ واستحــلَّتِ
غــداةَ حُسينٌ للرمـــاح دريَّةٌ
وقد نَهَلَتْ منه السّيوفُ وعــلَّتِ
وغودر في الصحراءِ لحماً مبدَّداً
عليه عتاقُ الطيرِ باتتْ وظــلَّتِ
فما نصرته أُمَّةُ السُوءِ إذ دعــا
لقد طاشت الأحلامُ منها وضلَّتِ"

واستمر الشاعر بقوله:

"بلى قد مَحَوا أنوارَهــم بأكفِّهِــمْ
فلا سَلِمَتْ تلك الأكفُّ وشُلَّــتِ
وناداهُمُ جَـهداً بحــقِّ مُحمــدٍ

فـإنّ ابنَـه مـن نَفْسِـه حيث حَـلَّـتِ

فمـا حفظـوا قُرْبَ الـرسـولِ ولا رَعَـوا

وزلّـت بــهـم أقـدامُـهُـم واستزلَّــتِ

أذاقتـه حَـرَّ القتلِ أُمـــةُ جـــدِّه

هـفـت نَعْلُـها في كربلاءَ وزلَّتِ

فـلا قـدَّس الرحمـنُ منها نفوسَـــها

وإنْ هـي صـامت للإله وصلَّـتِ.[1]

وهناك شاعر آخر عاش بعد قرن من الزمان يدعى السري[2] الذي عبر في ابيات قليلة عن معاني قوية وعواطف ربطها بموت الحسين. يبدأ الشاعر بنوع من الصلاة على القبر الذي يحوي جثة الإمام العطشان، الذي يجب ان يُظلل بالنباتات المعطرة (الريحان). ويصف الشاعر مشاعر المخلصين عند الاشارة إلى ذكرى وفاة الإمام:

كأن أحشاءنا من ذكره أبدا

تطوى على الجمر او تحشى السكاكينا

ومن ثم يكرر الشاعر فكرة ان موت الحسين كان بمثابة تدمير للدين.

(١) شبّر، المجلد الأول، ص١٩٢.

(٢) أبو الحسن السري بن أحمد الرفاء الموصلي (توفي سنة ٣٤٤/ ٩٧٠)؛ شبّر، المجلد الثاني، ص ٣٦.

(٣) الخوارزمي، المجلد الثاني، ص ١٥٢.

مهلا فما نقضوا آثار والده

وانـــما نقضـــوا فـــي قتلـــه الدينـــا[1]

يلمح البيت الأخير إلى الفكرة السياسية وهي انه من خلال قتل الحسين سعى أعداؤه إلى تدمير المُثل الروحية والسياسية التي جسدها الإمام علي للجماعة الشيعية.

إن الموضوع الرئيس الذي كنا بصدده في الفقرات الأخيرة قد يعدّ مهماً جداً في مأساة كربلاء. ففي الأزمنة الحديثة حاول الكثير من المفكرين المسلمين وحتى الشيعة منهم تحرير أو تطهير ذكرى محرم من العديد من الابعاد الاسطورية والخارقة، والذين ما زالوا يرون في مقتل الحسين الاحتجاج القوي والأكثر أهمية في التاريخ الإسلامي ضد كل أنواع الظلم الديني والسياسي.

وكما لاحظنا سابقاً، فان الحسين نادراً ما كان يصور بطلا ولاسيما في الشعر وباقي انواع أداب التعزية. فالآمه، وتركه وحيدا بدون منقذ، ومن ثم طريقة قتله الوحشية كلها موضوعات رئيسة تجتمع لتصعيد مستوى عواطف المشتركين ودموعهم. جماله ونبله وكذلك نساءه تضيف عنصراً رومانسياً بالضد من الصورة الوحشية التي مثلها اعداءه والتي ساعدت على تحريك عواطف المخلصين. ان الحسين بمحياه المنير حتى آخر لحظة من حياته. حيرت العديد ممن رآه[2]، الا انها تلطخت بالدم والتراب وتركت

(١) ذكر ان هلال بن نافع كان قد شهد مقتل الحسين فقال: "كنت واقفا نحو الحسين وهو يجود بنفسه فوالله ما رأيت قتيلاً قط مضمخا بدمه أحسن منه وجها ولا أنور ولقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله!". ابن طاووس، لهوف، ص ٥٣.

حتى يتغير لونها بفعل الشمس الحارقة. وكذلك اخواته وبناته اختبئن عن عيون الرجال واللواتي اندهش بجمالهن كل من رآهُنَّ عندما حملن أسيرات إذ رفع حجابهن وكشفن حتى يراهم الجميع وهن راكبات على الجمال بدون أي غطاء أو حماية[1].

عبر السيري عن هذه الأفكار بوضوح كبير وامتياز فني. إذ نرى في اشعاره الاستعانة الجيدة بالصور المجازية المؤثرة من خلال الماساة والمعانات. وهنا بعض الابيات الشعرية من بداية قصيدة طويلة له.

"أأنسى حسينا بالطفوف مجدلا

ومن حـوله الاطهار كالأنجم الزهر

أأنسى حسينا يوم سير برأســه

على الرمح مثل البدر في ليلة البدر

أأنسى السبايا من بنات محمــد

يهتـكن مـن بـعد الصيانة والــخدر[2].

هذا الموضوع من نبل وشهامة الإمام الحسين يُعبر عنه بمشاعر عميقة من الحب والفجيعة، من قبل زوجه المحبة الرباب من قبيلة بني كلب. التي

(١) هذا النوع من التعليقات حول الجمال الصارخ لنسوة الحسين قد جاء نوعا ما في حقبة متأخرة. انظر المجلسي، ٤٥، ص، ١١٣.

(٢) الخوارزمي، المجلد الثاني، ص ١٥٤.

(٣) لهذه الأشعار والعديد من الأبيات المنسوبة للحسين انظر العقاد، ص٤٢.

(٤) عن حياة وموت "الرباب"، انظر شبّر، المجلد الاول، ص ٦٢.

كان الحسين يحبها بشكل خاص وأبنتها الصغيرة سكينة إذ اعترف بحبه لها ببعض الاشعار الرقيقة الدافئة[١]. إذ قيل[٢] انها بعد موته لم تنم ابداً تحت سقف بل أمضت السنة الأخيرة من حياتها تهيم على وجهها في البرية حزينة على موت زوجها الحسين. وفي الشعر القصير الآتي تتذكر الحسين زوجا حبيبا وملجأ للفقراء والمحرومين والمعيل لأولاده:

"إن الذي كان نوراً يستضاء به في كربلاء قتيل غير مدفونِ . . .

قد كنت لي جبلاً صلداً ألوذ به وكنت تصحبنا بالرحم والدين

من لليتامى ومن للسائلين ومن يغني وياوي اليه كل مسكين. . ."[٣]

ومن بين الشعراء المهمين الذين كرسوا مواهبهم لمدح ورثاء العائلة المقدسة كان اسماعيل ابن محمد الحميري الذي عاش في بغداد بين ٢٠٥/ ٨٢٠ و ٢٧٣/ ٨٨٦ أو ٢٧٨/ ٨٩١. كان الحميري نفسه (سيد) سليل عائلة الرسول. وهذا الشاعر مهم ليس فقط لانتمائه لعائلة الرسول بل أيضا لشعره الذي لم يكن من الطراز الأول فقط بل كان يجسد الوضع الديني والسياسي لذلك العصر.

ان قصيدته الشهيرة التي تمت الاشارة اليها من قبل في هذا الفصل[٤]، تبدأ بالاسلوب العربي القديم المعتاد بمخاطبة زوار قبر الحبيب، وبذلك يقدم صورة حقيقية للمحب او المخلص الذي يتذكر الحبيب في المكان الذي قتل فيه. فالشاعر يتذكر كيف ان العظام المقدسة للإمام الحسين، الموضوع

(١) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٢) هذه القصيدة القيت على الإمام السادس من قبل ابي عماره المنشد، ص ١٥٩.

الرئيس للقصيدة، قد داست عليها حوافر الجياد. ويقول انه بعد هذا الحدث الجلل ان الحياة لن تعد تصبح ممتعة ابداً. وإشارة إلى امتياز الحسين وعائلته بوصفهم الأكثر استحقاقاً للقيادة الدينية والدنيوية، إذ يقول:

"قبـــر تضمـــن طـــيبّاً   آباؤه خيـــر البريـــة
آباؤه أهـــل الـــرياسـة   والخـلافة والوصيـــة
والخـير والشيم المهـذبــة   المطيَّبـــة الـرضيـــه"

ومن ثم يلتفت الشاعر إلى الزائر الوهمي للضريح المقدس ويقول :

"فـــإذا مـــررتَ بـقـبـــره   فأطـل به وقـف المطيّه
وابك المطـهرَ للمطهّر(علي)   والمطهرة الزكيّة (فاطمة)
كبكاء معـولـةٍ غـدت يوماً   بـواحـدهـا الـمنيـة"[1]

وينتهي الشاعر بالعودة إلى النواحي السياسية من الصراع بين الإمام ومعارضيه. ويحث الحاج الوهمي إلى لعن ابن سعد وغيره من أعداء الإمام مسمياً القادة منهم. ويؤكد شجاعة الحسين وفضيلته مقارناً اياها مع طمع وخيانة وجبن اعداءه. وبما ان غرض اشعار المراثي هذه هو لاثارة المشاعر والدموع فان الحميري ينهي شعره بهذين البيتين المؤثرين:

يا عين فابكي ماحييتِ على   ذوي الـذمـم الـوفـيـه
لا عـذر في ترك البكا دمـاً   وانــتِ بـــه حـــريـــه[2]

---

(١) شبّر، المجلد الأول، ص ١٩٨-٢٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩٨.

لقد لاحظنا كثيراً في هذه الدراسة كيف ان نوائب (أهل الكساء) قد ظهرت على الطبيعة كالنجوم والكواكب وحتى على سكان السماء في الجنة والجحيم. لقد شارك الرسول محمد والانبياء القدماء في حزن ومعاناة العائلة المقدسة والذي من اجلهم قدسوا ومجدوا. كل هذه الأفكار بتنوعها عُبر عنها في في الشعر. وفي الحقيقة فان هذه الفكرة الرئيسة عن مشاركة كل الأشياء في هذه المأساة الكبيرة للحسين وعائلته تظهر في بعض القصائد القديمة والتي تستمر لعدة قرون واحدة من أغنى الأفكار والتي لا تقتصر على المذهب الشيعي فقط.

الشافعي (محمد بن ادريس الشافعي ٨١٩/٢٠٤) يُعد واحداً من الفقهاء السنة العظماء ومؤسس المدرسة الشافعية للفقه، الذي ترك لنا مثالاً جيداً لهذا النوع من شعر الرثاء. يبدأ الشافعي قصيدته بالفكرة المعتادة للحزن والدموع من اجل معاناة أهل البيت. ومن ثم يشير إلى الإمام الشهيد إذ يصف الرجل "ذبيحُ، بلا جرم كأنّ قميصه صبيغ بماء الارجوان خضيب". ويستمر الشاعر في وصف حدث كربلاء في مجاز واضح. إذ كان الكثير من ضرب السيوف وقعقعة الدروع اما الخيل فقد كان هناك من بعد الصهيل نحيب. ومن ثم ينتقل إلى الموضوع الرئيس إلى الأعاجيب التي توضح مشاركة الطبيعة في هذا الحزن الكوني:

تزلزلت الدنيا لآل محمد

وكادت لهم صمّ الجبال تذوب

وغارت نجوم واقشعرّت كواكب

وهتكٌ أستار وشقّ جيوب

وهنا يشير إلى انتهاك قدسية النساء الاسيرات، حزنهن وتمزيق الثياب.

وم ثم يسأل الشافعي بدهشة كيف يستطيع الرجال ان يؤدوا صلواتهم وسلامهم على الرسول من قبيلة بني هاشم ومع هذا يقومون بمهاجمة حفيده. ويختتم بقوله:

لئن كـان ذنبي حبّ آلِ مـحمد

فذلك ذنب لست عنــه أتـوب

هم شفعائي يوم حشري وموقفي

إذا ما بدت للناظـرين خطـوب[١].

ان الموضوع الرئيس الذين نحن بصدده، أوضحه احد الشعراء القدامى الذي يمكن اعتبارة من اوائل مؤلفي المرثي على الحسين. والشاعر هو سليمان ابن قتة الذي توفي في دمشق حوالي ١٢٦/ ٧٤٣.[٢] ونستنتج ان مرثاته التي يشير فيها الشاعر إلى العلاقات القبلية والثأر، قديمة جداً. ومثل العديد من الشعراء الآخرين فانه يعزز خلفية قصيدته بزيارة إلى كربلاء ومن ثم يتجه إلى وصف الحزن الذي تثيره الزيارة فيه. وفي البيت الثاني يوضح الشاعر بشكل سؤال بليغ:

ألــم تــــر أن الشمس أضــــحت مريضــــة

لقتل حسين والــبلاد اقشعرت

وكانوا (أي العائلة المقدسة) رجاءً ثم أضحوا رزية

---

(١) شبّر، المجلد الثاني، ص ٢١٤.

(٢) المصدر نفسه، المجلد الأول، ص ٥٤-٥٧.

لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

ومن ثم يلوم الشاعر قبيلة قيس لخيانتهم ويعد بالانتقام. إذ كان شمر، الخصم الشائن للحسين، من تلك القبيلة ؛ لذا، إلى حد ما، فان القبيلة كلها يجب أن تشترك في تحمل الذنب. ويعود ابن قتة أخيراً إلى الموضوع الرئيس للحزن الكوني بقوله :

"وقد أعولت تبكي السمآء لفقده

وأنجمنا ناحت عليه وصلت"[1].

إن القصيدتين الأخيرتين على الرغم من كونهما قديمتين فانهما تظهران نوعاً من التطور. وسواء كتبت هاتان القصيدتان في بداية تطور التعزية لتمثيل الحدث المأساوي، او انها كانت تعني ترديد الأفكار السائدة في العصر آنذاك، فأننا لا نستطيع ان نؤكد ذلك بيقين تام. مع ذلك فانه يمكننا ان ندرك التطور السريع لفكرة تناول مقتل الحسين في الشعر كحدث كوني لاتقل أهميةً عن تلك التي في النثر. وهناك شاعر توفي حوالي منتصف القرن الرابع الهجري[2] (منتصف القرن التاسع) يختم احدى مراثيه الطويلة بهذا التوبيخ، "يا بني الغدر مَن قتلتم؟ لعمري قد قتلتم مَن قام فيه الوجود".

ولقد راينا سابقاً ان الانبياء القدماء قد علموا بأمر آلآم واحزان العائلة المقدسة وشاركوا مباشرةً بها. ورأينا كذلك في الفصل الثاني في قصة

---

(١) المصدر نفسه، المجلد الأول، ص ٥٤.

(٢) علي بن اسحق الزاهي ٣١٨-٣٥٢ هجرية / ٩٣٠-٩٦٣ ميلادية، سوف نناقش لاحقا إحدى قصائد علي بن اسحق.

عصيان آدم انه قد غُفِر له من اجل الائمة وان اسمائهم كانت تمثل المعرفة السرية التي كُشفت له وانها سبب العفو عنه.

هناك شاعر غير معروف عاش حوالي القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ينقل هذه الفكرة إلى ذروة نهايتها[١]. فهو يقول ان الائمة هم نور الله والمعنى السري للعديد من سور القرآن. وان اسمائهم محفورة إلى الأبد على عرش الله. ويكرر الشاعر بعض الأفكار التي تعرفنا عليها في الفصل الثاني من هذه الدراسة :

ولولاهم لم يخلق الله آدما ولا كان زيد في الأنام ولا عمرو
ولا سطحت أرض ولا رفعت سما ولا طلعت شمس ولا أشرق البدر
ونوح به في الفلك لما دعا نجا وغيض به طوفانه وانقضى الأمر
ولولاهم نار الخليل لما غدت سلاماً وبرداً[٢] وانطفى ذلك الجمر
ولولاهم يعقوب ما زال حزنه ولا كان عن أيوب ينكشف الضر

ويستمر الشاعر في ذكر كل الأنبياء الرئيسين وإظهار ان العديد من المعجزات قد تحققت من اجل الائمة. كان الائمة القوة الخفية في عصا

(١) هذه القصيدة اقتبسها الطرَيحي في عمله "المنتخب" ولكنه لم يعط اسم الشاعر. لكنه استعمل جملة "ولله در من قال من الرجال". والطرَيحي قد مات في ١٠٨٥هجرية/ ١٦٧٤ ميلادية، من خلال اللغة والفكرة في القصيدة يتوضح لنا بان القصيدة ربما تكون لأحد معاصريه.

(٢) القرآن٦٩، : ٢١.

(٣) الطرَيحي، ص١٠٥.

موسى، ومن اجلهم شق البحر. ومن اجلهم أيضا قبلت توبة داود وأصبح المسيح قادراً على احياء الموتى[١]. ويوضح البيت الأخير ان سر كل نبي، كان جزءاً من سرهم. كانت الحظوة الخاصة الممنوحة لكل نبي رئيس في الكتاب المقدس قد منحت اصلاً بسبب الائمة؛ وبغض النظر عن القوى السرية التي كان يمتلكها كل نبي فانها كانت مستمدة من القوى السرية للائمة. لم تكن القوة النبوية فقط التي كانت تعتمد على وجودهم، ولكن الخليقة باكملها كانت تدور حولهم. هذه ليست أفكارا جديدة، لكنها استمدت قوتها وكثافتها من خلال التعبير الشعري، وكان على الشعر ان يخدم الغرض نفسه للإسلام التي كانت تقدمه الايقونة والتمثيل الصوري للمسيحية.

وهناك شاعر غير معروف قدم هذه الصورة المؤثرة حتى ان ابياته كانت تنشد في العديد من مجالس التعزية في احتفالات عاشوراء[٢]. ويبدأ الشاعر بالتعبير عن حزنه العميق على شهداء كربلاء: "ولقد بكيت لقتل آل محمّد بالطف حتّى كل عضو مدمع" ومن ثم يأخذ الشاعر برسم صورة مصيبتهم:

وحريم آل محمّد بين العدى
نهباً تقاسمها اللئام الوضع
تلك الضعائن كالإماء متى تُسق
يعنف بهن وبالسياط تقنع

(١) المؤلف قد سمع مرارا هذه القصيدة تلقى خلال مناسبة العاشوراء، وإنها تقريبا مقتبسة من الطرَيحي كمقدمة لمجلس أول محرم، انظرالطرَيحي ص ٣.

من فوق أقتاب المطـــى يشلها

لـكـــع عـلى حـنق وعبد أكـــوع

مـثل السبايا بل أذل يشـق منهن

الـخـمـار ويـسـتـبـاح الـبرقـــع

فـمضفد فـي قـيده لا يـفتـــدى

وكـريمـة تـسـبي وفـرط ينـــزع

ويعود إلى الإمام الشهيد:

تالله لا أنـــسى الـحُسين وشلـوه

تـحـــت الـسنابك بالعراء موزع

مـتلفعاً حـمر الـثياب وفـي غــد

بـالخضــر مـن فـردوســها يتلفـع

والصورة المرسومة هنا تصور الطبيعة كلها :

"تـطأ الـسنابك صـــدره وجبينه

والأرض ترجف خيفة وتضعـضع

(١) ان الشمس في العربية مؤنثة، ومن هنا تشبيه المرأة في حال حداد.

(٢) الطرَيحي، ص ٣.

والـشمس ناشرة[1] الذوائب ثاكل

والـدهر مـشقوق الـرداء مقنــــع»[2].

هناك عنصر مهم دائماً ما نراه في الشعر وهو المبالغة في الحقائق الواقعية مثل معاملة الاسرى من قبل العدو. فمصادرنا الأولى تقول ان الاسرى قد جردوا من مجوهراتهم وغيرها من النفائس الا انه لا توجد اي اشارة إلى العنف الذي استعمل ضدهم. الا ان الشعراء التالين ورغبةً في تصوير مقارنة حادة بين معاناة العائلة المقدسة و قسوة معتقليهم التي تؤكد ان النساء قد جُررن امام معتقليهم بالسياط. وهذه وسيلة اخرى يحرك فيها الشعراء مشاعر الشفقة والحزن في نفوس سامعيهم.

غالبا ما يوظف شعر المراثي في المحاورات الدرامية. وان مثل هذه الحوارات تُقدم بوساطة أو مع صور مثيرة للشفقة عن معاناة الحسين وعائلته. وهناك صفة اخرى لهذا النوع من الشعر وهو استعمال تقنية حكاية القصص في وصف احداث كربلاء. أحيانا يتم استخدام هذه التقنية مع تعقيد كبير ومهارة درامية. ويبدأ الشاعر دائماً بحوار بينه وبين النبي ومن ثم يقص حلقات مختلفة من المأساة عن طريق وضع الكلمات على لسان واحدة من النساء اللواتي شهدن الحادثة.

ويعدّ احد الشعراء القدامي المشهورين وهو دعبل ابن علي الخزاعي[3]، الذي تفوق باستعمال هذه التقنية. وفي الحقيقة يغطي شعره كل الموضوعات الرئيسة التي أخذناها بعين الاعتبار والكثير غيرها بتعدد

---

(١) لقد عاش الشاعر دعبل حياة طويلة (١٤٨-٢٤٦ هجرية٧٦٥، -٨٦٠ ميلادية)، وقد عرف الإمام السادس، والسابع والثامن،وقد كان المفضل لديهم جدا. شبّر، المجلد الاول، ص٢٩٧.

متنوع من التعبير الشعري. في قصيدته الشهيرة "تائية"، يحكي دعبل قصة كربلاء وفيها يشير إلى القصص المتعلقة بهذه الحادثة وفي نهاية القصيدة يخاطب الشاعر فاطمة أم الإمام الشهيد :

أفاطم لو خِلتِ الحسينَ مجدلاً

وقد مات عطشاناً بشطِ فراتِ

إذا للطمتِ الخدَ فاطمُ عندهُ

وأجريت دمعَ العينِ في الوجنات

أَفاطِمُ قُومِي يا ابنةَ الخَيرِ واندبِي

نجوم سَماوات بِأَرْضِ فَلاتِ

ومن ثم يعدد الشاعر قبور الائمة واحفادهم مسمياً الاراضي التي تشتتوا فيها. واخيراً يكرر الآمال المتحمسة لكل مسلم شيعي في ان يشهد يوم رجوع المهدي الإمام الثاني عشر

"إلى الحشر حتى يبعث الله قائما يفرج عنا الغم والكربات"[1].

وفي قصيدة اخرى يحكي دعبل عن مقتل الحسين مستعملاً اسلوب الحوار في عدة نقاط. ويبدأ بنوع معروف من الشعر الكلاسيكي العربي إذ يكون هناك شخص مفترض واقف يخاطب أطلال المحبين :

(١) شعر دعبل بن علي الخزاعي، جمعها عبد الكريم الاشتر (دمشق: المجمع العلمي العربي، لا يوجد تاريخ)، ص ٢٣١. وللقصيدة الكاملة انظر ص، ٢٢٥-٢٤٢، وكذلك انظر ديوان دعبل بن علي الخزاعي، طبعة عبد الصاحب الدجلي (النجف: مطبعة الأدب١٩٦٢،)، ص ٩٩.

يا واقِفاً يبْكي الطُّلولَ ويُنْشِدُ

باللهِ تِهْتَ وغـابَ المـُرْشِـدُ

كمْ تدَّعي حُزناً و أنتَ مُـرَفَّهٌ

إنْ كنتَ محْزوناً فما لكَ تَرْقُدُ[1].

ويسترسل الشاعر في تزويد الدليل لصديقه الوهمي بعد ان فقد دليله ويدعوه للبكاء على الحسين وعائلته بدلاً من ذلك مثلما بكى عليهم محمد والملائكة. وان الدين الإسلامي، منذ ذلك اليوم، قد مُزق بمقتل الحسين، وان كل الإسلام يستمر في البكاء عليه. وبعد هذه المقدمة الطويلة يعود الشاعر إلى سرد المقتل مع شقيقة الحسين زينب كراوية والذي يقدمها بالشكل الآتي:

"كيفَ القرارُ وفي السبايا زينبٌ

تَدْعـو بِفَرْطِ حَـرارةٍ يا أحمـدُ

هذا الحسينُ بالسُّيـوفِ مُبَضَّـعٌ

ومُلَطَّـخٌ بِدِمائِـهِ، مُسْتَشْـهدُ

عارٍ بلا ثوبٍ، صريعٌ في الثَّرى

بينَ الحوافرِ والسَّنابِكِ يُخْضَـدُ

(١) شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص ٢٣١.

والطَّيِّبونَ بَنوكَ قتْلى حَوْلَهُ
فوقَ التُّرابِ ضَواحِياً لا تُلْحَدُ".

وبرسم صورة الدم والموت هذه يستمر الشاعر في توضيح ردود فعل الكون لهذه الحدث الجلل. إذ اجتمعت النجوم والقمر للبكاء على الحسين؛ لأنهم رأواه يقتل من قبل العديد من اعدائه وبوجود القليل ممن دافع عنه. وتستمر أخت الإمام في إخبار الرسول كيف انها ونساء اخريات حملن اسيرات محقرات وقد دُنِست طهارتهن. ومن ثم تصف اليتيم :

"بالطَّفِّ حَوْلي مِنْ يتامى إخْوَتي   في الذُّلِّ قدْ سُلِبوا القِناعَ و جُرِّدوا".

وبعد الشكوى من العطش، في حين كان باستطاعة الكلاب الشرب بأمان من الفرات، تعود زينب لوصف الطريقة التي قتل بها الحسين.

"يا جَدُّ ذَا شِمْرُ يَرومُ بفَتْكِهِ   ذَبَحَ الحسينِ فأيُّ عينٍ تَجْمُدُ
حتّى إذا أهْوى عليهِ بِسيْفِهِ   نادى بأخْفَضِ صَوْتِهِ : يا أوْحَدُ"[1].

تُقدِم قصيدة دعبل هذه، صورة كاملة لتلك المأساة، مأساة محرم، وحزن الكون كله على الحسين. الا انه مختلف عن بقية الشعراء يستبقي استمرارية التقديم التي تعطي شعره الصفة الملحمية.

وهناك شاعر آخر أظهر موهبة مماثلة وحساسية وهو محمد ابن حسن الصنوبري، وهو شاعر مشهور توفي في حلب في ٣٣٤/ ٩٤٥. إذ أكد على نبل موت الحسين اكثر من بسالته كمقاتل. وفي الحقيقة فان الصنوبري

(١) ديوان دعبل، ص ٢٤٥، للقسم الكامل لقصيدتة المعنونة "المقتل" انظر ص ٢٤٥-٢٥٠.

يرسم صورة مقارنة حادة بين الحسين واقفاً بجزم مثل الاسد في وجه الموت والحسين ممدداً على الارض مدمدماً نداءات مثيرة للشفقة طلباً للنجدة دون مجيب:

مَنْ ذَا لِمعقُـور الجَـــوَادِ مَمَالُ أعـوَادِ الخِبـاءِ
مَنْ للطَّريحِ الشُّلوِ عَرْياناً مُخَلًّـى بالعَـــــراءِ
مَـنْ للمُحنَّطِ بالتُّـــرابِ وللمُغسَّـلِ بالدِّمــاءِ[1]

وبينما يستخدم الصنوبري التقنية الدرامية لتصوير المأساة وجذب سامعيه إلى روح هذه المأساة الا انه مع ذلك يبقى متماسكاً ورصيناً.

انه من المثير ان نقارن بين طريقة احد الشعراء المعاصرين للصنوبري وهو صقر الموصلي (٣٠٥/ ٩١٤) والذي عبر عن افكار مشابهة للصنوبري. إذ ان الشاعر يخاطب الرسول ويحكي له كيف ان احفاده عانوا من بعد موته. ويصف كيف تقيأ الحسن كبده بسبب السم الذي اعطِيَّ له غدراً وخيانة. ومن ثم يصف كيف قتل الحسين عطشاناً في كربلاء واخذت عائلته اسيرة كأنهم لم يكونوا من عائلة الرسول. ورغبه في الموصلي لوصف معاناة الحسين وكيف قطع رأسه ومن ثم يفقد الوعي : "جسدا بلا رأس يمد على الثرى رجلا له ويلم اخرى فازعا"[2] إذ يبدو ان الشاعر لم يأبه لحقيقة ان حالة احتضار الحسين التي يصفها كان يجب ان تسبق قطع راسه.

نحن نتعامل هنا مع المبالغة الشعرية والمألوفة جداً بين شعراء المراثي. وهناك مثال أخير على هذا النوع من المبالغة في شعر علي ابن اسحاق

(١) شبّر، المجلد الثاني، ص٢٠.
(٢) م.ن، المجلد الثاني، ص ٣١.

الزاهي. إذ يقدم نوعاً من المبالغة التي لا زالت مستمرة إلى وقتنا الحاضر على الاقل في الشعر العربي والفارسي إذ ان اللغتين مألوفتان للكاتب. لقد رأينا مسبقاً تطرف الشعراء فيما يخص الحسين كشخص يستقر فيه الوجود كله. وفي القصيدة التي سنأخذها بعين الاعتبار يرسم الشاعر بلغة شعبية صورة واضحة ومبالغة النساء الاسيرات بعد استشهاد حاميهم.

كأني بزينب حول الحسين ومنها الذوائب قد نشـــرت

تمرغ في نحره شعـــرها وتبدي من الوجد ما أضمرت

وفاطمة عقلها طائـر إذا السوط في جنبها أبصـــرت[١].

ويسترسل الشاعر إلى وصف موت الحسين وكيف حُمل راسه إلى السلطات الأموية أولاً في الكوفة ومن ثم في دمشق.

في الفصل السابق نسبت الكثير من الخطب لاعضاء مختلفين من عائلة الحسين بعد موته. وبينما تعرض الخطب بلاغة كبيرة ودرجة عالية من التعقيد فان الشعر بشكل عام قد كتب إلى الجمهور الشعبي وقد صمم ليستعمل في مجالس التعزية. وعادةً فان أول من يرفع النواح في الشعر فهو زينب المرأة التي اخذت مسؤولية الايتام حتى تم ارجاعهم إلى المدينة. ان الشعر المنسوب لها موجود في بعض المصادر القديمة وربما ليس أقدم من (بحار) المجلسي إذ تقتبس بشكل كامل[٢].

يضع المجلسي شعره في محتوى مجالس التعزية الآنية. فهو يقول انه بينما

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٥٤.

(٢) المجلسي ٤٥، ص١١٥، لا يوجد أي ذكر للقصيدة المنسوبة إليها في المصادر المتأخرة، ربما يشير الى عدم صحة هذه القصيدة.

كانت أم كلثوم، أخت الحسين الاخرى، توبخ اهل الكوفة على خيانتهم كان رأس الحسين قد حمل وعندما رأته زينب لم تستطع ان تتمالك عواطفها فضربت رأسها حتى طفر الدم منه. ومن ثم اشارت إلى الناس ان يستمعوا وبدأت بالنواح على أخيها شعراً. تبدأ زينب بالتعبير عن حزنها العميق على قدر أخيها وتستمر :

يا أخي فاطم الصغيرة كلّمها فقد كاد قلبها أن يذوبا
يا أخي قلبك الشفيق علينا ما له قد قسي وصار صليبا
يا أخي لوترى عليّا لدى الأسر مع اليتم لا يطيق وجوبا
كلما أوجعوه بالضرب ناداك بذلّ يغيض دمعا سكوبا
يا أخي ضمّه إليك وقرّبه وسكّن فؤاده المرعوبا
ما أذلّ اليتيم حين ينادي بأبيه ولا يراه مجيبا [1].

من الواضح ان هذا الشعر ليس مقصوداً به ان يحكي قصة او ان يشير إلى تفاصيل المعركة وما بعدها، الا انه يقدم صورة خيالية للصبي المريض، وهي مثيرة للشفقة بما يكفي لتشعل عواطف المشتركين في مجالس التعزية. وهنا، مرة أخرى، فان مصادرنا تتفق بشكل عام، ان جيش ابن سعد قد امِروا بشكل خاص ان لا يقلقوا الصبي المريض، وحسب معرفتنا فان هذا الامر قد نفذ. ومما لا شك فيه فان المذهب الشيعي لم يقف عند أي حد محاولا تصوير قسوة الاعداء نحو الإمام وعائلته.

---

(١) م.ن ٤٥، ص١١٥.

وهناك قصيدة اخرى منسوبة إلى أخت الإمام أم كلثوم والتي تعبر عن نفس المشاعر نفسها في القصيدة التي ناقشناها مسبقاً. الا ان قصيدة ام كلثوم وبشكل خاص مثيرة من ناحية كيف اننا نرى تطورها من مجرد ابيات قليلة في المصادر الأولى إلى مرثاة شعبية طويلة وركيكة[1]. وبشكله المختصر فان القصيدة تتحدث عن عن كيفية عودة عائلة الحسين إلى المدينة مع الرجال والصغار الذي عادوا ايتاماً محقرين:

"مدينـــة جدنـــــا لا تقبلينا فبالحسرات والأحزان جينا

خرجنا منك بالاهلين جمعاً رجعنا لا رجالَ ولا بنينـــا"[2].

وفي القصيدة، بصيغتها المطولة، فقط البيت الأول الذي يتشابه مع الصيغة القصيرة. وان الأفكار التي يعبر عنها في البيتين الثاني والثالث قد صيغت بلغة أكثر شعبية وتمتد على عدة ابيات مطولة. فهناك شخص وهمي يُسأل عن حال الرسول ويرد بإسهاب مطول. ومن ثم تسرد القصة نفسها من قبل فاطمة بتأكيد على أسر وتعذيب النساء. وهناك صفة اخرى غريبة لهذه القصيدة وهي ان الكثير من الكلمات والتعابير المستخدمة فيها هي استعارات فارسية واضحة من اللغة العربية. وغالباً ما تكون القواعد والقافية خاطئة وهذا ما يشير إلى ان هذه القصيدة بشكلها النهائي قد تطورت في منطقة تتحدث العربية والفارسية على حد سواء. ان المرثاة مقصود منها النياحة فأم كلثوم تخاطب فاطمة على هذا النحو:

أفـاطـم لـو نـظـرت إلى السبايا

---

(١) شبّر، المجلد الأول، ص٧٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٧٥.

بنـاتـك فـي الـبـلاد مـشـتـتـينا

أفاطـم مـا لـقـيتي من عداكي

ولا قـيـــراط مـمـــا قـد لقينا

فـلـو دامـت حـياتـك لـم تزالي

إلى يــوم الـقـيـامـــة تـنـدبيـنـا

وبعد فاطمة، يُخاطب الحسن وتكرر القصة نفسها بتنويع بسيط. تم تجميع هذه القصيدة مع بعضها بشكل متكلف او زائف بدون رعاية الاستمرارية والثبات في البيت الأخير إذ انه لا يخاطب الناس الذين يجب ان يخاطبهم بل المشاركين في التعزية "وهذي قصتي معْ شرح حالي ألا يا سامعي فابكوا علينا"[1].

وهناك قصيدة اخرى جديرة بالملاحظة وهي مرثاة قصيرة منسوبة إلى سكينة ابنة الحسين. لقد لاحظنا سابقاً ان الحسين كان يحبها بشكل خاص وقيل لنا انه وقبل المعركة ربت على رأسها (كما كانت العادة للإشارة إلى أن حدثاً سيئاً سيحدث) وطمأنها ببعض أبيات الشعر الحزينة[2]. تنحصر مرثاة سكينة بلغة معقدة الا ان الصور والتعابير المستعملة بسيطة وفي الوقت نفسه رقيقة وذات قيمة فنية عالية.

فهي تبدأ بالتصريح عن حزنها الذي لن ينتهي، وتسأل ان يعذر لها

---

(١) المجلسي ٤٥، ص ١٩٧-١٩٨.

(٢) شبّر، المجلد الأول، ص ١٥٨؛ وابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص٢٥٧.

بكاءها المستمر. وتستمر في سرد قصة استشهاد الحسين وتركه وحيداً والذي هو سبب نواحها. وكما فعلت عماتها وأخيها نثراً، فان سكينة تعبر عن توبيخها لأولئك الذين خانوا والدها وقتلوه وتعد بالعذاب الأليم في الحياة الأخرى لكل أولئك ما عدا الذين شاركوه في معسكره. ومرة اخرى تقسم انها ستبكي بقية حياتها من اجل موت والدها،

"يا عين فاحتفلي طول الحياة دماً

لا تبك ولداً ولا أهلاً ولا رفقه

لكن على ابن رسول الله فانسكبي

قيحا ودمعا وأثريهما العلقه"[1].

ان البيتين الاخيرين يظهران قصة شعبية للبكاء المستمر للابنة الصغرى للحسين على موت والدها، والذي سنعود اليه لاحقاً. ومرة اخرى فان كل فرد من افراد عائلة الحسين لديه دور يؤديه في بيت الأحزان ومن ثم توفير المثال المطلوب لمختلف افراد المجتمع. ان دور سكينة هو عادةً دور الطفل اليتيم ولاسيما للفتيات الصغيرات الذين يذكرون عادةً لاستدرار الدموع.

ان القصائد التي درسناها سابقاً ولاسيما تلك المنسوبة لأعضاء العائلة المقدسة تؤكد بقوة على عنصر النواح. لذا يجب ان نضعها بعين الاعتبار إذ سنأخذ بعض الأمثلة الجديدة المصممة خصيصاً للاستعمال في عاشوراء ومجالس التعزية. ان هذه المراثي لديها ايقاع أو وزن شعري خاص بها

(١) م.ن، المجلد الأول، ص١٦٠، انظر أيضا ص ١٥٨-١٦٠ للقسم الكامل عن سكينة.

ليوافق مصاحبة الضرب على الصدور إذ ينشد المشاركون الأشعار الحزينة معاً. وان هذا الوزن الشعري على شكل مقاطع قصيرة إذ يستعمل فيها وزناً قصيراً وغالباً مع قافية معقدة ومتنوعة. وتعود الأشعار عادةً إلى البيت الأول أو البيوت الأولى التي تعبر عن الموضوع الرئيس للقصيدة.

لم يكن من الممكن، في هذا نقاشنا هذا المختصر عن أشعار محرم ولاسيما شعر المراثي (شعر النياحة) الذي وضع اصلاً لمجالس التعزية، ان يعمل نوعا من التقييم أو المسح الشامل لهذا النوع الادب، فكمية المواد المتوفرة لنا بهذا المجال باللغة العربية هائلة جداً ولا زالت في ازدياد. لذا سنكتفي ببعض الامثلة التعبيرية.

في واحدة من المراثي الأنموذجية والقوية، لأبي الحسن علي ابن أحمد الجوراني الجواهري (٣٨٩/ ٩٩٠) والتي تعبر عن الأفكار التي أخذناها بعين الاعتبار وربما اكثر من ذلك بكثير. إذ يفتتح قصيدته الطويلة بنداء إلى المؤمنين للبكاء والذي يخاطبهم كـ "أهل عاشوراء". لا يتبع فيها أي شكل كلاسيكي للشعر العربي بل بالاحرى ياتي الشاعر على الفور إلى وجهة دعوته. يطلب الشاعر من اهل عاشوراء ان يتذكروا بان يوم عاشوراء هو يوم زوال الإسلام، يوم اقتيدت فيه بنات محمد اسيرات كأنهن اسيرات أسِرنَ من البيزنطية أو الصين. لذا فان الشاعر يدعو عائلة النبي أن تعود إلى حزنها ونواحها. ويبدأ كل بيت من ابيات القصيدة بكلمة "اليوم" ومن ثم يعدد المآسي واحدة بعد الاخرى، ليس كحدث من التاريخ الماضي بل كجزء من الحاضر. وهنا بعض الامثلة القليلة:

"اليوم قام بأعلى الطف نأدبهم

يقول مَن ليتيم أو لمسكين

اليوم خضّب جيب المصطفى بدم

أمسى عبير نحور الحور والعين

اليوم اطفئ نور الله متقدا

وبرقعت عزة الإسلام بالهون"[1].

مع ذلك، فليس من الكافي ان نتكلم بتجرد عن أحداث الماساة فالشاعر يقص بالتفصيل محنة العذاب للحسين وموته على ايدي المسلمين وردرود افعال الرهبان المسيحيين في قنسرين[2]. فالراهب يوبخ بقسوة الاشرار ويعلن اسلامه وفي النهاية يقتل ويقطع إلى عدة قطع من قبل الرعاع بسبب كلماته القاسية وولائه لرأس الإمام المقطوع. وكما يبدأ الشاعر بنداء عام إلى البكاء فأنه ينتهي بأمر عينيه بالبكاء بأن تسكب الدموع، "يا عين لا تدعي شيئاً لغادية تهمي، ولا تدعي دمعاً لمحزون، قومي علي جدث بالطف فانتقضي، بكل لؤلؤ دمع فيك مكنون"[3].

لوحظ آنفا إن شعر النياح موزون بشكل يتناسب ليتوافق مع الضرب المتسق على الصدور. ومن الامثلة المهمة على ذلك هو الناشئ الصغير علي بن واصف الذي قاد بنفسه عدة جلسات بكاء في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، في بغداد وبعض المدن المهمة الأخرى في العالم الإسلامي. تقسم القصيدة على مقاطع شعرية من ثلاثة أبيات والثالث دائما

(١) الخوارزمي، المجلد الثاني، ص ١٣٧.

(٢) انظر الفصل الرابع آنفا؛ وابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص ٢١٦.

(٣) الخوارزمي، المجلد الثاني، ص ١٣٧، وانظر أيضا ص ١٣٩-١٤٠ القصيدة المتشابهة بواسطة مؤلف مجهول.

ما يتطابق بالقافية مع البيت الاخير من المقطع السابق. اما الوزن فهو عادةً قصير مع محاولة تقليد أو على الاقل اثارة نوع من النسق في الضرب على الصدر. ليس بالامكان عرض هذا التركيب المثير مترجماً إلا أن موضوعات الأشعار الرئيسة والأفكار تقدم بترابط يتفق مع الوزن الشعري.

ان هذه القصيدة مهمة بسبب لغتها المحكمة والمصقولة والصورة المثيرة للشفقة التي تقدمها عن الإمام الحسين الذي يتوسل من اجل الرحمة ولكن دون جدوى. ان هذا الشكل من السرد الدرامي الذي يلقيه الشخص الثالث يتداخل هنا وهناك مع الشخص الأول عندما يقوم الإمام بإخبار قصته بنفسه ومما يعطي القصيدة قوة خاصة. وهي تسمح للمشاركين مع الشخصيات التأكيد على الماساة والمشاركة العاطفية في احزانهم والآمهم. وربما تكون مسرحية محرم (التشابيه) قد خرجت من هذا المصطلح الشعري. فالشخصيات المسرحية في التشابيه تقدم من قبل اشخاص حقيقيين، الا ان التمثيل مع هذا يبقى إلى الحد الادنى ويبقى تأكيد بدلاً من ذلك على المشهد والحوار. ونستطيع ان نرى ان المنحى في الانتقال من الحوار بين شخصين حقيقيين ومن الصور الكلامية إلى التقديم الحقيقي المسرحي.

يبدأ الناشئ مرثاته بطرح خطابي لسكينة ابنة الحسين، كيف لا وقلبها انفطر بسبب موت الحسين او الحسن. فهو يجيب عن اسئلته بتوضيح كيف ان سكينة عانت من عطش شديد وان كل جزء من جسمها كان يبكي. ومن ثم يبدأ الحسين بالحوار بتذكير اعدائه بنسبه الشريف وكيف انه توسل من اجل شربة ماء من اجل رضيعه الصغير. ومما لا شك فيه فان الأعداء يصرون ان عطش الطفل لن يُطفأ حتى يستسلم الحسين إلى سلطة المغتصبين. الا انه يرفض الاستسلام ويختار ان يقاتل بدلاً من ذلك. وفي اشارات محددة، يصور الشاعر حزن العائلة المقدسة بشخصية ابنة الحسين

الصغيرة وعطش الطفل الصغير وإحباط الحسين الذي لم يترك له خيار اخر حتى يضحي بحياته و حياة الطفل الصغير. ومن خلال خلق جو مناسب من التعاطف والحزن فان الشاعر يستمر بقصته:

"فأجمعوا لِخَتْلِه واعصوصَبوا لقتلِهِ
وذبحِهِ مَعْ طفلِهِ فاستنَّتِ المَناصِـلُ
فواصلوا عرينَهُ وخضَّبُــوا جبينَــهُ
بالدمِّ يا معينَهُ مـا أنـت عنه غافلُ
وانتهكوا حريمَهُ وذبَّحُوا فطيـمَــهُ
وقيَّدوا سقيمَهُ وسيقتِ الـحلائلُ
يُسَقْنَ بالتنائِفِ في ضجَّةِ الهواتِفِ
وأدمـعٍ ذوارفِ عقولُها ذواهـلُ
يصخْنَ يا مُحمّدُ يا جدَّنا يا أحمـدُ
قد أسرتنا الأعبدُ فكلُّنا ثواكــلُ"[1]

وأخيراً فان الشاعر يجدد ندائه للبكاء :

"فيا عيونيَ أسْكبي على بني بنتِ النّبي
بفيضِ دمعٍ واهضبي كذاك يبكي العاقلُ"[2].

(١) الخوارزمي، المجلد الثاني، ص ١٤٦-١٤٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٧.

ليس من الممكن انصاف هذا النوع من الشعر بشكل كامل لانه يتنوع بشكل كبير، ليس فقط من ثقافة إلى اخرى بل حتى في داخل كل ثقافة. فالرجال والنساء يرتجلون المراثي العامية عندما تبرز الحاجة لذلك. والعديد منها يعدّ على المستوى العامي ولم يدون أبداً. وفي عدة حالات تختار المرأة او يختار الرجل الذي ينظم مجلس التعزية واحداً من الموضوعات الرئيسة التي تعرض كل انواع التزويق في الشعر ومصطلحات قصص القديسين التي يمكن ان تحتويها المخيلة.

ان توظيف احدى نساء العائلة المقدسة متحدثة، تُعد واحداة من التقنيات الشائعة الاستعمال في شعر (النياحة) في الامثلة التي تم ذكرها سابقاً. إذ تقوم بسرد قصة معاناة الإمام وعائلته إلى عضو آخر متوفى في العائلة سواء كان الرسول، أو الإمام او وبشكل اقل استعمالاً والد الإمام أو أخيه الحسن. وان المرثاة التي سنقوم بعرضها هي من المراثي المثيرة للاهتمام إذ ان المتحدثة هي فاطمة الباكية الأبدية. وهي هنا لا تسرد قصة بل تقوم باظهار الحب الشديد الاهتمام بأبنها الميت. والحسين الذي كان يتعدى الخمسين من العمر عند استشهاده يصور هنا كطفل في حاجة إلى رعاية أمه وبشكل مثير للبكاء فان فاطمة تسأل عن كيفية تنفيذ تفاصيل دفن ابنها الحسين، ومن الافضل ان ندع القصيدة تتحدث عن نفسها :

"والهفتاه لحزني فيك يا ولـــــدي

وا حسرتا يا قتيل الصحب والرفقا

وا طول لهفي عليك اليوم يا ولدي

لأهجرن سهادي فيــك والأرقـــا

وتستغيث وتـدعو يـا سكينة مــــن

أضحى يغسل إبني من به رفقا

ويلاه ويلاه من أضحى يكفنه

ومن رأى وجهه والنحر والحدقا

ويلاه ويلاه من عبى الحنوط

ومن ترى سار حول النعش وانطلقا

ويلاه ويلاه من صلّى عليه ومن

أيضا ترى للثرى في لحده طبقا»[1].

ان هذا الشعر العامي والمؤثر قد ألف لمجالس التعزية. وبعد تقديم الصورة الدرامية للرجل البائس او العاجز والذي في حياته لم يستطع الدفاع عن نفسه وبعد موته لم يقدم له أحداً دفناً ملائماً، فان الشاعر يختتم بالتعبير عن أمله وامل المجتمع بشكل عام بقدوم المهدي الذي سيقود الجيش المنتصر وينتقم لدم اسلافه الشهداء. وبالإضافة إلى ذلك فان القصيدة قد وضعت في سياق قصة مؤثرة، بنوع من الحلم الرؤيوي حلمت به سكينة في دمشق في بيت يزيد.

إذ ترى الفتاة كل الانبياء والنساء المقدسات، ومن بينهم ابنة محمد فاطمة، وتركض الفتاة الصغيرة نحو جدتها لتشكو مما حصل لهم على ايدي اعدائهم. اما فاطمة فإنها تضم إلى صدرها قميص الحسين الملطخ بالدماء وتطلق صرخة عالية وترفع العويل مع الابيات الحزينة التي ذكرناها سابقاً.

---

(١) الطرَيحي، ص ٦٠-٦١، الشاعر سعيد بن النيلي توفي سنة ٥٦٥/١١٦٩.

وربما يعلم الشاعر كما يعلم جمهوره ان الصورة المقدمة هي ليست الصورة الحقيقية. الا انه وبينما تستمر مجالس التعزية فان الاساطير تمتد حتى هذه اللحظة، وتصبح جزءاً من التاريخ. اما بالنسبة للمؤرخين الدينيين تصبح هذه الاسطورة جزءاً من التاريخ، ليس تاريخ الحدث بل فهم المجتمع وترجمة الحدث، وليس تاريخ الحقائق التاريخية بل طريقة عيش المجتمع لتلك الحقائق. يعبر عن هذا التداخل لاحداث كربلاء في طقوس الزيارة. ومن خلال هذه الطقوس يجدد المجتمع ولائه واخلاصه للامام، وبطريقة خاصة جداً يجدد مشاركته الشخصية في هذه الدراما. وسننهي هذا الفصل بدراسة طقوس الزيارة، موضوعاتها الرئيسة، تركيبتها وطريقة تنفيذه.

٥-٤ طقوس الزيارة ومكانتها في المذهب الشيعي

ان حرمة او قدسية مكان معين مثل ضريح شخصية دينية رجلا كان أوامرأة، او كمكان للتجلي او الظهور هو أيضا ظاهرة مألوفة في التاريخ الديني. اما في حال كربلاء فهي خاصة من نوعها. و انها اكتسبت الاهمية بالنسبة للشيعة في الوقت الحاضر اكثر مما حازت عليه الكعبة للاسلام او البيت المقدس في اورشليم، الا انه من المهم في البداية تحديد هذه البقعة مع البقع المقدسة القديمة لاعطائها المكانة والقدسية المساوية لتلك الأماكن القديمة.

سوف لن يكون ذو فائدة ان ندرس القصص المتعلقة بكربلاء حسب تسلسلها التاريخي لانه لا يمكننا تميز أي تسلسل زمني. لذا فاننا سنقوم بدراسة عدد من القصص والتقاليد، بدأ بالأكثر اعتدالا ، وذهاباً إلى

(١) ابن قولويه، ص ٢٦٩.

الأكثر تطرفاً ابتداءً بالمتوسطة ومن ثم الانتقال إلى المتطرفة منها.

الإمام السادس جعفر الصادق اعلن للحُجاج ان قبر جده الاكبر، (الغديرية) (كل منطقة كربلاء وما حولها) هو ارض بيت المقدس[١]. ان بيت المقدس في الكعبة يعرف بالـ"حرم المقدس" الذي يعني القدسية والامان[٢]. وفي الفصل السابق رأينا ان كربلاء أيضا قد عرفت بالـ"حَرم" في عبارة قالها الإمام الحسين للمؤمنين من الجن الذين جاءوا لتقديم المساعدة والعون له للقضاء على اعدائه[٣]. ان ابن الإمام زين العابدين لا يؤكد فقط على ادعاء والده بذلك، بل يذهب إلى ابعد من ذلك، فإذا كان التقليد الذي سوف نقتبسه ادناه هو حقا له، فعندئذ يكون من الصعوبة بمكان الكلام عن أي تطور في التقوى الكربلائية نفسها[٤]. بل ان مكان قبر الحسين بدأ يشارك الإمام الحسين قدسيته مباشرةً بعد مقتله. ومن المحتمل ان هذا تم بسبب التأكيد الشديد على الحج إلى كربلاء والذي تطور حالاً مما دفع السلطة الموجودة إلى تدمير القبر ومنع العمل الديني بالحج اليه. إذ يخبر الإمام الرابع أتباعه بما يأتي: "اتخذ الله أرض كربلاء حرماً آمناً مباركاً قبل أن يخلق الله أرض الكعبة ويتّخذها حرماً بأربعة وعشرين ألف عام، وإنه إذا زلزل الله تبارك وتعالى الأرض وسيَّرها

(١) لمفهوم كلمة "حرام" في الثقافة العربية القديمة، انظر طه حسين، طبعة عبد الرحمن بدوي (مصر١٩٦٢،)، عنوان المقالة "حرام وحوطه" بواسطة ر.ب. سيرجنت، ص٤١-٥٨.

(٢) الفصل الرابع أعلاه، ص١٢٣.

(٣) هذا التقليد نجده في بعضٍ من أقدم المصادر ويحتوي على الإسناد الكامل الذي يعود الى أبي الجارود، والمعروف بأنه معاصر للإمامين الرابع والخامس وانه يعد من احد المحدثين المهمين في الإسناد في الحديث الشيعي.

(٤) ابن قولويه، ص٢٦٨.

رفعت كما هي بتربتها نورانية صافية ، فجعلت في أفضل روضة من رياض الجنة، وأفضل مسكن في الجنة ، لا يسكنها إلّا النبيون والمرسلون"[1].

وهنا يضع الإمام كربلاء في موقع مساو، اذا لم يكن، أعلى للكعبة ويدعي لها بمكانة قديمة وحتى اكبر من تلك التي ترافق عادةً البيت العتيق في مكة. وهو لا يتوقف عند هذا الحد بل انه وفي بقية عبارته يدعي ان كربلاء ستكون النجمة المضيئة التي ستجلب انظار كل سكان الارض. وستصرخ بصوت ملؤه الكبرياء "أنا أرض الله المقدَّسة الطيِّبة المباركة ، التي تضمَّنت سيِّد الشهداء وسيِّد شباب أهل الجنة "[2].

وكالعادة فإننا نعود دائماً إلى الإمام السادس من اجل اكثر القصص رؤيوية وجدليةً. وبخلاف جده الذي اكتفى بالمكانة الكبيرة لكربلاء دون ان ينافس موقع الكعبة في الإسلام، فان جعفر الصادق يقارن المكانين. فالكعبة شبيهة بكربلاء بكل شيء، ماعدا لعنة الله نفسه لها. وان هذه القصة واحدة من القصص الكثيرة المعروفة المنسوبة إليه والتي تشير إلى كل علامات الأسطورة الرائعة. فالإمام يوضح انه بينما خلق الله الكعبة قالت مفتخرةً : "مَن مثلي وقد بُني بيت الله على ظهري، يأتيني الناس من كلّ فجّ عميق"[3]. الا ان الله أمر ارض الكعبة ان تكون متواضعة وصامتة أمام كربلاء إذ حظوتها الكبيرة مقارنةً مع الاخيرة لا تعدو كونها ابرة تغمر في البحر لتنقل بعضّ من مائه. فان الحظوة الكبيرة أعطيت إلى كربلاء؛ لأنها تحتوي على بقايا الإمام الشهيد وهكذا يستمر الله بقوله : "لولا تربة كربلاء ما فضّلتك، ولولا من تضمّنه أرض كربلاء ما خلقتك ولا خلقت البيت

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٦٨.

(٢) ابن قولويه، ص ٢٦٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٦٧.

الذي به افتخرتِ، فقرّي واستقرّي وكوني ذنباً متواضعاً ذليلاً مهيناً، غير مستنكف ولا مستكبر لأرض كربلاء، وإلّا سخت بك وهويت بك في نار جهنم"[1].

ومن دون شك فان هذه القصص جذبت ولا زالت تجذب اليها أعدادا كبيرة من الرجال والنساء إلى الضريح المقدس. في الواقع، في العديد من مراحل التاريخ مسلم، ولاسيما في أوقات الصراع بين إيران الصفوية والحكام العثمانيين، فان زيارة ضريح كربلاء أخذ مكان الحج. والإمام السادس الذي عاش معظم حياته في المدينة لم يقف عند حد في تشجيع اتباعه على زيارة قبر جده الشهيد. والان سنناقش بعض المكافآت العظيمة التي وعد بها كل من يقوم بهذه الرحلة إلى ضفاف الفرات ولاسيما تحت الظروف الخطرة.

تقديم الوعود والمكافآت في المستقبل لم يكن، ومع ذلك، كافيا، فقدسية كربلاء جعلت من تربتها مصدراً للبركة والقدرة على الشفاء في هذه الدنيا. إذ قيل لنا "إن الله عوض الحسين أن جعل الشفاء في تربته، واستجابة الدعاء تحت قبته"[2]. وهناك العديد من القصص التي تشجع المؤمنين الشيعة على تقديم التراب المقدس إلى أعضائهم المرضى أو شربه ممزوجاً مع الماء في حال الإصابة بمرض ما. ان تربة كربلاء فعالة وقوية بحد ذاتها لذا يجب على المؤمنين ان يحتفظوا بها في مكان نظيف وان يتلوا الأدعية إلى الله والصلوات على النبي وعائلته فوق هذا التراب حتى لا يتمكن الشيطان او أي شر اخر من الجن تلويثه. ان التراب المقدس قد يفقد

(١) الطوسي، أمالي، المجلد الاول، ص ٣٢٣؛ المجلسي ٤٤، ص٢٢١؛ وابن قولويه، ص ٢٧١-٢٧٣.

(٢) م.ن، ص ٣٢٨.

قوته السحرية في الشفاء اذا لم يحرس بشكل جيد[1].

ان قدسية كربلاء قد اعلنها الله نفسه عن طريق الملاك جبرائيل إلى النبي. ليس فقط من خلال الطابع القدسي الذي تمتلكه، ولكن تاريخ ضريحها نفسه قد نُبأ به من خلال الأحاديث الشهيرة التي اشرنا اليها كثيراً في هذه الدراسة والمنسوبة إلى علي ابن الحسين والتي رويت على ذمة عمته زينب أخت الحسين. وهذه الحديث يمتلك الامتياز في انه يعدّ حديثاً قدسياً، وفضلا عن ذلك فانه يقدم صورة شاملة للاسكاتولوجية (الاخروية) الشيعية. وسنقتبس هنا الجزء الذي يختص بالحسين وضريحه.

"فإذا كان ذلك اليَوم الَّذي يُقتَل فيه سِبطُك وأهلُه، وأحاطتْ به كَتائبُ أهل الكفر واللَّعنة، تَزَعْزَعَتِ الأرضُ مِن أقطارها ومادّتِ الجبالُ وكثر اضطرابها واصطفقَتِ البِحار بأمواجِها، وماجَتِ السّماوات بأهلها غضباً لك يا محمّد ولِذُرّيَّتك، واستعظاماً لما يُنْتَهك مِن حُرْمَتِك، ولشرّ ما تكافى به في ذرِّيَتك وعِترتك، ولا يبقى شَيءُ من ذلك إلّا استأذن الله عزَّوجَلَّ في نُصرةِ أهلك المستضعَفين المظلومين الّذين هم حُجّة الله على خَلقه بعدك فيوحي اللهُ إلى السَّماوات والأرض والجِبال والبَحار ومَن فيهنَّ : أنّي أنا الله؛ المِلكُ القادِرُ الَّذي لا يَفوتُه هارب ولا يعجزه مُمتنعٌ وأنا أقدر فيه على الانتصار والانتقام، وعزَّتي وجَلالي لأُعذِبنَّ مَن وَتر رسولي وصَفِيّي ؛ وانتَهكَ حُرمَتَه وقَتَلَ عترتَه ونبذَ عَهدَه وظَلَم أهل بَيْته عذاباً لا أُعذِّبه أحداً من العالمينَ، فعند ذلك يَضِجّ كلُّ شيء في السّماوات والأرضين بلَعن مَن ظَلَم عِترتَك واستحلَّ حُرمَتك، فإذا بَرزت تلك العِصابة إلى مضاجِعها تولّى الله عزَّوجلَّ قبض أرواحها بيده وهبط إلى الأرض ملائكة من السّماء السّابعة معهم آنيةٌ من الياقوت والزُّمرُّد مملوءة من ماء الحياة وحُلَلٌ مِن حُلَلِ الجنّة وطيبٌ من طيب الجنّة، فغَسّلوا جثثهم بذلك الماء وألبسوها الحلل وحَنّطوها بذلك الطّيب، وصلّت الملائكة صَفّاً

صَفّاً عليهم، ثمَّ يبعث الله قَوماً من أُمّتك لا يَعرِفُهم الكُفّار لم يشركوا في تلك الدِّماء بقولٍ ولا فعلٍ ولا نيّة، فيوارُون أجسامَهم ويقيمون رَسْماً لقبر سَيّد الشّهداء بتلك البطحاء يكون عَلَماً لأهل الحقّ، وسَبباً للمؤمنين إلى الفَوز وتحفّه ملائكة من كلّ سماء مائة ألف ملك في كلّ يومٍ وليلة، ويصلّون عليه ويطوفون عليه ويسبّحون الله عنده ويستغفرون الله لِمَن زارَه ويكتبون أسماءَ مَن يأتيه زائراً من أُمتك مُتقرّباً إلى الله تعالى وإليك بذلك، وأسماء آبائهم وعَشائرهم وبُلدانهم، ويوسِمون في وجوههم بِميسم نور عرش اللهِ[1].

ويروي الإمام الرابع الرسالة الالهية فيما يتعلق بالمؤمنين الذين سيتجمعون حجاجاً عند قبر والده. وأخيراً، وعودة إلى الضريح في كربلاء، "وسَيجتهد أناس ممّن حقّتْ عليهم اللّعنة مِن الله والسَّخَط أن يعفوا رَسْم ذلك القبر ويمحو أثره فلا يجعل الله تبارك وتعالى لهم إلى ذلك سبيلاً"[2]. ويجب ان نلاحظ انه كان هناك بعض الناس مثل المتوكل الذي حاول طمس كل دليل على القبر المقدس، الا انهم لم ينجحوا من ازالته من قلوب اتباع الإمام.

لم يخلو ضريح الإمام في كربلاء ابداً من الحجاج المحتشدين على عكس الحج إلى الكعبة الذي يقتصر على اوقات محددة. الا أن الزيارة إلى قبر الحسين واردة في كل وقت وحتى في كل مكان. وعندما زار المؤلف ضريح الإمام الشهيد في مايس ١٩٧١، ليس خلال فصل الزيارة الخاص، كان

(١) ابن قولويه، ، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٦٧.

(٣) للتعبيرعن فكرة مكافآت مادية ملموسة للحج إلى كربلاء، انظر ابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص ٢٧٢-٢٧٣.

المكان يعج بالحجاج من عدة بلدان. وهو الآن كما كان دائماً بيتاً حقيقياً للدموع والآهات إذ يجلب إليه الأتقياء الشيعة فرحهم وحزنهم لتقديم الشكر إلى الله وإلى الإمام لنجاحهم وتضرعاتهم لحل مشاكلهم وآلامهم(١).

في الفصل الأول تناولنا التنبؤات المتعلقة بعذابات واضطهادات العائلة المقدسة التي كانت دائماً ما توضع خلفية لعائلة موحدة وودودة وسعيدة. ومن المحتمل، وحسب وجهة نظرنا، ان الكثير من هذه القصص المختلفة لها علاقة بحادثة الكساء التي تضمنتها العديد من الأحاديث. فبحسب اد الأحاديث القديمة كان النبي في بيت علي يشارك العائلة وجبة للاكل المعتادة البسيطة. وفجأةً تغير مزاج الرسول من الفرح إلى التعبير عن الحزن والبكاء. ولم يجرؤ احد ان يسأل الرسول عن سبب بكائه الا ان الحسين، وكان لا يزال صغيراً، قفز إلى حضن جده وسأله عن سبب حزنه. فأجابه الرسول ان جبرائيل جاء اليه واخبره عن المصائب التي ستواجه العائلة المقدسة لذا اختطف تلك اللحظة من الفرح. ان المغزى الرئيس من هذه القصة هو اضفاء الدعم النبوي للحج إلى ضريح كربلاء ولتأكيد مكافآت الكبيرة التي سوف يحصل عليها المؤمنون على ادائهم هذه الزيارة. وفي نهاية القصة يسأل الحسين: "يا أبي فما لمن زار قبورنا على تشتّتها ؟ فقال : يا بُنَيّ أولئك طوائف مِن أُمّتي يزورونكم فيلتمسون بذلك البركة، وحقيق عَلِيّ أن آتيهم يوم القيامة حتّى أُخلِّصَهم مِن أهوال السّاعة ومِن ذنوبهم، ويسكنهم الله الجنّة"(٢).

لذا قد تعدّ الزيارة كفعل اتفاقية مشروطة بين العائلة المقدسة واتباعهم. هذا العهد هو اتفاق حب طاعة مخلصة والاخلاص من جانب الجماعة ومن جانب العائلة المقدسة في المحبة المتبادلة، العاطفة والوعد بالمكافآت

(١) ابن قولويه، ص ٥٢؛ المفيد، ص ٢٣٥.

الكبيرة والشفاعة في الحياة القادمة. ان هذه الظاهرة في الدين الإسلامي لا تختلف كثيراً عن العلاقة بين المجتمع في اسرائيل القديمة ويهوه أو بين أقدم المجتمعات في الشرق الادنى وآلهتهم في هذه المسألة.

لا نستطيع الخوض بعيداً في المقارنات المثيرة لهذه الظاهرة في الإسلام مع مثيلاتها القديمة في قصص الشرق الادنى الدينية. تندمج طقوس الزيارة في تاريخ الرسل الاوائل. إذ قيل لنا ان رجلاً ذهب سراً في ليلة إلى زيارة قبر الحسين، التقى قرب الضريح بملاك على هيئة رجل أمره ان ينتظر حتى الفجر لان موسى الرسول قد استأذن من الله ان يؤدي فرائض الحج المقدسة مع حاشية من ٧٠٠٠٠ ملاك إذ سيمضون الليل في ضريح الإمام[١].

وهناك ارتباط اكثر اثارة مع الرسل القدماء اقيم بين بقعة القبر المقدس وولادة المسيح. فالقرآن يصور كيف أن مريم أم المسيح كانت تخاف من ردود فعل الناس من ولادتها طفلاً بدون زواج فأخذت الطفل الوليد وانسحبت إلى مكان بعيد[٢]. وعندما سئل علي ابن الحسين عن المكان الذي انعزلت فيه فاجاب: "خرجت مريم من الشام حتى أتت كربلاء فوضعت عيسى عليه السلام في موضع قبر الإمام الحسين عليه السلام وفي تلك الليلة عادت إلى الشام"[٣]. هذه القصة، إلى جانب كونها مثيرة جدا، وعلى الرغم من انها لا توافق تماما مع القصة القرآنية لميلاد السيد المسيح، فانها لا تبدو انها قد أقلقت الإمام او أي من اتباعه الذين كانوا مسؤولين عنها. هناك سبب واحد يربط بين الرسول القديم والإمام المضطهد هو ان المسيح

(١) ابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص ٢٧٢.

(٢) القرآن ٢٢:١٩.

(٣) المجلسي ١٠١، ص ١١٦.

وامه قد شُكك بأمرهم حسب القصص الإسلامية وهكذا كانوا بحاجة إلى دليل واثبات سماوي. وهكذا وحسب النص القرآني فقد تم تبرئتهم. ومع ان وضعيتهم كانت موازية او مشابهة لتلك التي للامام الذي كانت سلطته ووضعيته في محل استجواب من قبل الناس. لذلك فان تبرئة الرسول القديم ترتبط بشكل وثيق مع قبر الإمام الذي عانى من ظلم اعظم. وان هذه القصة قد تظهر حظوة التبرئة التي منحت للرسول القديم وأمه من اجل الإمام الشهيد في مكان دفنه.

احد أتباع الإمام السادس، المسمى صفوان الجمّال روى على ذمته بعض من أحاديث الزيارة المهمة، إذ يقال انه خلال زيارته للمدينة لاداء مراسيم الحج، قام بزيارة الإمام خلال موسم الحج. فسأله الإمام السادس إذا ما كان يزور قبر الحسين دائماً، إذ يبدو ان صفوان كان يعيش في العراق، فاجابه بالتأكيد. وسأله صفوان بدوره اذا ما زار الإمام نفسه الضريح المقدس أيضا فأجابه الإمام السادس: "وكيف لا أزوره والله يزوره في كل ليلة جمعة يهبط مع الملائكة إليه والأنبياء والأوصياء ومحمد أفضل الأنبياء ونحن أفضل الأوصياء".

وسأل صفوان مرة اخرى بتعجب، "جعلت فداك فتزوره في كل جمعة حتى تدرك زيارة الرب؟" فأجاب الإمام السادس : "نعم يا صفوان الزم ذلك يكتب لك زيارة قبر الحسين وذلك تفضيل وذلك تفضيل"[(١)]. ان هذه القصة المهمة تصل إلى الحد النهائي في غاية الكون القصوى ضمن الدين الإسلامي التي تشمل الشيعة المعتدلين. وتذهب إلى حد، كل ما امكن، إلى

(١) ابن قولويه، ص ١١٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٦١؛ وابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص ٢٧٣؛ ابن بابويه، "ثواب"، ص ٧٦-٧٧.

التضحية بكل شيء من اجل نيل شرف الحج إلى قبر الإمام. وهناك قصة تذكر دائماً على ذمة العديد من الائمة مع تغييرات بسيطة "مَن زار قبر وَلَدي وبات عنده ليلة كان كمن زارَ اللهَ في عَرشه"(١). ان المحررين المحدثين للمصادر الأولى التي تقدم هذه القصة يخرجون عن المسار لتفسيرها بشكل مجازي. ومع هذا ومن الواضح انه كان مهماً للائمة نفسهم وبالتأكيد بالنسبة للمجتمع الاحتفاظ بطقوس محرم بمجمله. ولتحقيق هذه النهاية، لم يبخل الائمة ولا حتى اتباعهم بأي شيء لتحقيقها.

ان اعلى مكافأة وعد بها أولئك الذين يزورون قبر الحسين، ان يكون الزائر من الاشخاص المقربين للحسين في الجنة. إذ سيجلسون ويتحدثون معه تحت العرش السماوي وهذا ما سيفضلونه على كل مُتَع الجنة الاخرى.

"يقال لهم: ادخلوا الجنة، فيأبون ويختارون مجلسه وحديثه. وإنّ الحور لترسل إليهم أنّا قد اشتقناكم مع الولدان المخلّدين(٢)، فما يرفعون رؤوسهم إليهم لما يرون في مجلسهم من السرور والكرامة"(٣). وتستمر القصة في وصف حال اعدائهم الرهيبة والخوف الشديد والعذاب في ذلك اليوم. وأخيراً فانها تنتهي بوصف درامي للموكب العظيم الذي سيحمل به أصحاب الحسين إلى قصورهم في الجنة(٤).

وهذه بعض الامثلة البسيطة للمكافات العظيمة التي وعد بها أولئك الذين يزورون القبر المقدس. وقد قيل لنا ان كل من ينفق من ثرواته ليؤدي فرائض الحج إلى قبر الحسين سيدخل الجنة بدون محاسبة. وكل رجل يُضرب

(١) لوصف شباب الجنة، انظر القرآن ١٩: ٧٦.

(٢) ابن قولويه، ص ٨١

(٣) التقليد نقل على ذمة الإمام السادس، للنص الكامل انظر ابن قولويه، ص٨٠-٨٢.

لقيامه بالحج سيأخذ عن كل ضربة حورية من حوريات الجنة وعن كل ألم سيستلم الف حسنة. وكل رجل يقتل لاخلاصه للعائلة المقدسة ويحج إلى القبر المقدس يعدّ شهيداً حقيقياً. وسينظف الملائكة المادة التي صنع منها حرفياً (طينه) حتى يصبح نقياً كطين الانبياء. وبأول قطرة من دمه فان الله سيغفر له كل ذنوبه. وبعد موته سيفتح باباً من قبره إلى الجنة التي سيهب بها منها عطراً مميزاً لطمأنته. ولن يحس بعذاب القبر وفي يوم القيامة سيرفع إلى السماء مع الانبياء ومع الملائكة سيرفع إلى الجنة لينشد التراتيل السماوية امام عرش الله[1]. وفي الحقيقة ففي عقول الائمة وعقول اتباعهم، الفضائل الكثيرة هذه لا تُمنح فقط للمؤمنين بسبب الحج نفسه، ولكن عن المصاعب التي يواجهها المسلمون الشيعة في أثناء الحج. وكما سنرى ان الزيارة تكون قصيرة لا تتعدى دقائق معدودة على القبر المقدس.

وقبل ان نصف طقوس الزيارة إلى قبر الحسين وغيره، هناك كلمة يجب ان تقال فيما يتعلق بدور التبجيل المناسب لذلك[2]. لقد لاحظنا سابقاً ان طقوس الزيارة قد تعدّ تجديداً للعهد المقطوع بين الحجاج والائمة. واكثر من هذا فان الحجاج الذين يشاركون بشكل مباشر في معاناة والآم شهيد كربلاء، فان المؤمنين يحاولون التشبيه قدر استطاعتهم بمعاناة الائمة. لذا فان الإمام السادس الزم اتباعه "إذا أردت زيارة الحسين (عليه السلام) فزره وأنت كئيب حزين مكروب، شعث مغبر، جائع عطشان، فان الحسين قتل حزينا مكروبا شعثا مغبرا جائعا عطشانا"[3]. وهناك رؤية

(١) ابن قولويه، ص ١١٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٠؛ ابن بابويه، "ثواب"، ص ٧٥.

(٣) ابن قولويه، ص ١٣١؛ المجلسي١٠١، ص ١٤١.

لتحديد العلاقة بين الائمة والمؤمنين قد ترى من خلال الاهمية الخاصة المنسوبة إلى الحج في يوم عاشوراء إذ قال الإمام السادس: "كل من يمضي ليلة عاشوراء على قبر الحسين سيلاقي الله في يوم القيامة ملطخاً بدمه كما لو انه قاتل مع الحسين في سهول كربلاء[1]. وفي قصة مشابهة فان الإمام السادس يصرح ان مثل هؤلاء المتقين لن يلطخوا بدمهم بل بدم الحسين وسيحسب ضمن أولئك الذين استشهدوا معه[2].

في الأسطورة والطقوس، يتم التعامل مع الزمان والمكان كموقع مقدس. وان كربلاء لها اهميتها الخاصة في المذهب الشيعي لانها موضع البقايا المقدسة للامام. وعلى الشاكلة نفسها فان يوم عاشوراء هو يوم مقدس بشكل خاص لانه زمن معاناته. وكذلك فان اقامة طقوس الزيارة في كربلاء في يوم عاشوراء لها حسنة كبيرة. ونبحث هنا بعض أهم الموضوعات الرئيسة لطقس الزيارة ونصف بشكل مختصر اداءها. وسندرس ببعض التفصيل، في ملحق هذا الفصل، نصا مهما للزيارة منسوب إلى الإمام الثاني عشر، المهدي.

يعدّ ضريح كربلاء في المذهب الشيعي مساوياً في عيني الله للضريح العتيق في مكة، المدينة المقدسة للاسلام، اذا لم تكن أعظم. وبشكل مشابه فان الحج إلى كربلاء له نفس الحسنات كالحج الإجباري إلى مكة، هذا اذا لم يكن الحج إلى كربلاء له فضائل اكثر. قال الإمام السادس ان حج رجل واحد من يمن البعيدة ليس لأي سبب بل فقط لزيارة قبر الحسين والتضرع

(١) المجلسي١٠١، ص ١٠٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٣-١٠٤. انظر الفصل الكامل ص ١٠٣-١٠٦؛ ابن قولويه، ص ١٧٤-١٧٥.

(٣) ابن قولويه، ص ١٦٢.

إلى الله تعادل ثلاثين حجة مبرورة متقبلة زاكية مع رسول الله بكل شعائر العمرة (الحجة الاصغر) لذا فان مكافأته مساوية لاخلاصه المتفاني للامام المظلوم[1]. اما الإمام الخامس الباقر فقد كان اكثر كرماً من ابنه إذ قال في حوار طويل مع واحد من اتباعه ان حجة واحدة إلى كربلاء في يوم عاشوراء تعادل الف الف حجة إلى الكعبة وتعادل عدة لقاءات في الحرب المقدسة مع الرسول[2].

ومرة سئل الرجل عما يجب ان يفعله لو كان يعيش بعيداً ولم يكن قادراً على إتمام شعائر الزيارة إلى الضريح المقدس في يوم عاشوراء. فأشار الإمام عليه ان يؤدي الزيارة التالية، كواحدة من اقدم النصوص الطقسية لادب الزيارة[3]. على الرجل الذي يعيش في بلد بعيد ان يذهب إلى البرية او يذهب إلى سطح عالٍ ويوجه وجهه إلى كربلاء فيما يتلفظ بعدة سلامات على الإمام الشهيد ويلعن قاتليه. ومن ثم يجب ان يؤدي ركعتين في منتصف النهار وبعدها يقيم مأتماً في بيته يدعو اليه اصدقائه واقاربه. ان هذا الموقف الإلزامي هو نوع من الانغماس الكلي في المأساة كأنها قد شوهدت من قبل المشاركين. ويجب على المشاركين تقديم التعازي الواحد للاخر لمقتل الحسين، قائلين: "عظّم الله أجورنا وأجوركم بمصابنا بسيّدنا الإمام الحسين سلام الله عليه وجعلنا وإيّاكم من الطالبين بثارة مع وليّه الإمام المهدي من آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين"[4].

ويتبع ذلك دعاء الزيارة. وهو اعتراف بليغ بالإخلاص التام إلى الأئمة

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٩.

(٢) ابن قولويه، ص ١٧٥.، الشخص كان يدعى "علقمه"، على ذمته تنقل بعضٌ من أهم نصوص الزيارة في زمن الإمامين الخامس والسادس.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٧٩.

والبراءة التامة من اعدائهم. وفي هذه الزيارة كما في العديد من غيرها من نفس النوع نرى العديد من عروض العواطف الحب والكراهية، الامل الملتهب والخنوع التي تقارن مع الغضب العدائي والعنيف، الاحباط والتوقع البرم. ان حب المخلصين للامام يعادل كرههم وعدائهم لأعدائه الأمويين وعملائهم. فالمؤمن خنوع وحزين لمعاناة الحسين وأصحابه الا انه يشتعل غضباً ليكون في جيش المهدي المنتصر. ليشارك في الانتقام لدم الحسين المقدس. ان النص الذي سنناقشه هو إعادة مطولة لهذه الموضوعات الرئيسة. وهنا سنقتطف بعض المقاطع القصيرة من هذه الأدعية الرئيسة التي تعاد وتكرر كل منها مئة مرة من قبل المشاركين. وتتلبس المشاركين حالة من النشوة في اعادتهم لهذه التعاويذ من اللعنات والمباركات، الاخلاص والعداء بحيث تجعل منها تجربة قوية مؤثرة: "اللهُمَّ الْعَنْ أول ظالم ظَلَمَ حَقَّ مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، وَآخِرَ تَابع لَهُ عَلَى ذلِكَ، اللهُمَّ الْعَنِ العِصَابَةَ الَّتي جاهَدَتِ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلاَم وَشايَعَتْ وَبايَعَتْ وَتابَعَتْ عَلى قَتْلِهِ. اللهُمَّ الْعَنْهم جَميعاً"[1].

ان ثورة الادانة هذه تتبعها تعازيم من السلام والإخلاص المتواضع إلى الإمام ومرة أخرى تعاد لمئة مرة: "السَّلامُ عَلَيْكَ يَا أبا عَبْدِاللهِ وَعلى الارْواحِ الَّتي حَلَّتْ بِفِنائِكَ، وَأنَاخت برَحْلِك عَلَيْكَ مِنّي سَلامُ اللهِ أبَداً مَا بَقيتُ وَبَقِيَ الليْلُ وَالنّهارُ، وَلا جَعَلَهُ اللهُ آخِرَ العَهْدِ مِنّي لِزِيارَتِكُمْ، أهْلَ البَيتِ السَّلامُ عَلَى الحُسَيْن، وَعَلَى عَليِّ بْنِ الحُسَيْنِ، وَعَلَى أولاد الحُسَيْنِ، وَعَلَى أصحاب الحُسَينِ الذينَ بَذَلُوا مُهَجَهُم دُونَ الحُسين"[2]. تنتهي الزيارة بالسجود وطلب شفاعة الحسين والحمد لله.

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٩، المؤلف شارك في هذه الزيارة في عام ١٩٧١ في مشهد ـ إيران، وكانت في الواقع خبرة قوية.

(٢) ابن قولويه، ص ١٩٤.

هذه الزيارة بسيطةٌ في تركيبتها الطقسية مقارنة بالطقوس الاخرى التي تمارس على الضريح نفسه، والتي تتطلب السجود والانحناء والطواف حول الضريح نفسه. ان معظم الزيارات اذا لم تكن كل هذه الزيارات تشترك في الموضوع نفسه. أولاً السلام على الإمام وعائلته وأصحابه وثانياً إعلان ولاية الحق للامام، ثم لعن اعدائه واخيراً التعبير عن الامل الحماسي للمؤمنين ليكونوا بين أولئك الذين سينتقمون لدم الإمام المقدس مع المهدي[1]. سوف نحلل بشكل مختصر نوعاً مثيراً من انواع الزيارة التي علمها الإمام الصادق إلى اثنين من أتباعه المفضلين يونس والمفضل.

ان النص الآتي مهم بشكل خاص؛ لانه يعبر عن الكثير من الموضوعات الرئيسة عن الحزن والانتقام اللذان تكلمنا عنها في هذا الفصل والفصل السابق من هذه الدراسة. تقدم الزيارة موضوع اعتماد كل الاشياء في الخليقة على وجود الائمة. وبعد تلفظ السلام على الشهداء المحيطين بالإمام يخاطب الحاج الإمام الحسين : «اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا حُجَّةَ اللهِ وَابْنَ حُجَّتِهِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا قَتيلَ اللهِ وَابْنَ قَتيلِهِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا ثارَ اللهِ وَابْنَ ثارِهِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا وِتْرَ اللهِ الْمَوْتُورَ في السَّماواتِ وَالْاَرْضِ، اَشْهَدُ اَنَّ دَمَكَ سَكَنَ فِي الْخُلْدِ وَاقْشَعَرَّتْ لَهُ اَظِلَّةُ الْعَرْشِ، وَبَكى لَهُ جَميعُ الْخَلائِقِ وَبَكَتْ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْاَرَضُونَ السَّبْعُ وَما فيهِنَّ وَما بَيْنَهُنَّ وَمَنْ يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ وَالنّارِ مِنْ خَلْقِ رَبِّنا وَما يُرى وَما لا يُرى»[2].

يعبر الحاج عن نفسه كالعبد المطيع لله والمولى المطيع للامام. ان الائمة

(١) للمثال انظر المصدر السابق نفسه، ص ١٩٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٩-٢٠٠.

وحدهم قادرون على ان يجعلوا رحمة الله ومكافأة الجنة ممكنة، لذا فان الحاج يكرر ثلاث مرات "أَنَا إلى اللهِ مِمَّنْ خالَفَكُم (الائمة) بَريءٌ"[١].

ان الظاهرة المعروفة في التاريخ الديني ان الله يتصرف في الطبيعة والتاريخ من خلال اشخاص يعتمد عليهم في الحفاظ على النظام والتناغم في الطبيعة. ان "الكلمة" (Logos) في الاناجيل الاربعة، التي خلق بها بوساطتها كل شيء في الكون قد تكون مثالاً جيداً. فالرسول وعائلته يقتربون كثيراً في احتلال المكانة المميزة نفسها في المذهب الشيعي الإسلامي. لذا فان الحاج يستمر في تأكيد دور الأئمة في الخلاص والعملية الطبيعية المستمرة: "بِكُمْ يُبَيِّنُ اللهُ الْكَذِبَ، وَبِكُمْ يُباعِدُ اللهُ الزَّمانَ الْكَلِبَ، وَبِكُمْ فَتَحَ اللهُ وَبِكُمْ يَخْتِمُ اللهُ، وَبِكُمْ يَمْحُو ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ، وبِكُمْ يَفُكُّ الذُّلَّ مِنْ رِقابِنا، وَبِكُمْ يُدْرِكُ اللهُ وِتْرَةَ كُلِّ مُؤْمِنٍ يَطْلَبُ بِها، وَبِكُمْ تَنْبِتُ الارْضُ اَشْجارَها، وَبِكُمْ تُخْرِجُ الارْضُ ثِمارَها، وَبِكُمْ تُنْزِلُ السَّماءُ قَطْرَها وَرِزْقَها، وَبِكُمْ يَكْشِفُ اللهُ الْكَرْبَ، وَبِكُمْ يُنَزِّلُ اللهُ الْغَيْثَ، وَبِكُمْ تُسَبِّحُ الارْضُ الَّتي تَحْمِلُ اَبْدانَكُمْ وَتَسْتَقِرُّ جِبالُها عَنْ مَراسيها"[٢].

وتنتهي الزيارة باللعنات المعتادة على قاتلي الحسين وأصحابه والسلام عليه وعلى أصحابه الشهداء.

وهناك نص طقسي آخر للزيارة سندرسه بشكل مختصر وهو واحد من اقدم وربما من احسن الامثلة على الصلوات الطقسية. وبخلاف الزيارات

(١) ابن قولويه، ص ٢٣٠، هذه الزيارة ذكرت أيضا من قبل ابن بابويه في مجموعته للأحاديث القانونية المعرفة باسم "من لا يحضره الفقيه". في قسم الزيارة فانه من الطبيعي أن يتبعه الحج. المؤلف يعلق بان هذه الزيارة كانت واحدة من الزيارات الأقدم والأجدر بالثقة التي ظهرت. انظر ابن بابويه "من لا يحضره الفقيه"، (النجف: الدار الإسلامية، ١٣٧٨/ ٢، ١٩٥٨)، ص٣٥٩-٣٦٠.

التي ناقشناها مسبقاً فهي تحوي على القليل من الصلوات التضرعية والكثير من صلوات الشكر والاعتراف بالإيمان بالله والولاء للائمة وقبول ولايتهم. ان المجاهرة بالإيمان لا يقتصر فقط على الشهادة بل يتضمن تأكيد حقيقة الموت، عذاب القبر القيامة والحكم الاخير .

وبعد كل هذا فان الحاج يخاطب الإمام وأصحابه بالسلام ويؤكد مرة اخرى على اخلاصه للامام. ويعترف ان القبر الذي يقف عليه هو قبر حبيب محمد الذي هو حبيب الله وان الإمام ناضل وجاهد في سبيل الله لكي ينقل الناس من الظلمة إلى النور. لذا فان الحاج ياتي ليعيد التأكيد على العهد مع الإمام والتعبير عن الرفض لأعداء الإمام الذي يلعنهم بلعنة طويلة بليغة.

وأخيراً فان الحاج يؤكد على استمرار الائمة مع الانبياء بالقول طبعاً بعد السلام عليهم، بأن الائمة هم ورثة آدم، وصفوة الله، ونوح نبي الله، وموسى كليم الله، والمسيح روح الله، ومحمد حبيب الله و الإمامين الأولين علي وابنه الحسن واخيه. ويصادق الحاج على ان الإمام هو النور الدليل إلى الطريق الصحيح.

. . .أنت النور العظيم في الانبياء، النور في ظلام الارض، النور في الهواء والنور في السماء العالية. وفي كل هذه كنت النور الذي لن ينطفئ والذي كلامه هو الدليل وكلمة الحق(١).

ان النص الآتي الذي سنقوم بدراسته هو واحد من اطول واكمل الزيارات. إذ يتم تذكير الحاج بكل الأفكار والأحداث التي أحاطت بكربلاء والامال بالخلاص الذي يربطه بالائمة. كما يوضح النص البلاغة

---

(١) ابن قولويه، ص ٢٢٢، للنص الكامل انظر ص ٢٢٢-٢٤٤.

الكبيرة والخيال الواسع وحتى الافتقار إلى التنظيم الآني الذي يسم افضل انواع الادب الديني.

وبما ان اهتمامنا في هذا الفصل كان يقتصر على ذكرى الإمام الحسين ومكانته الخاصة في المذهب الشيعي. فقد حددنا أنفسنا بزيارته واستثناء بقية الائمة. ومع هذا فهناك زيارات لكل امام على حدة وجميعهم بشكل عام أيضا. وهناك زيارة عامة تستحق بعض الملاحظات بسبب القصص المسرودة حول علاقة الائمة مع الله من جهة ومع المجتمع من جهة اخرى. ان نص هذه الزيارة منسوب إلى الإمام الثامن الرضا. وتبدأ الزيارة عادةً بالدعاء وبالسلام على الائمة ولكنه لا يذكر أسمائهم حتى يصل إلى نهاية النص تقريباً : "اَلسَّلامُ عَلَى مَحالِّ مَعْرِفَةِ اللهِ، اَلسَّلامُ عَلَى مَساكِنِ ذِكْرِ اللهِ، اَلسَّلامُ عَلَى مُظْهِري أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ، اَلسَّلامُ عَلَى الدُّعاةِ إلى دِينِه، اَلسَّلامُ عَلَى الْمُسْتَقِرّينَ في مَرْضاتِ اللهِ، اَلسَّلامُ عَلَى الْمُخْلِصِينَ في طاعَةِ اللهِ، اَلسَّلامُ عَلَى الأَدِلّاءِ عَلَى اللهِ، اَلسَّلامُ عَلَى الَّذِينَ مَنْ وَالاهُمْ فَقَدْ وَالى اللهِ، وَمَنْ عاداهُمْ فَقَدْ عَادَى اللهِ، وَمَنْ عَرَفَهُمْ فَقَدْ عَرَفَ اللهِ، وَمَنْ جَهِلَهُمْ فَقَدْ جَهِلَ اللهِ، وَمَنِ اعْتَصَمَ بِهِمْ فَقَدِ اعْتَصَمَ بِاللهِ، وَمَنْ تَخَلّى مِنْهُمْ فَقَدْ تَخَلّى مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ"(١).

وبتأكيد الإيمان بالأئمة وعلاقتهم بالله فان الحاج يستمر تأكيد الوفاء لهم ويطلب الشهادة على اخلاصه لهم. "وَأُشْهِدُ اللهَ أَنّي سِلْمٌ لِمَنْ سالَمْتُمْ وَحَرْبٌ لِمَنْ حارَبْتُمْ، مُؤْمِنٌ بِسِرِّكُمْ وَعَلانِيَتِكُم، مُفَوِّضٌ في ذالِكَ كُلِّهِ إِلَيْكُمْ"(٢). وتنتهي الزيارة باللعنات الاعتيادية على اعداء الائمة والصلوات على الرسول والائمة مسمياً اياهم فرداً فرداً.

---

(١) ابن قولويه، ص ٣١٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣١٥.

ان نص الزيارة الأخير توضح وبقوة ولاسيما تلك التي باللغة العربية الإيمان او الإخلاص المطلق من قبل المجتمع للائمة. اخلاصاً ليس روحياً فقط بل سياسياً أيضا. فالكلمات "أَنِّي سِلْمٌ لِمَنْ سالَمْتُمْ وَحَرْبٌ لِمَنْ حارَبْتُمْ" ، ولا يُعني بها معنىً مجازياً بل حرفياً. ان هذا التأكيد على الولاء (البيعة للائمة) لها زيارتها الخاصة. وسننهي هذا الفصل بنقاش مختصر لزيارة مهمة وتعرف بزيارة المصطفى، تقديم البيعة وبصلاة الإمام السادس الذي يؤكد العهد المقدس مع مجتمع المؤمنين.

ان الزيارة التي سنقوم بشرحها تعود لكاتب مجهول استنسخها المجلسي من مجموعة زيارات قديمة لكاتب مجهول[١]. ان الكلمة العربية مصافقة تعني ضرب يداً بيدٍ اخرى في حال الاتفاق على عهد او اتفاقية معينة. وتستعمل كذلك لتشير إلى الاتفاق النهائي على البيعة بين شخص وقائد. ولذا فأنها تفترض سلفاً الوجود الحقيقي على وجود لطرفي العقد. ومن المهم ان نأخذ هذا بعين الاعتبار لان الائمة بالنسبة للمجتمع الشيعي ليسوا فقط مجرد اشخاص لم يعودوا موجودين الا انهم دائموا الوجود في المجتمع يستمعون إلى تضرعات أعضاء المجتمع ويطالبون باستمرار العهد فيما بينهما، الحب والولاء. لذا فان المناسب لهذه الزيارة ان تقام عند قبر الحسين أي على المنطقة التي كان فيها وجوده الحقيقي مفترض مسبقاً. وبشكل عام فان النص يتكلم على نفسه لذا سنقتطف منه إلى حد معين. فالحاج يبدأ بهذه الكلمات: "جئتك يا مولاي زائرا لك، ومسلما عليك، ولائذا بك، وقاصدا إليك اجدد ما أخذه الله عز وجل لكم في رقبتي، من العهد والبيعة، والميثاق بالولاية لكم، والبراءة من أعدائكم، معترفا بالمفروض من طاعتكم"[٢].

(١) المجلسي ١٠٢، ص ١٩٨-١٩٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٩٨.

ومن ثم يضع الحاج يده اليمنى على القبر بطريقة رجل يقدم بيعته ويخاطب الإمام قائلاً : "هذه يدي مصافقة لك على البيعة الواجبة علينا، فاقبل ذلك مني يا إمامي، فقد زرتك وأنا معترف بحقك، مع ما ألزم الله سبحانه من نصرتك"[(١)]. فاذا قدم المؤمن تجديداً لولائه فعندها يجب ان يكون واثقاً من وقوف الإمام إلى جانبه. ان هذا التأكيد يعبر عنه الحاج نيابةً عن الإمام بهذه الكلمات: يا سيدي ومولاي وإمامي والمفترض علي طاعته، أشهد أنك بقيت على الوفاء بالوعد، والدوام على العهد، وقد سلف من جميل وعدك، لمن زار قبرك ما أنت المرجو للوفاء به، والمؤمل لتمامه، وقد قصدتك من بلدي، و جعلتك عند الله معتمدي، فحقق ظني، ومخيلتي فيك، صلوات الله عليك وسلم تسليما كثيرا"[(٢)]. وينهي الحاج دعاءه بأن ينتهي بصحبة العائلة المقدسة في هذه الحياة والحياة الاخرى.

لقد افترضنا مسبقاً زيارة الحاج إلى قبر الإمام الحسين غالباً ما تلزم الحاج بعدة صعوبات. ويجب ان يضاف هنا ان الائمة كانوا على علم بهذه الحقيقة وكذلك بالضرر العام الذي سيعيق أتباعهم بوصفهم أقلية في المجتمع الإسلامي. لقد رفع الإمام السادس يوماً يده إلى السماء والدموع في عينيه مصلياً :

"اللهم إن هؤلاء لشرذمة قليلون فاجعل محيانا محياهم ومماتنا مماتهم ولا تسلط عليهم عدوا لك فتفجعنا بهم، فإنك إن أفجعتنا بهم لم تعبد أبدا

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٩٨.

(٢) المجلسي ١٠٢، ص١٩٩.

(٣) الكليني، الكافي، المجلد الاول، ص ٢٥٧.

في أرضك»[1].

اما الصلاة المؤثرة التي قدمها الإمام للحجاج إلى قبر جده الإمام المظلوم. ففي هذه الصلاة نرى اعترافاً بالجميل من قبل الإمام بتضحية واخلاص اتباعه وهو يفرغ ما في صدره امام الله نيابةً عنهم. وبطريقة ما فان هذه الصلاة قد تعدّ دعاء للشفاعة يشبه صلاة المسيح لتلاميذه قبل تعذيبه كما ذكر في الانجيل الرابع[2]، فان صلاة الإمام تستبقي كل العناصر الإسلامية لتقاليد الزيارة التي هي جزءاً منها.

كان معاوية ابن وهب واحداً من اقرب تلامذة الإمام السادس، دخل يوماً بيت الإمام ووجده يصلي على سجادته قائلاً التضرعات التالية بعد صلاته: للهم يا من خصنا بالكرامة ووعدنا الشفاعة وحملنا الرسالة وجعلنا ورثة الأنبياء وختم بنا الأمم السالفة وخصنا بالوصية وأعطانا علم ما مضى وعلم ما بقى وجعل أفئدة الناس تهوي ألينا اغفر لي ولأخواني وزوار قبر أبي الحسين بن علي الذين أنفقوا أموالهم واشخصوا أبدانهم رغبة في برنا ورجاء لما عندك في وصلتنا وسرورا ادخلوه على نبيك محمد، وإجابة منهم لأمرنا وغيظا ادخلوه على عدونا أرادوا بذلك رضوانك فكافئهم عنا بالرضوان وأكلأهم بالليل والنهار واخلف على أهاليهم وأولادهم الذين خلفوا بأحسن الخلف واصحبهم واكفهم شر كل جبار عنيد وكل ضعيف من خلقك أو شديد وشر شياطين الإنس والجن وأعطهم أفضل ما أملوا منك في غربتهم عن أوطانهم وما آثرونا على أبنائهم وأهاليهم وقرابتهم. اللهم أن أعداءنا عابوا عليهم خروجهم فلم ينههم ذلك عن النهوض والشخوص ألينا خلافا عليهم فارحم تلك الوجوه التي غيرتها الشمس وارحم تلك الخدود التي تقلب على قبر أبى عبد

(١) إنجيل يوحنا، ١٧.

الله وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا. اللهم أني استودعك تلك الأنفس وتلك الأبدان حتى ترويهم من الحوض يوم العطش»[١].

ومن اجل هذا الهدف، سنتناول في الفصل القادم ذلك اللقاء السعيد الذي يجمع الائمة مع اتباعهم عند مياه نبع الحياة.

(١) ابن قولويه، ص ١١٦-١١٧.

الفصل السادس

على حوض الكوثر[1]

(١) إن كلمة "حوض"تعني بشكل حرفي خزّان او حوض، إن هذا المفهوم بالصيغة المستخدمة في الفصل غير موجود في القرآن، لكن بالأحرى في الحديث والروايات الشعبية. "الكوثر" هو نهر، والاسم مشتق من الوفرة او الكثرة. لذلك إنها تظهر في التقليد الشعبي كنهر في الجنة، وكثيرا ما تستخدم كلمة الحوض و الكوثر بالتبادل. بالإضافة إلى هذه المعاني هي أيضا مثال للبركة للراحة والنعيم للمؤمنين في الحياة الاخرى. للمعنى المستخدم للكوثر في القرآن انظر للقرآن ١:١٠٨.

ان الألم، مهما كانت طبيعته، قد يكون من شأنه ان يؤدي ـ على حد سواء ـ إلى الإبادة الجسدية والروحية للشخص المعاني. ولكن كما قلنا سابقا، فأن النصر النهائي على الألم والشر والموت، لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال المعاناة والموت[1]. وفي الحقيقة فان الخلاص الذي يعدّ الهدف في حياة المجتمع الديني، يؤخذ هدية سماوية للحياة الأبدية الممنوحة من خلال الموت. وان الحال المسيحية واحدة من اقوى الامثلة لهذه الظاهرة في التاريخ الانساني. نود القول بأن هذا السعي من أجل الخلاص، بأشكاله المختلفة، يؤدي دورا رئيسا في الحياة الدينية للمجتمع الشيعي ألاثني عشري شيعي.

وستكون مهمتنا في هذا الفصل تأكيد هذا الادعاء عن طريق إظهار وبشكل مباشر ـ كيف إن معاناة العائلة المقدسة مرتبطة بالمرتبة العالية لاعضائها في يوم القيامة وخلاص التابعين لها. سوف نحاول ان نبيّن أنه، على الرغم من أن مفهوم أو مفاهيم الفداء المسيحية تبقى تماما مسيحية، ومن ثم غير إسلامية، وبشكل أكثر تحديدا غير شيعية، الا ان هناك الكثير من الامور المشتركة في التقاليد الدينية بين الديانتين المسيحية والاسلامية في هذا الخصوص. وبينما يبقى علم الغيبيات الشيعي ضمن الاطار الاسلامي بما يشبه غيبيات ما قبل الاناجيل اليهودية وبدايات الكنيسة المسيحية.

(١) انظر الفصل الأول، ص ٢٤، وخاصة الهامش رقم ٦.

وعلى الرغم من ان مفهوم الفداء الشيعي يقدم دائماً بمعنى الشفاعة، الا انه، في الحقيقة، يذهب الى ابعد من الفهم الاسلامي المقبول لهذا المفهوم. وسوف نبقي على نقاشنا ضمن محتوى الشفاعة بما يشير الى هذه العناصر في المفهوم الشيعي الذي يذهب الى ابعد من حدود الشفاعة.

وفي هذا الفصل، سنبحث في خصوصية شفاعة النبي ونسله (الأئمة). ان هذه الحظوة الإلهية هي هدية مباشرة لصبرهم ومعاناتهم، حرمانهم وموتهم. وسوف تظهر هذه الحظوة لكل الخليقة من خلال المرتبة الرفيعة التي يمتلكها الائمة امام عرش الله. ففي حين كانوا المستضعفون على الارض[1]، فهم في اليوم الاخير سيشاركون الله في سلطته على خلقه. سنناقش لاحقاً رمز هذه السلطة للرسول وسلالته على حوض الكوثر وهو مصدر الحياة الابدية والراحة في يوم القيامة.

ناقشنا في هذه الدراسة ان الاتباع المخلصين من الشيعة للائمة يشتركون في معاناة وأحزان الائمة. ومن ثم فإنهم سيشتركون في فعل الفداء، في الشفاء والحكم. ان مزية الفداء هذه سيمنحها الله الى فاطمة، أم الائمة المتالمين وسيدة بيت الاحزان، ومنها الى اتباعهم المخلصين من سلالتها. اما النقطة الثانية التي ستؤخذ بنظر الاعتبار فهي دور فاطمة في الشفاعة في يوم الحساب، محققةً التبرءة لنفسها، ولسلالتها واتباعهم.

وأخيراً فاننا سنرى ان الانتقام الكامل والتحقيق الروحي والآمال الدنيوية للمجتمع الشيعي كلها تتجسد في الامام الثاني عشر المهدي. سيأتي المهدي كالمنفذ الاخير لقضاء الله ودليله على خلقه. اما عودة المهدي فستكون نقطتنا الاخيرة في النقاش.

---

(١) قرآن ١٧: ١١، ٥: ٢٨، للمقارنة انظر إنجيل متى٥: ٥.

٦-١ الشفاعة: مكافأة العذاب

كان مقدراً للائمة كما رأينا خلال هذه الدراسة، منذ البداية، ان يشربوا من كاس الألم والاستشهاد وان يؤدوا دوراً في خلاص الانسان وحكمه. والى مدى ابعد فان مزية الشفاعة للائمة تعتمد على صبرهم وتحملهم الحرمان، واضطهادهم وعذابهم. لقد اكد المذهب الشيعي عدة مرات عن طريق القليل من الادلة او عدمها ان جميع الائمة قد استشهدوا، وبهذه الطريقة فانهم سيشتركون في شهادة كربلاء، في عذابها وكذلك مكافأتها.

رأينا في الفصل الثاني ان الله منح للائمة الولاية (السلطة الدنيوية والروحية) على الخليقة كلها بأمانة آلهية منذ البدأ. لقد قرر الله مسبقاً مَن من بين الرجال سيقبل بهذه الامانة الالهية ومن الذي سيرفضها. ومن خلال هذا القضاء، قُدر للبعض السماء والبعض الآخر العذاب الابدي. وهكذا قيل لنا ان الائمة كانوا يملكون صحيفة آلهية خاصة تحوي اسماء اتباعهم واعدائهم حتى يوم القيامة[١].

ان مشكلة الحرية الانسانية والسلطة والارادة الآلهية مسألة لاهوتية معقدة في الاسلام والمسيحية. وعلى الرغم من ان التأكيد الواسع والتوجهات اللاهوتية الاساسية مختلفة تماماً في التقليدين كليهما، الا ان الرؤية الشيعية اقرب الى الرؤية المسيحية منها الى الفكرة الاسلامية السُنية المتزمتة. فالله يريد ويعرف ويقضي، غير ان الانسان ما زال مسؤولاً عن اختياره، وهو الخيار الذي يواجه به في كل لحظة، والارض لن تكون ابدا

(١) انظر الفصل الثاني؛ والكليني، الكافي، المجلد الاول، ص ٣٩١.

خالية من حجة لله على عباده[1] في الحكم عليهم او خلاصهم. ان تقاربية الرؤية الشيعية لتلك المسيحية قد تعود الى حقيقة كون كليهما يقبلان وسيطاً بين الانسان والله، الذي يكون وجوده الاساسي ومكانه في التاريخ الإنساني يؤدي دوراً مهماً في الخطة الالهية للخلق والوحي والخلاص. لذا من الواجب ان نتفق مع هنري كوربان ان بالامامة الشيعية هي نوع من الكريستولوجيا الاسلامية[2]. ففي الدين المسيحي يعدّ المسيح الرمز الأبدي، والكلمة الإلهية، الوسيط في خلق العالم من جهة والحمل المذبوح الذي يقف امام عرش الله ليخلص ويحكم من جهة اخرى. اما الائمة وعلى الشاكلة نفسها فهم من جهة محور الخلق، سبب وجوده وفي الوقت نفسه يعدّ موتهم نقطة خلاف بين الله وقاتليهم[3].

ان العلاقة الوثيقة بين عذاب العائلة المقدسة والحظوة الالهية أو الشفاعة، تقدم في قصة على شكل حوار بين الله والنبي. ففي ليلة رحلة الرسول السماوية (المعراج). فان النبي ـ كما نقرأ ـ قد أخبر "أن الله يود ان يجربك بثلاثة أشياء حتى يختبر صبرك". فوافق الرسول مصلياً ان يُمنح الصبر والاحتمال، وكانت التجربة الاولى، الجوع والحرمان حيث توجب ان يعطي كل ما يملك للفقراء[4]. والتجربة الثانية كانت العذاب والافتراء

(١) الكليني، الكافي، المجلد الاول، ص ٢٥٦-٢٦٣.

(٢) انظر الى المقالة، هنري كوربن، الفلسفة النبوية في الإسلام الشيعي، ايرانوس جاربوش، ٣١، (١٩٦٢)، ص٤٩-١١٦.

(٣) لمفهوم "المسيح الكلمة"، انظر إنجيل يوحنا ١-٣. إن العهد الجديد عادة ما يلمح بان مجيء المسيح يكون مصاحبها بعلامات صلبه وقيامته والسماء، وأنهم سوف يعرضون في يوم الدينونة. انظر سفر الرؤيا ١١:١٩-١٤، ولكن بشكل خاص انظر موعظة القديس يوحنا الذهبي الفم، "الصليب".

(٤) تقليد الجوع والكرم للعائلة المقدسة قد تم مناقشتها في الفصل الأول.

الذي توجب على محمد ان يتحمله على أيدي المنافقين والجروح التي كان عليه ان يتحمل المها. اما التجربة لثالثة كان العذاب والظلم الذي قدر لعائلته ان تعانيه من بعده. ان تفاصيل هذه المصيبة سبق وان تم شرحها في الفصل الاول عندما اخذنا بنظر الاعتبار هذه الاجزاء في قصة علي ابن الحسين واخرى تتعلق بالاهانات والظلم والعنف الجسدي الذي عانت منه فاطمة، العنف الذي قيل انه تسبب بإجهاضها. كما اننا لاحظنا الخيانة والمعارضة واخيراً شهادة علي على أيدي اعدائه. لقد وصف الصوت السماوي موت الحسن والحسين إذ وافق النبي على كل هذا مستسلماً الى الارادة الالهية مكرراً: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون[1].

يمكن هنا الاستنتاج بأن الاضطهاد والظلم الذي عانت منه عائلة النبي محمد كان نتيجة شرور وحماقات البشر. غير ان الله سمح بأن تجري هذه الامور، مع ذلك، من أجل إظهار الحق على الباطل وهكذا يؤسس الله حجته على الناس الاشرار. ويمكن إجراء مقارنة مثيرة للاهتمام مع الكتاب المقدس وذلك أن الله قد قَسّى قلب فرعون حتى يستحق هو وشعبه عقاب الضربات العشر[2].

ان موت الحسين تقرر من قبل الله لتحقيق الخطة الالهية ليس فقط للتاريخ الانساني هنا على الارض بل ايضاً في الآخرة. وهكذا استمر الصوت السماوي فيما يخص الحسين : "سيتوسل للحصول على مساعدتي الا ان قضائي قد تقرر سابقاً فيما يخصه ويخص اصحابه في الاستشهاد. لان موته سيكون حجتي على سكان الارض[3].

---

(١) القرآن ٢:١٥٦، ابن قولويه، ص ٣٣٣.

(٢) انظر الضربات في سفر الخروج ٨-١١.

(٣) ابن قولويه، ص ٣٣٢-٣٣٣.

ان القضاء في هذا النزاع الالهي سينفذ من قبل السليل العاشر للإمام الشهيد، المهدي، وهو احد القاب حجة الله (الدليل أو الشاهد على عقاب الله)[1]. وتستمر القصة : ومن ثم سأجلب (الله) من الحسين سليلاً ذكراً وسأمنحه الانتصار والانتقام للحسين. وسيملأ الارض بالعدالة ويحكمها بالعدل. وسيكون هناك خوف عظيم في وقته. فسيقتل الكثيرين حتى ان الناس سيشكون به (لاعتقادهم انه طاغية)[2]. الا اننا سنعود الى دور المهدي لاحقاً.

لقد تقررت مسبقاً النوائب والتجارب التي كان يجب ان تخوضها عائلة محمد وفي الوقت نفسه كان هناك وعداً بالمكافآت الكبيرة في اليوم الأخير. "فقد تقرر ان يأخذ علي جنائن الجنة ميراثا له. وستعود له السيطرة على حوض الكوثر ليعطي من مائها الى اصحابه (الاولياء) ليشربوا منها وليجعل اعداءه عطشى. وستنقلب نيران جهنم الى "برداً وسلاماً"[3] عليه. وسيدخل ويحرر كل من يملك في قلبه ذرة حب لأهل البيت.

وحسب قصة قديمة جداً موجودة في المصادر الشيعية رويت على ذمة عبد الله أبن عمر ابن الخطاب والذي سمعها عن والده، إذ يقول الرسول: إذا كان يوم القيامة زين عرش رب العالمين بكل زينة، ثم يؤتى بمنبرين من نور طولهما مائة ميل فيوضع أحدهما عن يمين العرش، والآخر عن يسار العرش، ثم يؤتى بالحسن والحسين عليهما السلام فيقوم الحسن على أحدهما

---

(١) انظر لاحقا في هذا الفصل.

(٢) ابن قولويه، ص ٣٣٤.

(٣) يتم هنا اجراء المقارنة مع أبراهيم كنص إسلامي صريح ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، القرآن ٢١:٦٩، اربيري ٢، ص ٢٢.

والحسين على الاخر، يزين الرب تبارك وتعالى بهما عرشه كما يزين المرأة قرطاها[١].

وبالاضافة الى ذلك، وكمكافأة لما عانى منه الامامين فستكون لهما حظوة تفوق الخيال. ومرة اخرى سنرى المقارنة المألوفة بين المصيبة الحزينة للائمة هنا على الارض ومرتبتهم الرفيعة مع الله في الجنة. ومع هذا وكالمسيح الذي ستظهر جروح معاناته وموته في اليوم الاخير متوجاً بتاج القوة والمجد، وكذلك الامام الحسين سيستمر بالظهور كجسم من دون رأس[٢].

ان المرتبة الرفيعة للائمة في الحياة القابلة غالباً ما ترتبط مع المكافآت التي وعد بها اتباعه لمعاناتهم وتحملهم من اجل الائمة. تعطي التبرئة الكاملة والمرتبة العالية للائمة، حساً بالامان وحتى الابتهاج للمتقين الشيعة. والاكثر تجسداً من هذا، فانه يقوي املهم في الوجود التقي إذ يعد بالتعويض والشفاء بعد مدة من الصراع والاضطهاد وخيبة الامل.

اذا ما كان الامام الثاني عشر يرمز بالنسبة للمجتمع الشيعي الى القوة الدنيوية والنجاح والفتح الذي لم يحققه أي من الائمة او اتباعهم في هذه الحياة، فان الامام علي بن ابي طالب، الامام الاول، يجسد الآمال الروحية او بمعنى آخر آمال الحياة الآخرة، آمال الخلاص والمُتع التي لا حصر لها في الجنة. وفي تركيب القصص التي تقتبس عظمة وقوة أمير

---

(١) ابن بابويه، امآلي، ص ٦٨.

(٢) ابن بابويه، ثواب، ص ١٩٥، سوف نعود لاحقا لهذا التقليد.البيان الصادر عن الامام السادس، انه في يوم الدينونة سوف يأتي الحسين بدمه المتدفق من جروح استشهاده وانه سوف يكون بصحبة النبي الذي سوف يعترض امام الله بقوله: "يا الهي اسأل أمتي لماذا فعلوا هذا بابني" الطوسي، امالي، ص ١٦٢.

المؤمنين، فان المخيلة الدينية قد اظهرت بلاغة كبيرة وخيالاً فنياً رائعاً. فان الجاذبية التي تتمتع بها شخصية علي قد جذبت الناس من خارج المجتمع الشيعي، فالخوارزمي يذكر قصة منسوبة الى النبي التي يضع فيها علي في مكان ليس بعيداً عن عرش الله.

"إذا كان يوم القيامة يقعد علي بن أبي طالب على الفردوس، وهو جبل قد علا على الجنة وفوقه عرش رب العالمين ومن سفحه يتفجّر أنهار الجنة وتتفرق في الجنان وهو جالس على كرسي من نور يجري بين يديه التسنيم[1]. لا يجوز أحد الصراط[2] إلّا ومعه براءة بولايته وولاية أهل بيته. يشرف على الجنة فيدخل محبيه الجنة ومبغضيه النار"[3].

هذا المقطع يجسد تقنية نموذجية من الاحاديث الشيعية، فالكلمات الغامضة او الغريبة عن اللغة العربية التي جاءت به سواء اتت من اللغات الشرقية أو الغربية، قد استعملت لتعبر عن جانب من جوانب الغموض والاسطورة، يفوق معانيها العامة المقبولة. فالفردوس على سبيل المثال الذي يعني الجنة يصبح مكاناً معيناً في الجنة وذو دلالة خاصة. هذا الاستخدام الخيالي للكلمات يطبق، في بعض الاحيان، على كلمات عربية بسيطة. وفي معظم الحالات، فإن مثل هذه الكلمة تستخدم أساسا لنقل بُعد معين من ابعاد السر الكامن في قصص سير القديسين، أو جانب معين من الجوانب الاسكاتولوجية (الاخروية). القصة التي سنتناولها تظهر كل هذه

(١) مياه الجنة ذُكرت في القرآن ٢٧:٨٣.

(٢) "الصاط (الطريق المستقيم) قد ذكرت في قرآن ٥:١، يدل ببساطة على الحياة المستقيمة للإنسان. وعلى أية حال فان الصراط يظهر في التقليد وكانه جسر بين السماء والجحيم والذي يتوجب على الإنسان عبوره.

(٣) الخوارزمي، الفصل الاول، ص٣٩.

العناصر بطريقة مثيرة ودراماتيكية. ان (حديث الوسيلة)[1] كما تعرف به هذ القصة قد سردت على ذمة احد اصحاب الرسول الشهيرين (سعيد الخدري).

"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا سألتم الله لي فسلوه الوسيلة. فسألنا النبي صلى الله عليه وآله عن الوسيلة؟ فقال: هي درجتي في الجنة، وهي ألف مرقاة، ما بين المرقاة الى المرقاة حضر الفرس الجواد شهراً، وهي ما بين مرقاة جوهر الى مرقاة زبرجد، الى مرقاة ياقوت، الى مرقاة ذهب، الى مرقاة فضة. فيؤتى بها يوم القيامة حتى تنصب مع درجة النبيين، فهي في درجة النبيين كالقمر بين الكواكب، فلا يبقى يومئذ نبي ولا صديق ولا شهيد إلا قال طوبى لمن كانت هذه الدرجة درجته. فيأتي النداء من عند الله عز وجل يسمع النبيين وجميع الخلق: هذه درجة محمد".

وتستمر القصة بواقعية الحياة لوصف الرسول قادماً مرتدياً ثياباً فاخرة جديدة مع علي الذي يسبقه. وسيعلن الاخير وبيده لواء محمد وهو لواء الحمد، مكتوب عليه ومكانة الحمد التي حفر عليها "لا الَه إلا الله، المفلحون هم الفائزون بالله". وسينظر اليهم الملائكة كأنهم اثنان من النبلاء والانبياء ذوي المكانة العالية. وسيتعجب الانبياء ويحسبونهما اثنان من كبار الملائكة قرب العرش السماوي. وبعدها سيصعد محمد الى قمة ذلك الصرح مع علي ولكن بدرجة واحدة خلفه. وسيعلن الصوت الآلهي ثانيةً: "هذا حبيبي محمد وهذا وليي علي، طوبى لمن أحبه، وويل لمن أبغضه وكذب عليه". لذا فان كل من يحب علي في هذه الدنيا سيفرح في الآخرة وكل من يكرهه سيحزن. وسيأتي الرضوان (حارس الجنة) ومالك (حارس الجحيم)

(١) "الوسيلة" تعني: واسطة، الأداة، محطة. في اللغة العربية تستخدم هذه الكلمة في عدة معاني.

الى الرسول ويسلمونه مفاتيح الجنة والنار. وسيعطيها محمد بدوره الى علي الذي سيسمح كل من يشاء بالدخول الى الجنة ولكل من يشاء الى النار. وفي هذا الجو من الابتهاج تختتم القصة، "فَلَجهنم يومئذٍ أشد مطاوعة لعلي من غلام أحدكم لصاحبه"[1].

ان دور الشفيع في هذه القصة واضح جداً. الا انه من المثير ان نلاحظ التشابه في هذه القصة بين علي ولي وخليفة النبي وشمعون الصفا أمير الحواريين وامين مفاتيح الملكوت. وفي المذهب الشيعي، شمعون الصفا قد يعدّ نبيا[2]. ان المساواة في المرتبة بين النبي محمد ووليه في اليوم الاخير تذهب الى ابعد من وصف العلاقة بين القديس بطرس والمسيح في يوم الدينونة. وفي حديث الوسيلة كما في غيرها من القصص المشابهة، فان علي يظهر بشكل خاص ليس مجرد شفيع، يتشفع لله نيابة عن اتباعه، بل ابعد من هذا، كقاض له السلطات الالهية من الاعتاق او القبض.

وبينما يشارك علي في معاناة وشهادة الأئمة ومن ثم في مكافأتهم في الشفاعة في اليوم الاخير، فان سلطته تكمن في مكانته الخاصة كـ "أخ"[3] وكـ "وصي" للنبي، لذا فانه من الادق ان بقية الائمة واعضاء آل البيت يتشاركون في سلطته العظيمة، لانهم يشتركون في الاختيار الصريح له ولسلالته كقادة (ائمة) للمجتمع.

ان الاتباع ألائمة الاتقياء سيشتركون مباشرةً بصلاحيات في الشفاعة كما اشتركوا في معاناتهم. وعلى وجه أخص فان الجماعة ستشارك في

---

(١) ابن بابويه، امآلي، ص ٧١-٧٢.

(٢) ابن بابويه، إكمال، ص ٢٧.

(٣) التعبير عن العلاقة بين النبي وعلي هو أعظم واهم في اللاهوت الشيعي، انظر لمناقشتنا في هذه النقطة في الفصل الثالث.

مكافأة الخلاص من العذاب، الذي وعد به الامام الشهيد الحسين. وهناك قصة اخرى قديمة توضح هذه الفكرة حيث تسرد العديد من بلاغات الملائكة الى النبي عن موت حفيده الوشيك. ففي بيت أم سلامة حيث حدثت العديد من هذه الزيارات الملائكية طلبت أم سلامة من الرسول ان يطلب من الله ان يعفي الحسين من ميتته القاسية فأجاب:

"قد فعلت، فأوحى الله عز وجل إلي: أن له درجة لا ينالها أحد من المخلوقين، وأن له شيعة يشفعون فيشفعون، وأن المهدي من ولده، فطوبى لمن كان من أولياء الحسين، وشيعته هم والله الفائزون يوم القيامة"(١).

شاهدنا في مناقشتنا لموضوع الزيارة في مسألة العهد (المصافقة) بأن الأئمة هم موجودون في كل مكان، وعلى استعداد لسماع تضرعات اتباعهم والتشفع لهم لدى الله نيابةً عنهم. انهم، كما قلنا، مثل الشمس التي تشرق اشعتها الدافئة والمضيئة على العالم فتعطيه الضوء والهداية. وفي خلال حياتهم، ممكن تشبيه الائمة بالشمس البهية التي لا تستطيع الغيوم ان تمنع شعاعها عن الناس. وخلال مدة موتهم، يمكن أن تعتبر كسوفاً مؤقتاً (غيبة) فهم مثل الشمس التي تشرق من خلال الغيوم والتي لا تفقد شيئاً من قوتها وبهائها(٢).

يعلم الائمة بكل تفاصيل حياة اتباعهم. وهذا ما يؤكده حديث يفسر السورة القرآنية ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾(٣). سأل

---

(١) ابن بابويه، امآلي، ص ٨٥؛ والمجلسي ٤٤، ص ٢٢١، للتقاليد الأخرى.

(٢) هذا التشبيه قد استخدم في وصف المهدي في غيبته، وفي المعنى نفسه تم تطبيقه على جميع الائمة من قبله. انظر المجلسي ٥٢، ص ٩٣.

(٣) القرآن ٩:١٠٥، اربيري١، ص ٢١٩.

رجل الامام الثامن (الرضا) ان يصلي من اجله فأجاب الاخير "أولست أفعل؟ والله أنّ أعمالكم لتعرض عليّ في كل يوم وليلة". ومن ثم كرر السورة المذكورة آنفا دليل على قوله؟[1] ولقد صرح الإمام السابع (موسى الكاظم) "ان الله عز وجل، غضب على الشيعة، فخيرني نفسي، أو هم، فوقيتهم بنفسي"[2]. يوجد هذا الحديث في فصل (كتاب الحجة) الذي يؤكد على معرفة الائمة بكل الاحداث حتى قبل وقوعها. ان الكلمة العربية (وقى) تعني الحماية من شيء ما، لذا فان الامام سمح لغضب الله ان يقع عليه بدلاً من اتباعه. ولسوء الحظ فان هذه القصة تقدم معنىً ملتبساً للخلاص الا ان الفكرة كما نراها تتضمن في اكثر من الادب الذي نناقشه في هذا الفصل.

٦-٢ يوم العطش الكبير

يعد حوض الكوثر رمزاً ملموساً لمكافآت وامتيازات العائلة المقدسة، وتعبيرا للخلاص النهائي لعذاباتهم، لذا فان حوض الكوثر هو نقيض بيت الاحزان. سيغسل ماؤه دماء ودموع الشهداء ليس لآل البيت فقط، بل لكل من مات في سبيل الحق او الذين اختاروا ان يكونوا في بيت الاحزان خلال اقامتهم الارضية. وقبل ان ندرس دور النبي وزوج ابنته أمير المؤمنين، كأسياد لربيع الجنة، فاننا سنلقي الضوء الى حد ما على قصة مثيرة تصف حوض الكوثر بلغة درامية حية.

ان الكثير من القصص التي ذُكرت في الفصول السابقة لهذه الدراسة ترتبط بزيارة قبر الحسين التي تهدف الى جذب الاتباع الاتقياء للائمة بوعدهم بمتع تفوق الخيال في الجنة مكافأة لهم على جهودهم. ان القصة

(١) الكليني، الكافي، المجلد الاول، ص ٣١٩.

(٢) م.ن، المجلد الاول، ص ٣٨٦.

التي سنقوم بشرحها تعد ايضاً بمتع مثيرة لاؤلئك الذين يؤدون فرائض الحج المقدس او لأولئك الذين لا يتمكنون من الحج لكنهم يرغبون في اقامة مجالس الحزن على ذكرى الامام الشهيد في كربلاء. ففي حوار طويل بين الامام السادس جعفر الصادق ومسمع الذي يبدو انه رجل بارز في خدمة السلطة العباسية وأحد الاتباع المخلصين للامام، حيث سأل الامام الرجل اذا كان يزور قبر الحسين مراراً، فأجاب مسمع انه كان رجلاً معروفاً لذا كان يخاف من انتقام السلطات منه. الا انه كان يتذكر استشهاد الامام الحسين ويحزن له حتى ان حزنه كان يبدو جلياً على وجهه. فأخبره الامام ان دموعه ستكافأ في يوم القيامة عندما يرى الامام على الحوض ستكون فرحته لا حدود لها. ومثل كل الاشياء في هذه الخليقة فان الحوض ليس مجرد ينبوع ماء بل شخصية حية بمشاعر انسانية وعواطف انسانية. لذا فان الامام اول ما أكد على ان "وإنّ الكوثر ليفرح بمحبّنا إذا ورد عليه حتى انّه ليذيقه من ضروب الطعام ما لا يشتهي أن يصدر عنه"[1]. وعلى الرغم من ان حوض الكوثر هو مجرد ينبوع ماء الا أننا هنا نجده مصدرا واهبا للحياة لكل المأكولات والمشروبات. واستمر الإمام بسرده الواحد مؤكدا ان كل من يشرب من مياهه فلن يعطش ثانيةً الى الابد. ومن ثم يمضي الى وصف الحوض نفسه: "وهو في برد الكافور وريح المسك وطعم الزنجبيل، أحلى من العسل وألين من الزبد، وأصفى من الدمع، وأذكى من العنبر، يخرج من تسنيم[2] ويمرّ بأنهار الجنان، يجري على رضراض الدرّ والياقوت، فيه من القدحان أكثر من عدد نجوم السماء، يوجد ريحه من مسيرة ألف عام، قد حانه من الذهب والفضة وألوان الجوهر، يفوح في

---

(١) ابن قولويه، ص ١٠٢.

(٢) انظر للهامش ١٧ آنفا.

وجه الشارب منه كل فائحة حتى يقول الشارب منه: يا ليتني تركت هاهنا لا أبغي بهذا بدلاً ولا عنه تحويلاً»[1].

ومن ثم أكد الإمام لصديقه وطمأنه انه سيكون ضمن أولئك الذين سيشربون من الحوض. اما بقية القصة فتصف علي واقفاً قرب الحوض مقدماً لصديقه ليشرب من مائه بينما يرد أعداءه عطشى.

ان مبدأ الخلاص من خلال الايمان وليس العمل هو شيء مألوف في المسيحية والديانات الاخرى. ففي المسيحية نجِد اصرار القديس بولس على هذه الفكرة وبعد عدة قرون، نجد ايضا افكار مارتن لوثر، هذان أنموذجان جديران بالدراسة. كما ان هناك حماسة دينية متقدة اكثر نراها في البوذية اليابانية في صيغة نامبوتسو للايمان في اميدا بوذا[2]. اما الاسلام فيضع تأكيداً متعادلاً بين الاعمال والايمان. ان الايمان في نظر العديد من اللاهوتيين المسلمين، هو في الوقت نفسه قبول في القلب وعمل في الأطراف[3]. اما المذهب الشيعي فقد تم التركيز فيه بشكل كبير إلى جانب قبول القلب.

ان العديد من القصص التي تمت دراستها، تعادل الحب للعائلة المقدسة مع الايمان بالله والكره لهم بمثابة الكفر[4]. ذلك ان قبول ولاية الائمة هو

---

(١) ابن قولويه، ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) و.ت. ديباري، طبعة المصادر اليابانية التقليدية، (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٥٨)، المجلد الاول، ص ٢٠٤ وخاصة ٢٠٦-٢١٢.

(٣) انظرالدراسة المستنيرة لد ت.ايزوتسو، مفهوم الايمان في اللاهوت الاسلامي" (يوكوهاما: مطبعة يوريندو للنشر، ١٩٦٥)، ص١٦٦.

(٤) انظر الفصل الثاني أعلاه، ولاحقا في هذا الفصل.

جزء من الايمان في وحدة الخالق، وان رفضها هو خطيئة عظيمة مثل اشراك بقية الالهة مع الله. اما بقية الخطايا يمكن ان تغتفر من خلال شفاعة الائمة، وفي الحقيقة فان الائمة والحسين ولاسيما هم الشفعاء لكل الخاطئين في المجتمع الاسلامي من الذين يقبلون ولايتهم والمشاركة في عذاباتهم.

وفي قصة[١] توصف بها احداث يوم الدينونة، على ان الانسانية جمعاء ستجلب من اجل الحساب الاخير و سيقف الرجال حفاة الاقدام وعراة تحت شمس الصحراء الحارقة في مكان التجمع (المحشر). وسيبقون واقفين حتى يسيل عرقهم مثل الجداول وغير قادرين على التنفس بسبب التعب والعطش. واخيراً سينادي صوت من العرش الالهي "أين النبي الامي؟... أين نبي الرحمة محمد بن عبد الله؟" وسيتقدم الرسول على الجميع حتى يقف على الحوض الذي يبلغ طوله مثل المسافة بين اليمن ودمشق. وينادى على علي ليقف مع الرسول على الحوض الكبير وسيمر كل الرجال امامه وسيعطون شربة ماء وسيرد كثيراً عن الشرب منه.

الإمام الخامس يذهب الى القول بان الرسول عندما رأى بين اولئك الذي منعوا من شرب الماء بعضاً من الذين كانوا يحبون آل البيت فكان يبكي ويتعجب "يا رب شيعة علي شيعة علي". ومن ثم سيرسل الله ملاكاً ليسأل الرسول عن سبب بكائه وسيجيب الرسول: "وكيف لا أبكي واناس من شيعة علي بن أبي طالب أراهم قد صرفوا تلقاء أصحاب النار ومنعوا من ورود حوضي" وسيقول له الله "يا محمد [إني] قد وهبتهم لك وصفحت لك عن ذنوبهم وألحقتهم بك ومن كانوا يتولونه من ذريتك

(١) هذه القصة قد رويت في زمن الإمام الخامس، انظر الطوسي، امآلي، المجلد الاول، ص ٦٥.

وجعلتهم في زمرتك وأوردتهم حوضك وقبلت شفاعتك فيهم وأكرمتهم بذلك»[1].

نرى في هذه القصة ان النبي يتدخل من اجل الخطاة من شيعة علي. وهناك العديد من القصص التي تصور علي ليس شفيعا فقط بل قاضياً قاسياً أيضا. في مثل هذه التقاليد يمكننا أن نستشف كل المرارة والكراهية الانتقامية والإحباط التي يمكن ان يحملها المجتمع المضطهد. ان تصاعد الاحباط السياسي والفشل قد وجدت تجسيدها الحقيقي في شخص أمير المؤمنين علي بن ابي طالب. ففيه وجد المجتمع مثله الاعلى في القوة والنموذج السياسي وكل فضائل البطل. سننهي هذا القسم بسرد قصة تصف أمير المؤمنين على حوض الكوثر مبعِداً اعدائه بعصا السلطة المطلقة والانتقام.

ان الحوار الذي يدور بين الامام السادس جعفر الصادق ومسمع يشير، اكثر من جميع القصص الاخرى، الى السعادة التي يظهرها الانسان المتالم في رؤية العقاب والتعذيب الذي سيعاني منه اعداء آل البيت في الحياة القادمة. وان اقرب خط مواز لهذه القصة في الانجيل هو الصور المخيفة التي يقدمها الكاتب في رؤيا القديس يوحنا. وفي الحقيقة، فان المقارنة بين القصص التي نقوم بدراستها وكتب الوحي سيكون مفيداً جداً.

يبدو انه مهما يكن فحوى القصة الدينية، فان المجتمع الذي يعيش هذه الرسالة يجب ان يجد طريقة لتعزيز الامل والثقة الضرورية لاعضائه لتحمُّل الصعوبات والآلام التي يعانون منها كأقلية دينية سياسية. ويجد هذا المجتمع عزاءه ليس في المكافأة على العذابات التي يتلقوها فقط، بل أيضا في اللعنة الابدية التي تحل على اعدائهم. وبما ان احداث رؤيا القديس يوحنا

(١) الطوسي، امآلي، المجلد الاول، ص ٦٥.

وغيبيات الامام الشيعي الثاني عشر المهدي، تقع خارج حدود الواقع الحالي إذ لا ينفع ندم ولا توبة، ولا يمتد الحكم والخلاص جنباً الى جنب. ميزة الابتهاج هذه في كلا الجانبين، القضاء القاسي لله والحماسة الرقيقة للمؤمنين في السعادة القادمة، تبدو انها مألوفة في الادب الرؤيوي للقصص اليهودية المسيحية الاسلامية. وسيتعين علينا قول القليل قبل ان ننهي هذا النقاش.

ان الوصف الطويل والصوري لحوض الكوثر يهدف الى اثارة شوق المؤمنين للبركة الكبرى التي تنتظرهم كحماسهم لقضية الامام الشهيد وسلالته المظلومة. لذا فان الامام السادس يؤكد ان كل العيون التي تهدر الدموع من اجل آل البيت فانها ستبارك برؤية الكوثر، وانه كلما كان الحب الذي سيظهره المؤمن لآل البيت كبيراً، كلما ستزداد سعادته على الحوض. وأخيراً فان الامام الصادق يصف علي بن ابي طالب مسيطراً على الحوض الكبير.

"وإنّ على الكوثر أمير المؤمنين وفي يده عصا من عوسج يحطّم بها أعداءنا فيقول الرجل منهم: إنّي أشهد الشهادتين، فيقول: انطلق إلى إمامك فلان فاسأله أن يشفع لك، فيقول: تبرّأ منّي إمامي الذي تذكره، فيقول ارجع وراءك فقل للّذي كنت تتولّاه وتقدّمه على الخلق فاسأله إذا كان عندك خير الخلق أن يشفع لك فإنّ خير الخلق حقيق أن لا يردّ إذا شفع، فيقول: إنّي أهلك عطشاً، فيقول: زادك الله ظمأً وزادك الله عطشاً".(1)

ومثلما قُتِل الائمة هنا في الارض بدم بارد فستكون لهم السعادة برؤية

---

(1) ابن قولويه، ص ١٠٤.

اعدائهم يتلقون عقاب السيف بأضعاف مضاعفة. وفي الصفحات الباقية من هذه الدراسة سنتابع المشاهد الختامية لهذه الدراما حتى نهايتها إمام العرش الآلهي. وسنتحقق باختصار مكانة المؤمنين المخلصين للائمة في هذه الدراما الخلاصية واخيراً نهاية مهمة الائمة بأكملها وبها يختتم تاريخ الخليقة بعودة المهدي المنتقم العظيم، رجل السيف.

٦-٣ البقية المؤمنة(١)

لطالما أكدنا في هذه الدراسة الهوية الجوهرية لقدر وسعادة الائمة واتباعهم. فبقدر ما شارك المجتمع في عذاب العائلة المقدسة هنا على الارض فانه سيشارك في المكافآت العظيمة من شفاعة الرسول واعضاء بيته (اهل البيت) في اليوم الاخير. كما ان الطغاة على الشعب المختار من الله ورسوله سيشارك في القدر الفظيع نفسه مثل أولئك الذين تلطخت أيديهم بدم الحسين المقدس والعديد من خلفه(٢).

ان القصة المنسوبة الى علي بن الحسين ـ التي أشرنا إليها ـ مراراً في هذه الدراسة، تصف صورياً مكافأة الزوّار المؤمنين للضريح المقدس في كربلاء. وسيسبقهم عدد غير معروف من الملائكة في القبر المقدس وسيسألوا الله ان يغفر لهم ذنوبهم. "ويوسِمون في وجوههم بِميسم نور عرش اللهِ: هذا زائر

(١) هذه العبارة هي مستعارة من النبي اشعياء حينما وصف الشعب الصغير المؤمن الذي يقف بوحدته بوجه الإحداث الكارثية. نحن نعتقد إن العبارة المناسبة للمجتمع الشيعي من وجهة النظر في تحقيقنا. انظر إلى اشعياء ١٠ : ٧-١٧، ٢٠ : ١٠-٢٣.

(٢) انظر لاهتمام الاحاديث المهمة التي تتناول استشهاد زيد ابن علي بن الحسين، وكذلك سجن ونفي واستشهاد الآخرين من أحفاد علي وفاطمة في الخوارزمي، المجلد الثاني، ص ١١٢، ابن شهراشوب، المجلد الثاني، ص٥٥.

قبر خَيرِ الشُّهداء وابن خيرِ الأنبياء"[1].

وفي يوم الحساب سيشع نور في وجه الزوّار ومن خلال هذا النور سيتم التعرف عليهم. و سيقوم النبي وعلي مع جبرائيل وميخائيل بجمع هؤلاء الناس وانقاذهم من رعب الجحيم وقيادتهم الى جنائن الجنة.

لقد لاحظنا في الفصل الرابع قصة مثيرة منسوبة الى الامام السادس التي تناقض حقيقة استشهاد الحسين. فهي تصفه جالساً على عرشٍ من الاحجار الثمينة على جبل الرضوة بالقرب من مكة بصحبة الانبياء الأوائل منتظراً قدوم المهدي[2]. ان هذه القصة قد تكون قيلت على اساس قصة قديمة اخرى ومثيرة ايضاً للحظوات الكثيرة التي ستعطى لاتباع الائمة حيث سيجلسون حول الامام الحسين في موكب عظيم، لا يوجد هناك اشارة زمنية لهذه القصة الا انه قد يكون في يوم القيامة. ومن الجدير بالملاحظة ان القصتين كلتيهما منسوبتان الى الامام جعفر الصادق وقد قيلت على ذمة المفضل ابن عمر الجوفي. كان الجوفي شخصية متناقضة من بين تلاميذ الامام السادس، فبعض الناس يصفونه بأنه منحرف متطرف واحد اتباع ابي الخطاب وهو تلميذ سيء السمعة بينما يمدحه اخرون لتقواه وبأنه شخص جدير بالثقة[3].

توضح القصة الآتية ان الحجاج الى ضريح كربلاء ستخدمهم الملائكة وتطعمهم من طعام الجنة. ومن ثم يستطرد الامام الى تعجب المفضل بقوله له "يا مفضّل أزيدك؟" ويستمر الامام :

---

(١) ابن قولويه، ص ٢٦٧.

(٢) انظر الفصل الرابع، والطبري، دلائل، ص ٧٨.

(٣) انظر على سبيل المثال ملاحظات المجلسي٥٣، ص ٢.

"كأنّي بسَرير مِن نور قد وُضِعَ وقد ضُرِبَتْ عليه قُبَّةٌ مِن ياقوتةٍ حَمراء مُكلَّلَة بالجواهر، وكأنّي بالحسين جالس علَى ذلك السَّرير وحَوله تسعون ألف قبّة خَضراء، وكأنّي بالمؤمنين يزورونه و يسلّمون عليه، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ لهم : أوليائي سَلوني فطال ما أُوذيتم وذللتم واضْطَهَدْتمُ، فهذا يوم لا تسألوني حاجةً مِن حَوائج الدُّنيا والآخرة إلّا قضيتها لكم، فيكون أكلهم وشربهم في الجنّة، فهذه والله الكَرامة الَّتي لا انقضاء لها، ولا يُدْرَك مُنتهاها"[١].

لقد لاحظنا سابقاً في نقاشنا عن طقوس الزيارة انه من خلال الائمة سيجعل الله المطر ينزل وتنبت الارض الفواكه ويزول الشر والظلم. ان مكانة المؤمنين في الحفاظ على النظام الكوني للاشياء يجري تأكيده في عدة قصص منسوبة الى الرسول والائمة. وفي قصة منسوبة الى الرسول يتنبأ فيها بموت الحسين على أيدي الرجال الاشرار الفاسدين في حوار قصير مع فاطمة.

"وتأتيه قومٌ مِن محبّينا ليس في الأرض أعلم بالله ولا أقوم بحقِّنا منهم، وليس على ظَهر الأرض أحدٌ يلتفت إليه غيرهم، أُولئك مصابيح في ظلمات الجَور، وهم الشُّفعاء، وهم واردون حوضي غَداً، أعرفهم إذ أوردوا عليَّ بسيماهم، وأهل كلِّ دين يطلبون أئمّتهم وهم يطلبوننا ولا يطلبون غيرَنا، وهم قِوامُ الأرض بهم ينزل الغَيث"[٢].

هذه النخبة من المجتمع الاسلامي والانساني تحتل مكاناً وسيطاً بين الله والائمة والجنس البشري. فهم المعذبون من الصالحين الذين من خلال

---

(١) ابن قولويه، ص ١٣٥.

(٢) ابن قولويه، ص ٦٨-٦٩.

حظوتهم تظهر رحمة الله. قد نلاحظ ان ظاهرة الجماعة المختارة من أولياء الله وخدامه المخلصين، هي ظاهرة معروفة في التاريخ الروحي للانسانية. وليس علينا إلا أن نذكر الأمة المقدسة في اسرائيل القديمة، وسانغا البوذية أو مجتمع الرهبان، وشِركة القديسين في الكنيسة المسيحية، والجسد المقدس لمُخَلِصِ المصلوب. ففي هذه وغيرها من القضايا نستطيع ان نتبين دوراً مماثلاً لذلك الذي يطالب به الائمة لشيعتهم من المخلصين. هؤلاء المختارون هم علامة محبة وحكمة إلآهية، فهم المقياس الذي يقاس به مدى فساد وصلاح المجتمع. وسيقفون وحدهم شهوداً على الحقيقة والمحافظين عليها. وكمكافأة لعذابهم وثباتهم "فانهم سيرثون الارض"(١). انهم الجماعة المُخَلَصَة، وبطريقة ما، من خلال معاناتهم وحظوتهم عند الأئمة، فإنهم سيؤدون دوراً مهماً في الاتمام النهائي لتاريخ الانسانية (تاريخ الخلاص). ان هذه البقية المقدسة ستجعل البشر جزءاً من الجيش المنتصر للمهدي. وسنعود الى المهدي ومؤيديه لاحقاً لكن في البداية يجب ان نضع أم الامام الحزينة بنظر لاعتبار.

٦-٤ فاطمة: سيدة يوم الحساب

بالنقيض مع العنف الذي تتميز به الدراما الطويلة من العذاب والانتقام التي نحن بصددها، تقف فاطمة الام الحزينة محتملة كل عذاباتها بصبر وشجاعة. كان سلاحها الوحيد هو الدموع التي كانت هنا على الارض مصدراً للحزن واحراجاً لأهل المدينة، واما في الجنة فما زالت دموعها تأجج حزن وغضب الكائنات السماوية وغضب الله نفسه. ان الله

(١) انظر للقرآن١٠٥:٢١ و ٥:٢٨.

كما قيل لنا، غاضب لان فاطمة غاضبة وسعيد عندما تكون هي سعيدة ومرتاحة[1].

لقد لاحظنا سابقاً، في الفصل الثاني، ان فاطمة ستشارك الأئمة ليس في عذابهم فقط بل في مرتبتهم العالية مع الله. ان اسمها مثل الذي لوالدها، وزوجها وولديها، مشتق من اسم سماوي. وهكذا فهناك مكتوب على قائمة العرش السماوي أسم الله (الفاطر) أي الخالق وبجانبه اسم فاطمة كالرمز الارضي للقوة الالهية الخالقة. لقد اطلق الرسول على ابنته فاطمة (المفطومة) لان الله قد ابعدها[2] هي وسلالتها عن النار.

ان تحقير فاطمة واذلالها سيكافأ بما فيه الكفاية. فالفقر والحرمان الذي تحملته في الحياة سيقابل بمجد لا يمكن تصوره. فكل المخلوقات، الانسان والملائكة والجن سينبهرون بنورها الساطع حيث ستقف امام الله لتصدر الحكم على مضطهديها وتمنح الشفاعة لاؤلئك الذين يحبون آل البيت. ان سيدة بيت الاحزان ستكون سيدة يوم الحساب.

ففي حديث نبوي روي على ذمة مدون الحديث الشهير أبي هريرة، يقدم وصفاً واضحاً لدخول فاطمة الملوكي للحضرة الالهية: "إذا كان يوم القيامة، جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ثم نادى مناد من بطون العرش: ان الجليل جل جلاله يقول: نكسوا رؤسكم وغضوا أبصاركم فان هذه فاطمة بنت محمّد، تريد أن تمر على الصراط"[3].

(١) ابن شهراشوب، المجلد الثالث، ص ١٠٧.

(٢) كلمة "فاطمة" تعني فطم. وهكذا إنها سميت بفاطمة لان الله قد فطمها من النار. انظر للخوارزمي ١،ص ٥١.

(٣) الخوارزمي، المجلد الاول،ص ١٠٨.

وستجتاز فاطمة على الجسر الفاصل وهي تركب ناقة من نور متوجة بتاج من الجواهر على راسها. وعلى يمينها و يسارها ستكون محاطة بجموع غفيرة من الملائكة. وستنزل من الناقة وتقف امام الله مع قميص ابنها الشهيد الملطخ بالدم في يدها وستقول: "إلهي وسيّدي ومولاي، احكمْ بيني وبين مَنْ ظلمَني وقتلَ ولدي". وسيجيب صوت من العرش الآلهي، "يا حبيبتي وابنة حبيبي، سليني تُعْطَي، واشفعي تُشَفَّعي، فوَعزّتِي وجلالي لا يُجاوزَني ظلمُ ظالم"[١].

ستطلب فاطمة العقاب الآلهي على الظلم الذي عانت هي وابنها الشهيد منه. وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر السنية والشيعية فيما يتعلق بعذابها وسبب موتها، الا انهما يتفقان على حزنها العميق لموت ابنها وعن حقها في البحث عن الانتقام عند الله في اليوم الاخير من اولئك الذين ارتكبوا مثل هذه الجريمة بحق الله ورسوله[٢]. لذا ستقف فاطمة امام الله، اما بيدها قميص الحسين الملطخ بالدماء، او مع الامام نفسه جثة ولكن بدون رأس.

وفي حديث منسوب الى الامام الخامس (محمد الباقر) حيث قيل لنا: "فإذا كان يوم القيامة كتب بين عيني كل رجل مؤمن أو كافر، فيُؤمر بمحبّ قد كثُرت ذنوبه إلى النار، فتقرأ بين عينيه محبّاً فتقول: إلهي وسيدي! .. سمّيتني فاطمة، وفطمتَ بي مَن تولّاني وتولّى ذريتي من النار، ووعدُك الحقّ وأنت لا تخلف الميعاد، فيقول الله عزّ وجلّ: صدقتِ يا فاطمة، إني سميتك فاطمة، وفطمت بكِ مَن أحبك وتولّاك وأحبّ ذريتك وتولّاهم من النار، ووعدي الحقّ وأنا لا أخلف الميعاد، وإنما أمرت بعبدي هذا إلى

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) الخوارزمي، المجلد الاول، ص ٥٢.

النار، لتشفعي فيه فأشفّعك، ليتبيّن لملائكتي وأنبيائي ورسلي وأهل الموقف موقفك مني ومكانتك عندي، مَن قرأت بين عينيه مؤمناً فجذبت بيده وأدخلته الجنة»[1].

يوفر هذا الحديث واحداً من اوضح التعابير لمفهوم الخلاص في المذهب الشيعي. فمفهوم الشفاعة بشكل عام يفهم في الاسلام كضرورة لأولئك الذين عاشوا حياةً جيدة الا ان ميزانهم بين الخير والشر يميل نحو كفة الشر اكثر منه نحو كفة الخير. ان شفاعة الانبياء وأولياء الله مع الرحمة الالهية قد تفيد المؤمن المتجاوز أو الخاطئ. اما دور فاطمة الذي يصفه الحديث هو اكثر من شفيع. فقد منحت السلطة والقوة لابطال الحكم الآلهي. فهي لا تتدخل من اجل مؤمن الذي قد يخفف حكمه بل انها تخلص الخاطئ من عذاب النار. ومن المهم في هذا الحديث التعريف الواعي لحب آل البيت مع الايمان. فقد جعل الله يقول: «كل من تقراين بين عينيه كلمة «مؤمن»، بدلاً من النص القديم الذي يذكر بدلاً عن ذلك «محب».

لقد ناقشنا سلفاً في هذا الفصل الحكم الآلهي في عذاب واضطهاد عائلة محمد والمكافآت التي سيحصل عليها كل فرد من اعضائها في يوم الحساب. فستعوّض فاطمة عن عذاباتها وتحقيرها. وهكذا خاطب الله الرسول في ليلة رحلته السماوية. «اما عن ابنتك، فسأجعلها تقف بالقرب من عرشي حيث سيقال لها» انظري لقد اعطاك الله السلطة على خلقه وكل من اخطأ بحقك وحق اطفالك فيحق لك ان تحاسبيه كما تريدين وسيقبل الله بحكمك عليهم»[2].

(١) العامليي، جواهر، ص ٢٤٧.

(٢) ابن قولويه، ص٣٣٦.

وكل الجموع من الرجال والملائكة سيشهدون على اولئك الذين اخطأوا بحقها إذ سيجلبون امامها وستأمر بهم ان يلقوا في النار. وسيمتلأ الخاطئون بالندم عن جرائمهم ضد الله وأعضاء بيت النبي لرفض ولايتهم واتخاذ رجال آخرين أولياء لهم.

وبما ان فاطمة كانت اول من عانى من الظلم من بعد النبي، هكذا سيكون خلاصها الاخير خاتمة لدراما الاحزان والعذاب لآل البيت. غير أن خلاصها سيتضمن خلاص زوجها واحفاده. ولقد قيل ان الرسول قد وصف هذا الفصل الاخير من هذه الدراما : "إذا كان يوم القيامة جاءت فاطمة في لمّة من نسائها، فيقال: ادخلي الجنّة. فتقول: لا أدخل حتّى أعلم ما صنع بولدي من بعدي؟ فيقال لها: أُنظري في قلب القيامة. فتنظر إلى الحسين قائماً، و ليس عليه رأس، فتصرخ صرخة، و تصرخ الملائكة لصراخها. فيغضب اللهَ عزّ وجلّ، فيأمر ناراً يقال لها: هبهب قد أوقدت منذ ألف عام حتّى اسودّت... فيقال لها: التقطي قتلة الحسين صلوات اللّه عليه و حملة القرآن (أي الناس الذين قاتلوا علي في معركة صفين)"[1].

وفي رواية أخرى لهذا الحديث نرى ان الحسين قد تحول امام عيني فاطمة الى افضل الاشكال. اما قاتليه واؤلئك الذين شاركوا في سفك دمه فسيجلبون امام الله من اجل القضاء الاخير. فسيقتلون ويحيون حتى يقتلهم كل امام مرة واحدة. ويختتم الامام السادس، "...ومن ثم سيهدأ الغضب وستنسى كل الاحزان."[2] ان الحلقة الاخيرة من الانتقام يجب ان يسبقها

---

(١) ابن بابويه، ثواب، ص ١٩٦، لصيغة اخرى من هذا الحديث انظر ابن طاووس، لهوف، ص ٧٧-٧٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٥.

مرحلة استعادة للكون هنا على الارض حيث سيمنح الامام الثاني عشر السلطة الكونية. لذا سنختتم هذا الفصل بتحقيق عن مهمته التي ستكون الدليل او المدخل لانتهاء التاريخ البشري.

٦-٥ المهدي، المنتقم الاخير

"هوذا يأتي مع السحاب، وستنظره كل عين، والذين طعنوه، وينوح عليه جميع قبائل الأرض"[١]

ان التاريخ الطويل للائمة قد بدأ حتى قبل زمان الخلق. فقد كانوا ـ حسب المذهب الشيعي ـ موجودين مع الله منذ البدأ ككلمته وروحه. اما علي الامام الاول، في عظة طويلة رويت على ذمة حفيده محمد الباقر: "إن الله تبارك وتعالى أحد واحد تفرد في وحدانيته، ثم تكلم بكلمة فصارت نورا، ثم خلق من ذلك النور محمدا صلى الله عليه واله وسلم وخلقني وذريتي، ثم تكلم بكلمة فصارت روحا فأسكنه الله في ذلك النور وأسكنه في أبداننا فنحن روح الله وكلماته، وبنا احتجب عن خلقه"[٢].

ان هذا الحديث يستمر في التأكيد ان الائمة كانوا مخبئين في ظلة خضراء، تمجد اسم الله قبل ان يكون هناك الشمس والقمر والليل والنهار. لذا فإن الائمة هم الرمز الآلهي الحقيقي الذي سبق الخليقة ومن خلالهم ولاجلهم خلق كل شيء.

ان الائمة مجتمعين يمثلون دور المسيح، بالنسبة للمجتمع الشيعي. فكل واحد منهم يجسد جانب او عدة جوانب بما يشبه الشخصية المسيحانية.

(١) سفر الرؤيا ٧:١.

(٢) المجلسي٥٣، ص ٤٦.

فعلى الارض كان الحسين تجسيداً للشهيد المتالم، بما يعكس صورة المسيح في آلامه. والمهدي في شخصيته ورسالته يعكس صورة المسيح الديان المنتصر، المسيح الذي سيأتي على غيوم السماء والذي ينتظر الناس عودته بشوق كبير. وان زمن غيبته واختفائه هو زمن مخاض ومشقة، مدة يسود فيها الانحلال الذي يجب ان يسبق العودة الاخيرة. واخيراً ومثل عودة المسيح الثانية فان ظهوره الثاني او رجعته ستكون وقت خوف وندم إذ سيتشتت الجميع وتسود الفوضى العامة. وسيتبع كل هذا فترة طويلة من السلام، الرخاء والانتصار النهائي للحق على الباطل حتى يسود العدل المساواة الى الابد. وهكذا ينسب الى الرسول قوله: "لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله عز وجل ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلاً من ولدي كنيته كنيتي... وسيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً" (١).

ان الادب الذي يتعامل مع المهدي، ميلاده غيبته وعودته هو أدب واسع ومعقد(٢). لذا سنناقش فقط بعضا من مختارات الاحاديث لإعادة بناء التاريخ التسلسلي للإمام. ان شخصية الامام الغائب قد اغنت المذهب الشيعي بتربة غنية لاروع القصص الخيالية. وبالفعل فان بعض هذه الأحاديث ولاسيما تلك التي تتعلق بعودته كانت في كثير من الاحيان مصدراً للاحراج للعلماء الشيعة والمحدثين. اما بالنسة لهدفنا فان هذه

(١) رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن محمد ابن طاووس البغدادي (المعروف بابن طاووس)، كتاب الملاحم والفتن، (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٦٨ هجرية)، ص ١٠٣.

(٢) لدراسة متكاملة عن المهدي انظر أطروحة عزيز ساجدينا، (جامعة تورينتو، كندا، ربيع ١٩٧٦).

الاحاديث تظهر بالفعل المذهب الشيعي، آماله وخيبة امله ورؤيته لمستقبل افضل. لذا فاننا لن نلزم انفسنا بالسؤال عن مدى مصداقية هذه الاحاديث وقبولها. وفي الوقت نفسه لا نريد ان نضمن ان كل هذه الاحاديث تمثل رسمياً الاعتقادات الشيعية. وسنشير عندما يكون ضرورياً الى الاعتراضات الشديدة او التوافق على صحة هذه الاحاديث والاشخاص الذين رويت هذه الاحاديث على ذمتهم.

لقد اكدنا سابقاً ان الائمة في الجماعة الشيعية الاثني عشرية يقفون في نهاية الخط الطويل للانبياء وممثليهم. حتى الرقم ١٢ المستخدم هو رقم معياري، رقم أوصياء كل نبي رئيس. بالاضافة الى ذلك فان كل نبي وكبار ممثليه لديهم وقت معين للغيبة، فترة اختبار لمجتمعهم وسبباً لتكوين الحكم الآلهي ضد اعدائه[١]. هناك سبب آخر لأختفاء بعض الانبياء وهو التهديد لحياتهم من الحكام الاشرار. ان مجئ المهدي في نهاية التاريخ البشري سيكون لتحقيق مهمة كل الانبياء من قبله وزمن خلاصهم النهائي.

ان النبي الاخير محمد، والائمة من بعده قد اعلنوا مجيء المهدي، فالاحاديث المنسوبة الى الائمة تظهر جواً من التوقع النافذ الصبر من جانب المجتمع. يذكر الكليني أن عبد الملك ابن أعين وهو تلميذ للامام الخامس قد قال: "قمت من عند أبي جعفر (الباقر) فاعتمدت على يدي فبكيت" فسأله الامام عن سبب بكائه فأجابه عبد المالك "كنت أرجو أن أدرك هذا الأمر (عودة المهدي) وبي قوة" فأجابه الامام بغضب "أما ترضون أن عدوكم يقتل بعضهم بعضاً وأنتم آمنون في بيوتكم، أنه لو قد كان ذلك اعطي لرجل منكم قوة اربعين رجلا، وجعلت قلوبكم كزبر الحديد، لو

---

(١) ابن بابويه، إكمال، الفصل المعنون بـ غيبة الأنبياء، ص ١٢٥.

قذف بها الجبال لقلعتها، وكنتم قوام الأرض وخزانها"[1].

يصور هذا الحوار بصورة جيدة وضعية الأئمة في المدة ما بين موت الحسين وبدء غيبة الامام الثاني عشر. ففي نظرنا، ليس هناك شك، ان كل الائمة واتباعهم كانوا يتوقعون عودة منتصرة للامام الغائب الذي سينتصر وسيستعيد القوة لنفسه ولجماعته فيحقق ما كان قد فشل في تحقيقه الحسين. هذا الشكل من التوقعات ممكن ان يكون خطيرا جدا، لذلك توجب على الأئمة الحفاظ على ديمومة هذا الأمل من دون تأجيج حماسة أتباعهم إلى تمرد مسلح.. لذا كان عليهم ان ينشئوا للمهدي معتقدات لاهوتية وميتافيزيقية اكثر تعقيداً. فميلاد المهدي وغيبته وعودته تتجاوز بكثير قدرة فهم أي انسان، لا بل كان محرماً على اتباع الائمة البحث في هذه الاشياء. ولم يكن بالامكان ذكر اسمه، بل كان على الرجال ذكر لقبه (القائم) (حجة آل محمد) (صاحب الزمان) وبالطبع (المهدي)[2].

وكما هو الحال بالنسبة للائمة من قبله فيقال ان ولادته كانت عجائبية. فقد ولد في اليوم الثامن من شعبان من عام ٢٥٥ للهجرة[3] (٨٦٩ م). وخرج من رحم أمه ساجداً في وضع الصلاة، نقياً ومختوناً رافعاً صوته بالشهادة. ولقد اخذه والده بين يديه ومرر يده فوق فمه وعينيه واذنيه وقال له "تكلم يا ابني" فذكر الامام اسماء كل الائمة من علي الى نفسه وصلى من

(١) أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحق الكليني الرازي، روضة من الكافي، طبعة علي اكبر الغفاري (طهران: المكتبة الإسلامية، مطبعة حيدري، لا يوجد تاريخ)، ص٢٩٤؛ انظر ايضا المجلسي ٥٢، ص ١٢٢، ٢٧٩.

(٢) انظر الفصل المعنون بـ "القابه وأسمائه و كنيته" في المجلسي ٥١، ص ٢٨.

(٣) بحسب بعض المصادر المبكرة، ولد في ١٥ شعبان ٢٥٦ هجرية/ ٨٧٠ ميلادية، وللعديد من التقاليد المتعلقة بولادته انظر المجلسي ٥١، ص ٣.

اجل الفرج لجماعته الذي سيكون على يديه[1]. ونما الرضيع بسرعة عجيبة إذ توفي والده وبعد اقل من خمس سنوات وصل الصبي الى مرحلة البلوغ ليحمل مهمة الامامة. ان مرحلة طفولته تذكرنا بتلك لموسى والمسيح. فعلى شاكلتهم أُبقي ميلاده سراً ماعدا بعض المختارين ليعرفوا بذلك. وبعد اربعين يوماً من ولادته ومثل موسى[2] أخذ بعيداً من قبل الملائكة عائداً فقط من اجل بعض الزيارات القصيرة لمدد متفرقة من هذه الاربعين يوماً. عندما جاءت احدى العمات لتسأل عن الطفل المبارك أجاب والده "يا عمّة استودعناه الذي استودعته أمّ موسى"[3].

وفي أحاديث قديمة تعلل سبب غياب الطفل الى بحث كبير قامت به السلطات العباسية لاي وليد ذكر للامام الحادي عشر. وكانت الخطة تقتضي قتل هذا الطفل عندما يُعثر عليه وهكذا يتم قطع سلالة الائمة[4]. وربما تم التلميح الى هذا الخوف في الحديث الذي يؤكد ان الام الشابة للامام الثاني عشر لم تظهر أي علامة على الحمل[5]. وكانت الام مسيحية اخذت أسيرة في الحملة الاسلامية على الاراضي البيزنطية. ان اسيرة الحرب المجهولة هذه قد مُنحت مكانة مجيدة في التاريخ الكوني للسلالة النبوية، إذ كان اسمها نرجس، وإنها كانت حفيدة الامبراطور البيزنطي.

---

(١) المسعودي، إثبات، ص ٢٤٩، لمناقشة وافية، انظر المجلسي ٥١، ص ٣.

(٢) عن وجهة النظر الشيعية لطفولة موسى، انظر ابن بابويه، إكمال، ص ١٥٠-١٥١.

(٣) المسعودي، إثبات، ص ٢٥١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٩؛ والكليني، كافي، المجلد الاول، ص ٤٤٩-٤٦٨.

(٥) المسعودي، إثبات، ص ٢٤٩.

وقبل أسرها بمدة طويلة زارتها فاطمة، الام الجليلة لكل الائمة، واعطتها تعاليم الدين الاسلامي واعدتها للدور الكبير الذي ستؤديه. واخيراً قام المسيح ومحمد وتلامذتهم شمعون الصفا وعلي ظهروا الى الفتاة. وطلب محمد يدها من المسيح وقام علي وشمعون الصفا بدور الشهود على عقد الزواج. اما فاطمة والعذراء مريم فقد جاءتا لمباركة هذا الزواج المقدس. ومن ذلك الوقت كان الامام الحادي عشر حسن العسكري، زوج الفتاة المستقبلي، يأتي الى زيارتها كل ليلة في الحلم. وأخيراً أمرها ان تهرب من بلدها وان تسمح لنفسها أن تباع في سوق العبيد.

وبهذه الطريقة فان نسل الامام الثاني عشر اختلط مع الدم الملكي والنبوة. والاكثر اهمية من ذلك هو التضمين المباشر للمسيحية في المفهوم العام والتاريخ الاسطوري للائمة في الشيعة الاثني عشرية. ان العلاقة بين الامام المختفي والأنبياء الأوائل بما جاؤوا به من الوحي هو جزء أساس من عقيدة الإمام الشيعي. وفي المفهوم الشعبي كما سنرى لاحقاً ان هذه العلاقة تأتي تحديدا لهوية المهدي مع كل الانبياء من قبله.

لقد لاحظنا سابقاً ان كل نبي له فترة غيبة. لذا فان غيبة المهدي هي استمرار للممارسات القديمة (السُنن) للانبياء. فقد اخبر الإمام السادس احد تلاميذه يدعى سدير: "إن للقائم منا غيبة يطول امدها". فسأل سدير عن سبب ذلك فأجابه الامام: "لأن الله أبى إلا أن تجرى فيه سنن الأنبياء فى غيباتهم"[1]. ان غيبة المهدي مثل غيبة الانبياء الاوائل وتلامذتهم قد قضى بها الله وهو وحده الذي يعلم الحكمة من وراء قضائه هذا.

كان للمهدي غيبتين، الاولى منها كانت خلال مدة اتصاله مع الجماعة

(١) ابن بابويه، علل، ص ٢٤٦.

بوساطة ممثلين خاصين، اما الثانية فهي الغيبة الطويلة او الغيبة الكبرى التي ستستمر حتى عودته في نهاية العالم. وان الناس الذين يعيشون خلال تلك المدة من غيبته الكبرى يجب الا يسألوا عنها، بل يتوجب عليهم الصلاة من اجل رجعته. اما الكليني، احد المحدثين المشهورين، فقد تساءل عن غيبة الامام وفترتها والحكمة من ورائها. وجاءه الجواب من وكيل الامام الثاني محمد بن عثمان العمري بقوله له: "وأما علة ما وقع من الغيبة فإن الله عز وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾[1] إنه لم يكن لاحد من آبائي عليهم السلام إلا وقد وقعت في عنقه بيعة لطاغية زمانه، وإني أخرج حين أخرج، ولابيعة لاحد من الطواغيت في عنقي وأما وجه الانتفاع بي في غيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيبتها عن الابصار السحاب، وإنى لامان لاهل الارض كما أن النجوم أمان لاهل السماء"[2].

نصح الامام اتباعه ان لا يسألوا عن الاشياء التي لا تخصهم بل دعاهم للصلاة لكي يعجل الله في فرجهم.

وأكثر من كل الائمة الذين سبقوه، فان الامام الثاني عشر قد جسد مخاوف خيبة ألامل والتحقيق النهائي لكل آمال وتطلعات المجتمع الشيعي. وفي الحديث الذي ناقشناه آنفاً فان كل الائمة قبلهم كان عليهم ان يقدموا الموافقة الضمنية تحت الإكراه الى السلطة غير الشرعية من الحكام في ذلك الوقت. اما المهدي فسيكون حراً من قوانين مغتصبي السلطة لان الامام وحده فقط له الحق في ان يكون على رأس الجماعة[3]. ان سبب غيبته

(١) القرآن ١٠١:٥، اربيري، المجلد الاول، ص ١٤٤.
(٢) الطبرسي، احتجاج، المجلد الثاني، ص ٢٨٤.
(٣) ابن بابويه، علل، ص ٢٤٤.

القصيرة كانت تعزى للنبي نفسه لأنه كان خائفاً على نفسه من القتل[١]. بالاضافة الى ذلك فان الائمة قبله كانوا غالباً ما يتعرضون للخيانة على يد أتباعهم كما كانت الحال بالنسبة للحسن والحسين. لذا عندما يأتي المهدي فلن يكون هناك احد مذنب بهذه الجريمة العظيمة ضد ممثل الله ورسوله. بل ان الذين يقبلون بولايته خلال غيابه ولم يغيروا رأيهم أو يغلب عليهم الشك فانهم سيكافأون على صبرهم وثباتهم.

من الواضح من خلال العديد من الاحاديث القديمة ان الناس كانوا يتوقعون عودة المهدي خلال الحكم العباسي. ولقد نما هذا التوقع إذ بدأ الحكم العباسي بالضعف وانتشرت الثورات في عموم العالم الاسلامي. وعندما لم يتحقق هذا الامل بدأ التركيز على المستقبل المجهول. وعدّ ان زمن عودة المهدي كان سراً يحرسه الله ولا يعلمه الا هو. اما الاتباع المرتقبين للائمة الذين كانوا يتمنون ان يكونوا ضمن اولئك الذين يكونون جيش المهدي المنتصر، فقد قيل لهم ان امنيتهم الطويلة في ان يحوزوا على هذا التكريم ستكون كاؤلئك الذين حاربوا الى جانب القائم وماتوا معه. لذا فان الامام الرابع علي زين العابدين قيل انه قد وضح الى احد تلامذته أبي خالد الكابلي، ان الغيبة للامام الثاني عشر الممثل لرسول الله ستكون غيبة طويلة "يا أبا خالد إنّ أهل زمان غيبته القائلين بإمامته والمنتظرين لظهوره أفضل من أهل كلّ زمان لَانّ الله تبارك وتعالى أعطاهم من العقول والَافهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله بالسيف أولئك المخلصون حقاً وشيعتنا صدقاً والدعاة إلى دين الله عزّ وجلّ سرّاً وجهراً"[٢].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٢) الطبرسي، احتجاج، المجلد الثاني، ص ٥٠؛ المجلسي ٥٢، ص ١٢٢-١٢٣.

هناك حديث يروي عظة طويلة للامام الاول علي والذي يؤكد على ان كل مؤمن يموت ميتة طبيعية قبل مجيء المهدي سيقوم من الموت لكي يستشهد معه وهكذا ينال شرف الشهادة في سبيل الله. وكل أحد يقتل، وعلى الجانب الآخر، الذي قتل أيضا يبعث من جديد من أجل التمتع بالسلام والامان في عهد المهدي ويموت ميتة طبيعية بعد حياة طويلة[١].

ان عودة المهدي ستسبقها مدة طويلة من الفوضى والانحلال والذي سيستمر بشدة حتى يسود الارض كلها الشر والخطيئة. وان هذا التفسخ سيكون كاملاً وكونياً. ستكون هناك فوضى شاملة، اضطرابات سياسية، زنا، خطيئة وعدم اكتراث بمبادئ الدين. وستظهر في الطبيعة ظواهر الاضطراب والفوضى نفسها. وفي المراحل النهائية لهذا التفسخ ستكون العلامة للبقية المؤمنة القليلة بعودة المهدي وسيكونون الدليل على بداية عهد جديد. ان هذه الظواهر من التفسخ الكوني ستكون علامات عودة المهدي (الرجعة) على اساس انه كان سيعود بعد سقوط الدولة العباسية. وان مثل هذه التوقعات قد تكونت اما في زمن تلك الأحداث او بعدها بمدة قصيرة في استعادة للماضي[٢].

وهناك علامة اخرى ولكن غريبة وهو ظهور السفياني عثمان ابن عنبسة احد احفاد يزيد على رأس جيش كبير من دمشق. وبعد نشر الموت والدمار في الارض سيستمر الجيش في التقدم نحو مكة والمدينة لتدمير المدينتين ودحر

(١) الطبرسي، احتجاج، المجلد الثاني، ص ١٢٤-١٢٥.

(٢) هكذا ينقل المفيد (المتوفي سنة ٤١٣ هجرية/ ١٠٢٢ ميلادية)، على ذمة ابن قولويه (المتوفي في سنة ٣٦٧ هجرية/ ٩٧٨ ميلادية)، الذي نقل على ذمة الكليني الذي يعود الى الإمام الخامس او السادس، والنزاعات الدامية في عائلة عباس على السلطة قبل مجيء المهدي. المفيد، المجلد الثاني، ص ٣٢٥؛ والمجلسي ٥٢، ص ١٩١.

المهدي. الا ان الله سيجعل الارض تبتلع الجيش بأكمله بينما هو في الصحراء. ان هذه النبوءة تظهر جيداً الأحداث التي كانت يجب ان تحدث في السنة الاخيرة من حكم يزيد القصير[(١)].

ان الأحداث السياسية ستكون جزءاً من الاضطراب العام في العالم فقط. فقد سأل رجل الإمام الخامس الباقر عن علامات عودة المهدي فأجابه الامام: "إذا تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وركب ذوات الفروج السروج، وقبلت شهادات الزور ورُدّت شهادات العدل، واستخف الناس بالدماء وارتُكب الزنا وأكل الربا"[(٢)].

وفي تلك الايام سيكون الدين مجرد اسم على شفاه الناس وسيصبح القرآن كلمات ميتة على الورق بدون معنى او تأثير على حياة الرجال والنساء. وسيظهر ٦٠ رجلاً خاطئاً يدعون النبوة[(٣)]. وسيظهر المسيح الدجال وسيقود الناس بأعاجيب كبيرة[(٤)]. وسيضل الكثير دربهم الا ان القلة المؤمنة من نخبة الله سيظلون ثابتين في ايمانهم.

ان هذه الاحاديث ليست سوى استمرار لتاريخ طويل من الرؤية الاسكاتولوجية (الاخروية) الانسانية. فهي تذكرنا بتحذيرات المسيح في

---

(١) يزعم بان يزيد كان قد أرسل جيشا كبيا ضد المدينة بقيادة مسلم بن عقبة. انظر ابن قتيبة، إمامة، ص ٢٠٩؛ المجلسي ٥٢، ص ١٨١.

(٢) ابن بابويه، إكمال، ص ٤٤٧، المجلسي ٥٢، ص ١٩٢.

(٣) المفيد، ص ٣٣٦.

(٤) قصة ظهور الدجال ومن بعده المسيح الذي سوف يصلي خلف المهدي ذكرت في اغلب المصادر الإسلامية الشعبية. اغلب الكتب الشيعية حول المهدي تذكر الدجال ولكنه يؤدي دورا بسيطا جدا، انظر المجلسي ٥٢، ص ١٨١.

يوم القيامة، ذلك انه قبل مجيئه الثاني سيظهر العديد من الانبياء الكذبة. وسيخون الاباء ابنائهم والابناء آبائهم. وستنقلب امة على امة. وعندما تظهر هذه العلامات الرهيبة فان مجئ ابن الانسان (ألمسيح الحقيقي) سيكون قريباً[١]. وهكذا عندما تختفي العدالة والطيبة الحق من الارض عندها سينقذ الله خلقه ويستعيد التناغم والنظام الى الابد.

ان هذه الفوضى العامة ستظهر في الطبيعة ايضاً. فستحبس الارض فواكهها والسماء امطارها. وستشرق الشمس من الغرب وتغيب في الشرق وستحدث الهزات الارضية في الشرق والغرب[٢].

وفي الاسلام كما في المسيحية وبقية الاديان الاخرى، فان هذه الرؤى للأيام الأخيرة هي جزء أساس من تاريخ الخلاص للانسانية[٣]. ان القائم بالنسبة لمسلمي الشيعة الاثني عشر سيأتي لينهي مهمة الحسين الشهيد الاعظم لكربلاء. لذا سيظهر القائم وحسب العديد من الاحاديث في يوم عاشوراء، اليوم الذي قتل فيه الحسين ابن علي[٤]. وسيظهر اولاً في مكة اقدس مدن الاسلام الا انه سيضع مقره في الكوفة حيث قتل علي ودفن، وسيكون كرسي القضاء للمهدي بالقرب من كربلاء حيث الضريح المقدس للحسين.

وكالمسيح وبقية المُخلصين فان المهدي سيخلص الإنسانية من الهلاك

(١) انجيل متى ٣: ٢٤-٣٣.

(٢) المفيد، ص ٣٢٨-٣٢٩؛ والمجلسي ٥٢، ص ١٨٢.

(٣) أمثلة الأخرى للاسكاتولوجية اليهودية ولاسيما المدة ما بعد التوراتية ومفهوم السوشيانت المخلص في المستقبل للزرادشت.

(٤) مثلا الطوسي، أمالي، المجلد الثاني، ص١٦٨؛ المفيد، ص ٣٤١؛ المجلسي ٥٢، ص ٢٨٥.

يبرز الشيخ المفيد ربما يعكس الافكار الاولى لمهمة المهدي، حيث يؤكد على ان القائم سيحكم لمدة سبع سنوات وكل منها تعادل عشرة من سنواتنا. وهكذا وبعد مدة حكم ٧٠ سنة سيموت المهدي وبعد اربعين يوماً ستقوم القيامة[(١)]. وستكون الفترة الاخيرة هي فترة النهاية حيث ستكون الدنيا بدون امام ولن تقبل أي توبة.

وتبعاً لهذا الحديث فانه المهدي سيحقق مهمته وسيرافق عملية القيامة الا ان المذهب الشيعي لن يقبل بأي غيبيات لا تتضمن الرسول وعلي وولديه الحسن والحسين. وخاصة عودة الحسين للانتقام لدمه فقد وعد بذلك مسبقاً. ذلك يظهر جليا في واحدٍ من اقدم المراجع والذي يتناول تفسير الآية القرآنية الآتية من قبل الإمام السادس: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[(٢)] حيث علق الامام "لم يكن إسماعيل بن إبراهيم بل إسماعيل بن حزقيل"[(٣)] وهذا النبي غير المعروف قد قيل انه عذب على ايدي الناس الذين سلخوا فروة رأسه ووجهه وتركوه يعاني من موت اليم بطيء. فارسل الله له ملاك العذاب الذي أُمر ان يستجيب لاوامر النبي في معاقبة اولئك الناس القساة. الا ان هذا النبي رفض هذا العرض الالهي للانتقام السريع وبدلاً من ذلك صلى قائلا "يارَبِّ إنّك وعدتَ الحسين أن تُكِرَّه إلى الدّنيا حتّى ينتقم بنفسه ممّن فعل ذلك به، فحاجتي إليك يا رَبّ أن تكرّني إلى الدُّنيا حتى أنتقم ممّن فعل ذلك بي"[(٤)]. ان هذا الحديث يتضمن كل العناصر الاساسية لقصص

---

(١) المفيد، ص ٣٤١-٣٤٢.

(٢) القرآن ١٩:٥٥، اربيري، المجلد الاول، ص ٣٣٤.

(٣) ابن قولويه، ص ٦٥.

(٤) ابن قولويه، ص ٦٥.

البطولات من عودة الحسين مع المهدي، العناصر التي حيكت في بعض القصص الرائعة.

وقصة اخرى معاصرة لتلك التي قصصناها تواً إذ نقرأ ليس عن عودة الحسين فقط بل ايضاً النبي وعلي والحسن. وهنا يعدّ المهدي وبشكل واضح اولاً واساساً منتقما وثانوياً كالمسيح الذي على يديه سيحقق الله العدالة في الارض. وفي هذا الحديث فان النبي والائمة الثلاثة الاوئل قبل المهدي سيظهرون مع جمع غفير من الملائكة وكل الانبياء القدماء. ولقد قيل لنا انه في ليلة الجمعة عشية عودة المهدي فان الله سيرسل ملاكاً الى سماء هذه الارض. وقبل الفجر سيُعدّ الملاك منبراً من النور لمحمد وعلي والحسن والحسين قرب البيت المقدس في مكة. وستفتح ابواب السماء وكل الانبياء والمؤمنين وعدد لا يحصى من الملائكة سيلتحقون مع النبي وسلالته. وعند شروق الشمس سيتعجب النبي : "يارب ان وعدك الذي قمت به في كتابك ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾"(١).

وقبل ان ننظر بشكل مختصر مرة ثانية الى عودة الحسين ودوره الاخير في دراما انتهاء التاريخ الانساني، فسنحاول اعادة تركيب قصة عودة ظهور عهد المهدي. ان هذه الصورة التي سوف نتناولها قد تم رسمها من عدة احاديث مختلفة ومتناقضة في كثير من الاحيان. الا اننا سنحاول تقديم إطار لفعاليات المهدي واضعين في عين الاعتبار التسلسل التاريخي البسيط الذي لا يعطي اية اشارة على تعقيد المادة التي نرسم عليها(٢).

سيظهر المهدي في يوم عاشوراء. وقبل ستة أشهر من ظهوره في جمادى

---

(١) القرآن ٥٠ : ٢٤؛ اربيري٢، ص ٥٣.

(٢) المجلسي ٥٢، ص ١٨١-٣٠٦.

الثاني وخلال الايام العشرة الاولى من رجب فان السماء تمطر بشدة كما لم تمطر من قبل وبهذا المطر سيجعل الله اجساد المؤمنين تتبرعم من الارض. ويستمر الامام السادس الذي ينسب اليه هذا الحديث: "انني استطيع ان اراهم يسرعون الى المهدي بينما يمسحون التراب عن رؤوسهم"[١]. وسيلتحق ٣١٣ مؤمناً في البداية مع المهدي وهو عدد الشهداء في معركة بدر. وسيتكئ بظهره على حائط الكعبة قائلاً الايات القرآنية، ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢]. ومن ثم يطبق النص المقدس على نفسه حيث يضيف "أنا بقيّة الله وخليفته وحجّته عليكم"[٣]. وسيضاف ١٠٠٠٠ محارب الى الـ ٣١٣ وبهذا الجيش فان المهدي المنتصر (حجة الله) سيستمر في السيطرة على الارض.

ان المهدي لن يتم مهمة النبي الاخير محمد والائمة من بعده بل مهمة جميع الانبياء من قبله وهذا واضح من اقتران مهمته بمهمتهم. وهكذا قيل لنا ان جميع الملائكة الذين كانوا مع نوح في السفينة، والذين كانوا مع إبراهيم حين ألقي في النار، والذين كانوا مع موسى حين فلق البحر لبني اسرائيل، والذين كانوامع عيسى حين رفعه الله إليه، ومع محمد في معركة بدر سيأتون لمساعدة المهدي في نضاله[٤].

ان استمرارية المهدي مع الانبياء الذين سبقوه تذهب الى ابعد من ذلك، حيث انه يمثل جميع الانبياء ووكلائهم. ففي حديث قديم منسوب الى الامام السادس وقد روي على ذمة المفضل يقول ان المهدي سيقف متكئاً

(١) المفيد، ص ٣٤٢.

(٢) القرآن ٨٦:١١؛ اربيري، المجلد الاول، ص ٢٤٩.

(٣) المجلسي ٥٢، ص ١٩٢.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٣٠٦؛ ابن قولويه، ص ١٢٠.

بظهره على جدار الكعبة حيث سيستلم البيعة من الملائكة والجن والمؤمنين من الناس. وسيخاطب كل المخلوقات قائلاً: "يا معشر الخلائق ألا مَن اراد إن ينظر إلى آدم وشيث فها أنا ذا آدم وشيث". ومن ثم سيشير الى بقية الانبياء وممثليهم نوح وسام، ابراهيم واسماعيل، موسى ويوشع، وعيسى وشمعون الصفا، محمد وعلي ومن ثم بقية الائمة، وبعد كل نبي يقول "ومن أراد أن ينظر إلى الأئمة من ولد الحسين فها أنا ذا الأئمة"[1]. ومن ثم سيقرأ المهدي الكتاب او اللفافة (وهي الوحي المقدس) لكل نبي. وكل جماعة نبي معين ستشهد ان هذا هو كتابهم كما اوحي اليهم. ومن الغريب ان نرى ان القرآن الذي يؤكد جميع المسلمين على خلوهِ من أي تحريف او تبديل انه قد عولج في هذا الحديث على انه كأي كتاب وحي آخر، وكما قيل عن أي كتاب آخر فقد قيل عن القرآن كذلك: ومن ثم سيتلو القائم القرآن وسيتعجب المسلمون "هذا والله القرآن حقا الذي أنزله الله على محمد، وما اسقط منه وحُرّف وبُدِّل"[2].

وأخيراً فان المهدي سيحطم البيت المقدس لمكة وهو الكعبة ما عدا الاساس الاول الذي بني على يد آدم وابراهيم وابنه اسماعيل، لان ما بني لاحقاً لم يبن على يد نبي او احد ممثليه[3]. ومن مركزه في الكوفة سيرسل المهدي جيوشاً من الرجال والملائكة والجن لدحر كل الارض. وسينتقم لدم الحسين "ليقتل كل ما بقي من نسل قتلة الحسين عقاباً على افعال اجدادهم"[4].

---

(١) المجلسي ٥٣، ص ٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٩-١٠.

(٣) حول ارساء أسس الكعبة بوساطة إبراهيم وإسماعيل، انظر للقرآن ١٢٧:٢، و ٢٦:٢٢. لا توجد إشارة بان ادم قد بنى الكعبة، ربما في التقاليد المتأخرة.

(٤) لتسويغ هذا الفعل انظر إلى طرح الإمام السادس، ابن بابويه، علل، ص ٢٢٩-٢٣٠.

وفي عهد المهدي سيفقد الزمان والمكان قيمتهما. وبينما يقف في فناء الكعبة المقدسة سينادي جبرائيل "اسرعوا يا رجال في البيعة الى الله !" وسيسمع كل الرجال في المجتمعات المتفرقة هذا النداء ويسارعون الى الاستجابة له. وستجتمع كل الارض لهم وسيقفون امام سيد العصر في رمشة عين(١). وسيُنقي المهدي الارض من كل شر، ومن الخطيئة والظلم. وسيعود الناس الى الاسلام ثانيةً ويقودهم الى الحقيقة(٢). ولن يبقى أي مؤمن لا يعود الى الإيمان الحق ولن يكون هناك أي فساد بين الناس او الاشياء. ولن يبقى أي مرض بدون شفاء، او فقر او حاجة بدون ان تختفي الى الابد. في عهده "وتُخرج الأرض نبتها، وتُنزل السماء بركتها"(٣).

ان عهد المهدي سيكون كالمملكة الآمنة التي رآها نبي اسرائيل القديم(٤). ان الرؤية الشيعية لهذا العهد هي لمدة سلام شامل، رخاء وبركة تذهب الى ابعد من رؤية أشعيا التي تشبه الى حد بعيد الارض الجديدة التي وصفت من قبل القديس يوحنا(٥). ومثل التلميذ الحبيب يوحنا فان الامام السادس الصادق قد صور الارض ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾(٦) إذ "يكون الناس في غنى عن نور الشمس والقمر، وإذا لم يطلع الشمس والقمر يكتفي جميع من على وجه الأرض بنور جماله وإشراقه"(٧).

---

(١) المفيد، ص٣٤٠-٣٤١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣٩.

(٣) الطبرسي، احتجاج، المجلد الثاني، ص١١.

(٤) انظر اشعيا ١١.

(٥) سفر الرؤيا ١ : ٢١.

(٦) القرآن ٦٩ : ٣٩.

(٧) المفيد، ص٣٤٢.

مع ذلك، فاذا كان الائمة واتباعهم الاوائل مقتنعين بمثل هذه الرؤية العظيمة، فان مخيلة الاجيال اللاحقة، التي ربما تولدت بسبب الانتظار الطويل والترقب غير المثمر في رؤية امام يقودهم، لن تتوقف عند أي شيء أقل من الرغبة في رؤية الإمام الحسين الشهيد ينتقم هو بنفسه لدمه من اعدائه. لقد رأينا سابقاً في الفصل الثاني الاشارات الى عودة (كرة) الحسين الى هذه الارض للانتقام لدمه المسفوك. ولم يكن في الحديثين السابقين كليهما أي إشارة او تفاصيل عن انتقام الإمام. وفي الحقيقة فان نصنا الثاني لا يحتاج بالضرورة الى التفسير على انه عودة فعلية، بل يمكن ان يُرى على انه ظهور روحي مؤقت من قبل النبي والائمة الثلاثة الأوائل الذين لا يؤدون دوراً آخر في الفصل الاخير من دراما الغيبيات هذه على الارض.

ان واحد من اوضح الاحاديث للعودة الحقيقة للحسين قد رويت على ذمة تلميذ الامام السادس ابي الخطاب إذ يقول عن الامام السادس انه قال : ان أول من تنشق الأرض عنه و يرجع إلى الدنيا الحسين بن علي وإن الرجعة ليست بعامة و هي خاصة لا يرجع إلا من محض الإيمان محضا أو محض الشرك محضا"[1].

وفي حديث آخر روي على ذمة الحمران ابن أعين وهو تلميذ شهير للامام الخامس والسادس ان الامام الخامس قد قال ان الحسين سيعود الى هذه الدنيا ويحكم لمدة طويلة حتى "حتى تقع حاجباه على عينيه من الكبر"[2]. وبالاضافة الى ذلك يقال ان الحسين نفسه قد وصف رجعته وكذلك انتصاراته الكبيرة : انه سيدحر الهند ويحطم كل الاصنام وسيقتل

(١) مقتبس من "منتخب البصائر"، مثل جميع التقاليد المتعلقة برجعة الحسين، في المجلسي ٥٣، ص٣٩.

(٢) المجلسي ٥٣، ص٤٤.

كل حيوان لم يحلل الله اكله، واخيراً سيجعل اليهود والمسيحيين يختارون بين الاسلام والسيف. فاولئك الذين يختارون الاسلام سيكافأون بينما اولئك الذين يرفضون سيفرض عليهم حد السيف. وفي عهده ستتكسر الاشجار بسبب ثقل حملها من الثمر وسيتمكن الناس من اكل فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. وكل شخص مريض سيشفى وكل شخص فقير سيعطى المؤن[١].

لقد صرح الامام السادس انه بعد ذلك "سيزول كل الغضب وستنسى كل الاحزان"[٢]. إن هذه النهايات المرتبطة بعودة الحسين ووالده وجده، كلها نهايات تعود الى مخيلة لاحقة. فقي يوم القيامة سيشهد الحسين موت سليله المنتصر المهدي. وبما انه من الواجب اقامة واجبات الدفن لسليل ليس كأي سليل آخر[٣]، فان الحسين سيدفن المهدي ويحكم بدلاً عنه مع اصحابه الذين قتلوا معه في كربلاء لـ ٣٠٠ سنة طويلة.

الا ان هذه لن تكون الخاتمة مع ذلك. فالحكم المثوي للحسين سيصل ذروته بالانتصار الاخير على الشيطان وكل اتباعه. وان الرجل الذي سيحقق هذا النصر على يديه هو علي ابن ابي طالب حامل سيف ذي الفقار. ومن ثم سيرسل الله الجبار غيوماً من النار مع الملائكة وسيتحقق حكمه النهائي[٤]. ان هذه المعركة النهائية ضد أساس الشر نفسه، من الطبيعي ان تتم قرب كربلاء المسرح الذي تمت عليه مأساتنا الأرضية.

(١) المصدر السابق نفسه، ص٦١-٦٣.

(٢) ابن بابويه، الثواب، ص١٩٥.

(٣) المجلسي ٥٣، ص ٥٦.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٤٢؛ القرآن ٢١٠:٢؛ اربيري ١، ص٥٦.

لقد اصررنا خلال هذه الدراسة ان الحسين الشهيد العظيم يجسد بالنسبة للمجتمع الشيعي الدراما الكاملة للعذاب والانتقام والخلاص. ان الائمة ولاسيما الثاني عشر سيؤدون دوراً مهماً في هذه الدراما وهذا شيء واضح مما سبق وذكره. الا ان معظم الدراما تدور حول الحسين البطل الكلي لهذه الدراما. هكذا، على الاقل بالنسبة للمذهب الشيعي، فان الدراما الكونية العظيمة التي بدأت قبل الخليقة مع الحسين كشخصية رئيسة فيها، سوف تنتهي معه أيضاً. وما سيلي يوم القيامة سوف لن يكون الا مجرد تحصيل حاصل لقرارٍ سابق لحكمه النهائي الالهي. وبموته سيوفر الحسين دليلاً اخيراً على حجة الله على خلقه من جهة، ومن جهة أخرى ضد خلقه. ومن ثم، سيكون من صلاحياته النطق بالحكم الإلهي على جميع الناس. من هنا يؤكد الإمام السادس بجرأة، "ان الذي سيجري تحقيق الحساب الاخير على الناس قبل يوم القيامة هو الحسين ابن علي، اما يوم القيامة نفسها فسيكون يوم البعث الى الجنة والنار"[(١)].

وهكذا ستكتمل الدورة. بدأنا بخليقة نقية طاهرة، خليقة خُيّرت بين الدينونة والخلاص. والتاريخ هو المسرح الذي يتم فيه تنفيذ هذا القرار بشكل درامي مؤلم. وعندما تنتهي هذه المرحلة ستعود الخليقة الى نقائها الاول وستتغير الارض[(٢)] عن هذه الارض الحالية وستعود كل الممالك الى الله[(٣)].

---

(١) المجلسي ٥٣، ص ٤٣.

(٢) القرآن ٤٨ : ١٤؛ اربيري١، ص٢٧٩.

(٣) القرآن ١٦ : ٤٠.

الخاتمة

لقد تابعنا في هذه الدراسة دراما طويلة من الألم والاستشهاد والخلاص في المذهب الشيعي، منذ بدايتها قبل بدء الزمان، وحتى نهايتها في المستقبل السرمدي، حيث ستنتهي الازمنة. فمن خلال آلآم اولياء الله سوف يتحرر الزمن و التاريخ الانساني. فضا عن ذلك، فعلى الرغم من أن شخصيات خاصة ومعينة تلعب دوراً محورياً في هذه الدراما الطويلة، فهي تملك الكون كله كمسرح لها وكل المخلوقات تلعب دوراً فيها.

ان ظاهرة الفداء من خلال الالم في التاريخ الديني الطويل للانسان، حسب اعتقادنا، قديم وعام. ممكن ان يُرى ذلك في تفاعل الثقافات المختلفة والتقاليد الدينية، ولكن بشكل أعمق في طرق تعبير الرجال والنساء خلال العصور وفي مختلف مناطق العالم، لشوقهم لوجودٍ مفدي افضل مبني على الثقة والايمان بهذا الاحتمال. هذا تأكيد على الحياة في مواجهة الموت قد نوقش بعدة لغات وبأشكال مختلفة. ان عبدة تموز في البقعة نفسها التي قتل فيها الحسين في كربلاء، قد عبروا عن هذا التأكيد بأيمانهم بقوى خفية للحياة ستعيد يوماً ملئ مخازن الغذاء لديهم. الا ان دموع تضرعاتهم كانت ضرورية لاستدعاء الاله الشاب من اعماق الظلام والموت. ان الحب لتموز هو الحب للحياة الحب للزوجة أوللزوج أو الام والابن والاخ والاخت[1].

---

(١) انظر ت. جاكوبسون، نحو صورة لتموز ومقالات أخرى حول الدين والثقافة في بلاد ما بين النهرين، طبعة و.ل. مورين (كامبريدج: مطبعة جامعة هارفرد، ١٩٧٠)، ص ٧٣.

ان انبياء اسرائيل القديمة، الوريثة لتراث مذهب بلاد ما بين النهرين وثقافتها قد عبرت عن هذا التأكيد للحياة والخلاص من خلال الآلآم القاسية لـ "عبد يهوة"[1]. هذا العبد الذي يصور اولاً بحال مثيرة للشفقة والتحقير والعذاب الا انه يرفع فيما بعد، ويتم اعلانه على انه رسول الله وكليمه. لقد عاش خادم الله في التاريخ اليهودي ـ المسيحي وجسَّد كل المعاناة الجماعية للمؤمنين وكذلك المعاناة الفردية للرسل القدامي والمسيح المصلوب[2]. فلو تم تقديم معاناة عبد يهوة الى المذهب الشيعي الاسلامي لوجد، كما نظن، مكاناً في دراما العذاب الطويلة في المذهب الشيعي ايضاً.

لقد كان لمأساة كربلاء تاريخاً حافلاً في الفولكلور والادب والفن والتقوى الدينية للجماعة الشيعية، على الرغم من أن هذا الجانب من تاريخ كربلاء توجب علينا في دراستنا هذه تركه بشكل كبير. ان شخصية الامام الحسين الديناميكية، التي لا تزال تعيش وتنمو في المجتمع الاسلامي، تستحق اهتماماً كبيراً لان الحسين يظهر تجربة هذه الجماعة في فشلها كما في آمالها وطموحاتها. ففي اوقات الصراع والإقصاء والاضطهاد، كان الحسين يعبر عن استنكار جماعته الصغيرة بلعنات ضد مضطهديهم. وفي اوقات الامن والرخاء كان يوفر مثالاً لكل الفضائل الذي يطمح اليه كل مجتمع حر ومتقدم.

---

(١) سفر اشعيا ٤٩ -٥٣.

(٢) انظر الدراسة المهمة لكريستوفر ف. نورث، العبد المتألم عند اشعيا الثاني: في الدراسة التاريخية النقدية، (لندن، مطبعة جامعة اوكسفورد، الطبعة الأولى، ١٩٤٨، وأعيد طبعها في المطبعة الحجرية سنة١٩٥٠).

ومثل كل الشهداء المُخلِصين الذين سبقوه، أدى الحسين دور "أمير السلام"، شافياً ومخلصاً الوجود الانساني، وايضا دور القاضي الرهيب الذي يصدر العقوبات القاسية بدون أي رحمة. ان هذين الجانبين من الحكم القاسي والعفو الرحيم شائع جداً في كل ظاهرة من ظواهر الخلاص. وبصفة عامة فان تشخيص الشهيد كقاض قاسٍ هو نتاج الفشل السياسي والاضطهاد الديني والاجتماعي، واكثر من ذلك فهو يستمر في إغناء أمل المجتمع لمستقبل افضل. ان هذا الجانب من الشخصية عادةً ما يتم تأكيده عليه تناسقاً مع قسوة ظروف المجتمع والمرارة التي تعقب لحظة كئيبة في تاريخه. قد لا يكون هذا بمحض الصدفة، فالادب الرؤيوي عند القديس يوحنا في بداية المسيحية يعد مثالاً جيداً على ذلك، فقد كان نتاج فترة الاضطهاد الروماني للكنيسة. وعلى الشاكلة نفسها فان الكثير من الاحاديث القاسية والخيالية التي تتعامل مع الانتقام والقضاء في المذهب الشيعي تعود الى الاوقات العصيبة التي عاشتها الجماعة في الحقبة الاولى من الحكم العباسي قبل ظهور البويهيين.

مع ذلك، ليس من الصعب ان نرى في الجانب الآخر لشخصية الحسين جانب الرحمة والحب والشفاء والمغفرة التي غالباً ما يعبر عنها في مقارنة واضحة لما يناقضها. وفي عهد المهدي ستسود اخوة شاملة واطمئنان وسعادة وإيمان حقيقي. هناك اختلاف واضح بين الاحاديث التي تم طرحها في هذه الدراسة وتعليق لصديق الكاتب، ابن احد أهم علماء الشيعة لوقتنا هذا، الذي أكد على ان المهدي قد توفي في نهاية غيبته الصغرى التي انتهت بموت ممثله الاخير حوالي ٨٠ سنة بعد ولادة المهدي. ان هذا يعني ان الامام الثاني عشر لم يكن اكثر من قائد روحي للمجتمع حتى في غيابه. وان عودته غير متوقعة وكذلك لأي واحد من الذين سبقوه. وان هذا الصديق نفسه يصر كما يفعل العديد من علماء

الشيعة المعاصرين والناس المثقفين، في ان الدرس الوحيد الذي نملكه من موت الحسين هو شجاعته وتقواه وتضحيته بنفسه[1]. وعندما تذكر احاديث الشفاعة، المكافأة على الحزن لمقتله والجوانب العجائبية لحياته واستشهاده، فان هذا النوع من الناس يصرفونها بارتباك وغضب. فقد قال لي احد العلماء البارزين "ان الحسين قد مات احتجاجاً على جوع الجائع وفقر الفقراء وظلم المظلومين". لذا فان تأكيد جانب واحد من أهمية موت "أمير الشهداء" قد يوفر قاعدة للاتحاد عبر حواجز الطائفية المختلفة والطموح الى تحقيق حاجات عالم اليوم بأتزان وثقة وايمان. ان الدرس المأخوذ من هذا التأكيد المعاصر اكثر تجسيداً وارتباطاً بمشاكلنا الحالية من التأكيد القديم على عذابات وآمال مجردة.

وفي عام ١٩٧٠ شهد المتفرجون في القاهرة دراما مؤثرة عن موت الحسين، الحسين كشخصية ثائرة وشهيد عظيم. وفي الاسطر الختامية من هذه المسرحية يظهر الحسين عبر القرون (مشاراً اليها من خلال خشبة المسرح المظلمة وظهوره بما يشبه الشبح) بما يعطي درساً آخر:

"فلتذكروني لا بسفككم دماء الآخرين. بل اذكروني بانتشال الحق من ظُفرِ الضلال. بل اذكروني بالنضال على الطريق. لكي يسود العدل فيما بينكـم، فلتذكروني عندما تغدوا الحقيقة وحدَها حيرى حزينة. وإذا بأسوار المدينة لا تصونُ حما المدينة لكنها تحمي الأميرَ وأهلَهُ والتابعين. فلتذكروني عندما تجدُ الفضائلُ نفسَها أضحت غريبة فإذا الرذائل أصبحت هيَ وحدها

---

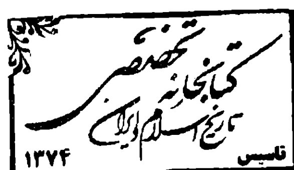
(١) للتعبير عن هذه الفكرة، انظر الدورية الأسبوعية، البيان، (بغداد) طبعها ونشرها علي الخاقاني. للأمثلة الجيدة انظر إلى الاعداد ١١- ١٤ (كانون الثاني ١٩٤٧) والاعداد ٣٤-٣٩ (كانون الأول ١٩٤٧).

الفُضلى الحبيبة، وإذا حُكِمتم من قصور الفانيات ومن مقاصير الجواري فاذكروني. فلتذكروني حينَ تختلطُ الشجاعةُ بالحماقةِ. وإذا المنافعُ والمكاسبُ عدّت ميزان الصداقة. واذا غدا النبل الأبيُّ هو البلاهة. وبلاغة الفصحاء تقهرُها الفكاهة، والحقّ في الأسمال مشلول الخُطى حذر السيوف. فلتذكروني حينَ يَختلط المزيفُ بالشريف. فلتذكروني حينَ تَشتبهُ الحقيقةُ بالخيال. وإذا غدا البهتانُ والتزييف والكذِبُ المجلجَل هنَّ آياتُ النجاح. فلتذكروني في الدموع ولتذكروني حينَ يستقوي الوضيع. فلتذكروني حين تَغشى الدين صيحات البطون. وإذا تَحكّمَ فاسِقوكم في مصير المؤمنين. وإذا اختفى صدحُ البلابلِ في حياتِكم. ليرتفعَ النباح. وإذا طغى قرعُ الكؤوسِ على النواح. وتَلَجلَجَ الحقُّ الصُراح فلتذكروني! وإذا النفير الرائع الظراف أُطلق في المراعي الخضر صيحات العداء. وإذا اختفى نَغَمُ الإخاء، وإذا شكى الفقراء واكتظّت جيوب الأغنياء فلتذكروني ! فلتذكروني عندما يُفتي الجهولُ. وحينَ يستخزي العليمُ. وعندما يستحلي الذليل. وإذا تبقّى فوق مائدةِ امرئ مالا يريدُ من الطعام. وإذا اللّسانُ أذاعَ ما يأبى الضميرُ من الكلام. فلتذكروني إن رأيتُم حاكميكم يَكذِبون ويغدرون ويفتِكون. والأقوياء ينافقون والقائمون على مصالِحِكُم يهابون القويّ ولا يراعون الضعيف. والصامدون من الرجال غدوا كأشباه الرجال. وإذا انحنى الرجلُ الأبيّ. واذا رأيتم فاضلاً منكم يؤاخَذُ عندَ حاكمكم بقولهِ. وإذا خَشيتم أن يقولَ الحقَّ منكم واحدٌ في صحبهِ أو بينَ أهلِهِ فلتذكروني! وإذا خُزِيتُم في بلادِكُم وأنتم تنظرون. وإذا اطمَأنَّ الغاصبونَ بأرضِكُم وشبابُكم فلتذكروني. عند هذا كلّه ولْتَنهَضوا باسم الحياة كي تدفَعوا عَلَمَ الحقيقةِ والعدالةِ فلْتَذْكُروا ثأري العظيم لِتَأخُذوه من الطغاة وبذاكَ تَنْتَصِر الحياة. فإذا سَكَتُّم بعدَ ذاك على الخديعةِ، وارتضى الإنسانُ ذُلَّهُ. فأنا سَأُذبَحُ من جديد. وأظلُّ أُقْتَلُ كلّ يوم ألفَ قتلة. ساظلُّ أُقْتَلُ كلّما سَكَتَ الغيورُ. وكلّما أغفى الصبور. ساَظَلُ أُقتلُ كلما رُغِمَت أنوفٌ في المذلّةِ. ويظلُّ

يَحكُمُكم يزيد. ويفعلُ فيكم ما يريد. وولاتُكم يستَعبِدونكم وهم شرُّ العبيد. ويضلُّ يلعنكم وإن طال المدى جُرحُ الشهيد. لأنكم لم تدركوا ثأر الشهيد.[1].

(١) عبد الرحمن الشرقاوي، ثأر الله، مسرحية في مجلدين، المجلد الثاني، الحسين ثائراً، (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٨/١٩٦٩، ص ٢٨٣-٢٨٦).

المحتويات





البروفسور محمود أيوب

أصله من جبل عامل، ويقيم في الولايات المتحدة منذ عام 1964.

- نال البكلوريوس من الجامعة الأمريكية في بيروت في الفلسفة الغربية.

- حائز على الماجستير في الفكر الديني من جامعة بنسلفانيا عام 1964م.

- حاصل على الدكتوراه في المقارنة بين الأديان من جامعة هارفرد عام 1975م.

- درّس وحاضر في موضوعة الإلهيات والأديان المقارن والفقه الشيعي من جامعة كاليفورنيا وجامعة تورنتو وميكيل ثم جامعة كمبل في فيلادلفيا.

- هو الآن ضرير وتساعده زوجه المختصة في الفكر الشيعي في أداء أبحاثه.



الأب الدكتور أمير الدومنيكي

من مواليد العراق 1969

- نال البكلوريوس من كلية بابل للاهوت عام 1995م.
- حصل على شهادة المتريز في اللاّهوت من جامعة مارك بلوك في ستراسبورغ في فرنسا عام 2002م.
- حصل على الماجستير في التاريخ المقارن للأديان (الإسلاميات) من الجامعة نفسها 2003م.
- حصل على الدكتوراه في تاريخ الأديان من قسم الدراسات الشرقية من جامعة ستراسبورغ في فرنسا 2010م.

مؤلفاته:

- مريم في الإسلام (بالفرنسية).
- مراسيم عاشوراء في العراق: الألم الخلاصي عند الشيعة العراقيين (بالفرنسيه).

هذا الكتاب:

يهتم كتاب **الألم الخلاصي دراسة في المظاهر الدينية لمراسم عاشوراء** بمعنى الألم واستشهاد الحسين حفيد الرسول والشخصية المؤثرة التي تعُدْ الشيعة استشهادها ضرورية من أجل تحقيق دوره بوصفه إمام وبدون ذلك لم يكن بوسعه أن يصبح مثالاً للتضحية ومعياراً للحق والباطل ولا حتى شفيعاً لأتباعه ليوم الدين، والسؤال الذي تهتم باستقصائه هذه الدراسة هو بأية طريقة عدّ استشهاد الحسين فدائياً ومخلصاً، إعتمد الباحث من أجل الإجابة على ذلك عن المواد التقوية والقرطوسية منذ تشكل الشيعة حتى التاريخ المعاصر

ISBN 978-9948-88-746-3



